Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

نفسية المراهق

« بحث فى الصعوبات التى يصادفها الشبان والشابات ، وعلاجها من الوجهة النفسية والاجتماعية ، ومرشد للآباء والأمهات والمعلمين » .

تأليف

رمزية محمد عسكر

ED.D., DIP, M.A., B.A.

دكتور فى التربية من جامعة كولمبيا بنيويورك

وأستاذ فى التربية وعلم النفس من جامعة

برمنجهام بانجلترا

(الطبعة الأولى)

١٣٦٤ هـ - ١٩٤٥ م

الثمن ٣٠ مـ

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

PT30 Purchased from the Author
©
315

نفسية المراهق

«بحث فى الصعوبات التى يصادفها الشبان والشابات ، وعلاجها من الوجهة النفسية والاجتماعية ، ومرشد للآباء والأمهات والمعلمين» .

تأليف

رياض محمد عسكر
ED.D., DIP, M.A., B.A.
دكتور فى التربية من جامعة كولمبيا بنيويورك
وأستاذ فى التربية وعلم النفس من جامعة
برمنجهام بانجلترا

(الطبعة الأولى)

١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

893.785
As 47

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين . وبعد فهذا بحث مختصر ، قصدنا به أن نبين للقارئ ، طرفا من مشاكل النمو ، التى يتعرض لها الفتيان والفتيات . وهو البحث الأول من نوعه لقراء العربية ، رغما عن كثرة الأبحاث الشبيهة به ، لقراء اللغات الأجنبية . فرأينا أن نقتبس ، مما كتبه علماء النفس والاجتماع والمربون ، الأمريكيون والأوروبيون ، ما يمكن تطبيقه فى بلادنا ومجتمعاتنا ، وأضفنا إليه ما وصلت إليه خبرتنا فى دراساتنا ، ببلادنا وبلاد الغرب فى أمريكا وانجلترا. ومما لا شك فيه ، أننا لم نزل ، فى مصر ، على أبواب البحث العلمى ، ولم نتوغل فيه توغلا يشفى الغلة ، ويوفى الحاجة ، فليست لدينا الإحصاءات الكافية ، عن مميزات النمو أو مشاكله ، وليست لدينا الدراسات الفردية ، التى تلقى ضوءا على مشاكل شبابنا وشاباتنا . غير أننا مع هذا ، قد جنينا خبرة وحقائق ليست بالقليلة ، فى علاج مشاكل المراهقة ، فى العيادة السيكولوجية بمعهد التربية ، وفى مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث بالقاهرة ، فضلا عن خبرتنا فى عيادات لندن السيكولوجية ، ومعامل علم النفس ، ومكاتب التوجيه والإرشاد السيكولوجى فى أمريكا . وإنا لنأمل أن تكون الطبعة القادمة ، محتوية لأمثلة أكثر من مشاكل المراهقة ، فى مصر ، وعلى إحصاءات أكثر كذلك عنها ، ولا أظن أن ذلك الأمل بعيد التحقيق ، لما نراه من تيقظ الأمة والحكومة ، إلى الأبحاث والإصلاحات الاجتماعية .

المؤلف

3 1952

الفصل الأول

تمهيد

المراهقة دور من أدوار حياة الإنسان ، يأتى فى العقد الثانى ويمتاز بسرعة النمو وكثرة التغيرات التى تنتاب جسم الإنسان وعقله .

ولكن حياة الفرد ، رغم هذا ، كلها وحدة متصلة ، ولو أنها تظهر كأنها مكونة من أجزاء أو حلقات متعاقبة ، تمتاز بمميزات خاصة ، إذ أن تلك الحلقات لا يفصلها عن بعضها فوارق حادة بارزة ، وإنما تتداخل فى بعضها وتتحد فى كثير من الصفات . فمثلا تظهر فى كل أدوار حياة الفرد ميزة ظاهرة ، ألا وهى نظام دورى يتمثل فى تعاقب فترات خاصة ، كالنوم ثم اليقظة ، وكتعاقب الأسابيع وبكل منها يوم راحة ، وتعاقب الفصول والسنين وهكذا . هذه الفترات ظاهرة للعيان ، غير أن هناك فترات أخرى متعاقبة أقل ظهورا للملاحظة العادية ، ولكنها تبدو للملاحظة الخاصة التى تترقبها . كمراحل النمو العقلى والجسمى ، التى يغفلها الكثيرون من المربين فى تربية الأطفال والفتيان ، فينجم عن ذلك ضرر ليس بالقليل . وقد اتضح وجود فترات أو أدوار ستة فى حياة الفرد بعد الولادة وهى :

أولا — دور يسرع فيه النمو ، فيزيد الفرد فى الطول والوزن ، ويمتد هذا الدور إلى سن السابعة .

ثانيا — دور يستمر فيه النمو ، ولكن بسرعة أقل حتى الحادية عشرة أو الثانية عشرة .

(ويطلق اسم الطفولة على الفترتين السابقتين) .

ثالثا — دور يتلوه ، تزيد فيه سرعة النمو حتى تصل إلى أقصاها فى سن

الثالثة عشرة عند البنات ، والرابعة عشرة عند البنين (ولو أن هذه الأعمار قد تختلف قليلا من أمة إلى أمة) .

رابعا — بعد ذلك يهدأ النمو ، حتى يقف فى السنين الأولى من العقد الثالث . ويطلق على الفترة التى بين الحادية عشرة والسابعة أو الثامنة عشرة اسم دور المراهقة . ويلاحظ فيه أن النمو يسرع فى النصف الأول منه إسراعا عظيما ، ثم يهدأ فى النصف الثانى ، وتكتسب الأعضاء النامية قوة وصلابة .

خامسا — دور النضوج أو الرجولة

سادسا — دور الكهولة

فالأدوار التى ذكرناها : الطفولة والمراهقة والنضوج أو الرجولة ثم الكهولة . ليست إلا فترات متعاقبة فى نمو الإنسان ، وتظهر فى جميع أفراد النوع الإنسانى على السواء وإن وجدت فوارق بسيطة ، كظهورها متقدمة فى البعض ومتأخرة فى البعض الآخر مثلا .

وقد ظهر للكثيرين ما لدور الشباب ، وعلى الأخص فى فترة المراهقة ، من الأهمية بين الأدوار الأخرى لخطورته ، إذ فيه تتضارب الأهواء ، وتجمح بالشباب انفعالاته .

ولقد بحث علماء النفس الأوروبيون والأمريكيون وغيرهم هذا الدور بحثا مستفيضا ، ولكننا مع الأسف لم ننتبه إلى بحثه فى مصر بعد ، بل إن الكثيرين من الآباء والمربين يكادون لا يعلمون عنه شيئا يقينيا ، وإن علموا فإنهم لم يقدسوا حرمته ، ويتخذوا العدة لصيانته والمحافظة عليه .

ولقد خرج الأستاذ الكبير ستانلى هول[1] من أبحاث كثيرة بالنتيجة الهامة الآتية : وهى أن السنين الأخيرة من دور الطفولة يوفق فيها الفرد بين طبيعته وطبيعة البيئة التى تحيط به . ويقول كذلك إن المراهقة هى الدور الذى

---

(١) أخرج الأستاذ ستانلى هول سفرا ضخما عن المراهقة وضمنه أبحاثا مستفيضة عن ذلك الدور وهو كتاب Adolescence .

تنحل فيه الميول الإنسانية التى تكونت فى الدور السابق ، وتتعدل ثم تلتئم ثانية ، فكأن دور المراهقة هذا دور ظهور ميول وصفات إنسانية كثيرة ، إن لم يكن لأول مرة فبشكل جديد لم يعهده الفرد من قبل ، فهو الدور الذى يدخل فيه الفرد ويخوض غمار حياة النوع الإنسانى على حقيقتها .

ويقول الدكتور سلوتر إن طول زمن المراهقة يزداد بتقدم المدنية ، وهذا فرق من أهم الفروق التى تميز الإنسان المتمدين عن غير المتمدين .

وقد وجد الكثيرون من الأبحاث التى أجروها فى هذا الموضوع ما يؤيد خطورة دور المراهقة ، هذا الدور الذى يزيد فيه نمو الجسم عامة ، والأعضاء الجنسية خاصة . وأهمية دور المراهقة تأتى من ظهور روح جديدة فى الفرد ، تعبر عن نفسها فى نواح مختلفة من حياته ، فإذا نظمت وهذبت كانت النتيجة خيرا له ، وملائمة أتم لبيئته . وكما أن دور الطفولة يتميز بمحاولة الفرد أن يلائم بيئته الطبيعية أو المادية ، فإن دور المراهقة يتميز بمحاولة الفرد أن يلائم بيئته الاجتماعية والروحية .

ولقد شعرت جميع الأمم بالتغيرات التى تنتاب الفتى والفتاة فى دور البلوغ ، والتى تجعلهما ينتقلان من دور الطفولة فتنشىء منهما رجلا أو امرأة ، فأخذت القبائل المتوحشة تستقبل هذا الدور بمراسيم rites خاصة ، تكون بمثابة اعتراف بخروج الفتى أو الفتاة من الطفولة . وكانت تلك المراسيم عند بعض القبائل مرهقة ، وأحيانا تصل إلى حد القسوة ، فمثلا عند بعض قبائل استراليا تقتضى خلع واحدة أو اثنتين من أسنانه ، حتى ولو اقتضى الأمر بعض اللكمات . وعند بعض قبائل أمريكا الشمالية ، كانت تقتضى حبس الناشىء بضعة أسابيع ، وضربه ضربا مبرحا ، وإعطاءه الغذاء الضرورى فقط[1] . كما كانت توقع على البنات مثل تلك التدابير القاسية أيضا بينهم ؛ إذ كانت البنت تحبس فى بيت صغير لمدة شهر ، وأحيانا عدة شهور أو أكثر ،

(١) Lawson : History of Carolina

ولا يسمح لها بالخروج منه إلا عند ما يخيم الظلام . وبين بعض قبائل البرازيل ، كانت البنت إذا بلغت تحجز بالبيت شهرا ، وتطعم الخبز الجاف والماء ، ثم يؤتى بها فيضربها أقاربها وأصدقاؤهم حتى تفقد وعيها ، وكان ذلك يفضى إلى موتها أحيانا .

وبين بعض القبائل الأخرى ، لم تكن تلك المراسيم بمثل هذه القسوة . فمثلا عند بعض قبائل ويلز الجديدة الجنوبية باستراليا[١] كان يعنى بتربية الفتى المراهق من الوجهة الخلقية ، فيلازمه أحد كبار القبيلة فيعلمه كل مساء واجباته ، ويزوده بالنصائح التى تنير طريقه فى الحياة . وكانت طريقة النصح من الدقة بمكان ، ويتخللها من الرحمة والتأثير ما يلين قلب الفتى ، ويسيل الدموع من عينيه فى كثير من الأحيان .

وفى الفصل التالى ، سنتكلم عن كيفية النمو فى دور المراهقة ، وعن التغيرات التى تنتاب الفتى والفتاة ، ليخرجا من الطفولة إلى المراهقة .

---

(١) Palmer : Journal of Anthropological Institute. Vol. 13, p.296

الفصل الثانى

التغيرات التى تحدث فى دور المراهقة

١ — التغيرات الجسمية

لا شك أن إحاطة الآباء والمعلمين ، بخصائص نمو المراهقين ، تفيدهم كثيرا فى معاملتهم ، وفى اختيار نوع الأعمال التى يكلفونهم بها . فهى تشرح لهم سبب ما يلاحظونه فيهم ، من قلة الرشاقة ، وعدم التوافق فى حركاتهم ، وتوقفهم على السر فى ثوراتهم الوجدانية ، وفى قلقهم واضطرابهم ، وقلة ثباتهم وسرعة تضايقهم ، تلك الصفات التى تلاحظ كثيرا فى تلاميذ المدارس الثانوية وتلميذاتها .

والنمو الجسمى ، هو الأساس الذى ينبنى عليه النمو الوجدانى ، والاجتماعى ، والاقتصادى . فالطفل الذى لا يقوى جسمه ، ولا تنمو أعضاؤه الجنسية ، ولا ينضج مخه ، وتبقى أعضاؤه وأجهزته الباطنية بحجمها وسعتها لا تجارى النمو الجسمى ، لا يستطيع أن يكون رجلا ، ولا يصل تفكيره إلى تفكير الرجال ، كما لا يستطيع أن يكسب أود نفسه .

فى هذا الدور ينمو الجسم نموا سريعا ، ويزيد وزنه لدرجة قد تجعل الهيمنة على الأعضاء المختلفة صعبة لحدما ، فتصبح حركات الأطراف كالأيدى والأرجل ، وحركات الجذع كذلك غير متناسقة وغير متزنة ، وعلى الأخص عند الذكور ، إذ تبدو فيهم هذه الظاهرة أكثر من الفتيات . فى عهد الطفولة تعود الطفل أن يسيطر على أعضاء جسمه وأطرافه ، وعرف كيف يستخدمها فى قضاء حاجاته ، كالصانع الذى تعود آلاته فتكون لديه شىء من المهارة

والسرعة والتوافق عند مايستعملها فى يديه ، ولكن إذا أعطيته آلات جديدة وطلبت منه استعمالها بعد طول تعوده على الآلات القديمة ، شاهدت عليه شيئاً من الاضطراب ، وصعب عليه أن يؤدى بها الأعمال الدقيقة ، قبل أن يتعود عليها . وكلاعب التنس الذى يستعمل مضربه الخاص ، حتى إذا فقده واضطر إلى استعمال غيره ، وجد ضرباته غير منتظمة ، ووجد أن يده لا تستطيع أن تحكم المضرب الجديد كما كانت تحكم المضرب القديم . ولذا يشاهد أن الفتى (أو الفتاة) فى هذا الدور ، يكره أن يساعد فى ترتيب المائدة أو تقديم الشاى ، لأن كثيرا من الحركات التى يشتمل عليها ذلك ، تحتاج إلى توازن فى الذراعين أو اليدين أو الأصابع ، فهو يخاف أن يندلق الشاى على ملابس الضيوف ، لعدم وثوقه من أصابعه وذراعيه ، التى قد طالت فأصبحت كأنها جديدة عليه . ويزيد فى خطبه أن الأعضاء حتى فى نموها السريع لاتنمو بنسبة واحدة ، ولا فى وقت واحد ، بل بعضها يصل إلى نهاية سرعته فى أوقات مختلفة عن البعض الآخر ، فمثلا اليدان والقدمان تنمو لحد لايتناسب مع طول الجسم ، فى أوائل دور المراهقة ، إذ يصل طولها عندئذ نهايته بينما أعضاء الجسم لم تصل إلى هذه الدرجة بعد . فتجد أن الصبى والفتاة لم تعد ملابسهما مناسبة لهما لقصر أكمامها بينما الأحذية القديمة أصبح لبسها مؤلما للقدمين لنموهما بسرعة . وقد حدث أن فتى كان كلما ذهب فى رحلة مدرسية ، لزيارة متحف أو معرض ، يجلس عدة مرات أثناء الزيارة ، ويخلع حذاءه ليريح قدميه منه لضيقه ، إذ أن أباه أجبره على لبسه ، ورفض أن يشترى له حذاء جديدا بينما القديم لم يستهلك بعد . ذلك النمو غير المتناسب يبعث فى الفتى المراهق قلقا وحيرة ، نظرا لجهله بتلك الحقيقة ، إذ يخيل إليه أن يديه وقدميه سيطرد نموها بتلك السرعة ، وعندئذ تصبح ذات طول شاذ . ويستحسن أن يطمأن خاطره حينئذ ، بأن يقال له إن هذه الأعضاء تنمو قبل غيرها ، وإنها قد وصلت إلى نهاية كمالها فلن تنمو بعد ذلك . وكذلك الأنف

تصل نهاية نموها قبل كثير من الأعضاء الأخرى ، وكم يصرف المراهقون والمراهقات من ساعات طويلة أمام المرآة يلاحظون أنوفهم ، التى أقلقهم نموها السريع ، وهم خائفون أن تظل على ذلك فتسىء إلى شكلهم بطولها الذى لايتناسب مع شكل الوجه وهو لم يزل بعد صغيرا ، غير عالمين أنه عما قليل سينمو الوجه والأعضاء الأخرى ، ويتم التناسب بينها وبين الأنف .

ومما يلاحظ ، أن الجزء الأعلى من الوجه ، يصل إلى كمال نموه ، قبل الأسفل ، ويكون الفك ، آخر عظام الوجه فى تمام نضوجها .

ويصحب طول العظام تغير فى تركيبها كلما تقدم الفرد فى السن ، فعظام الأطفال تختلف عن عظام الكبار ، لافى حجمها فحسب ، بل فى كثافتها وتركيبها ، فهى صغيرة لينة .

وتتسع مسام الجلد فى ذلك الوقت ، وقد يحدث أن بعض الغدد يختل عملها ، فتنسد المسام ويحدث تشويه للوجه ، نظرا لظهور بعض الحبوب والدمامل ، التى يطلق عليها اسم حب الشباب ، وغيرها مما يؤلم المراهقين نفسيا ويلجئهم إلى استعمال مختلف الأدوية والمساحيق وغيرها من أدوات التجميل ، ويرجع سبب هذه الحبوب والدمامل فى كثير من الأحيان ، إلى سوء الهضم وسوء الغذاء ، وهى مهما كان سببها ، تشتت انتباه التلاميذ أثناء الدراسة ، ولذا تعتبر مشكلة من مشاكل المعلم ، الذى يود من التلاميذ الإصغاء إليه ، فى حين أن البعض منهم مشغول بتلك الحبوب ، التى قد تدعوه إلى حكها ، أو التى تسىء إلى شكل وجهه فى وقت هو شديد الرغبة فيه لاجتذاب احترام الجنس الآخر .

أما الفروق التى بين المراهقين فى الطول والحجم وسرعة النمو ، فترجع لحد ما إلى الوراثة ، قريبة كانت أم بعيدة ، وقد يكون لعوامل البيئة تأثير فيها أيضا . ولكن مالا شك فيه ، أن النسبة بين الأفراد المختلفين تظل ثابتة ، بمعنى أن الطويل يظل طويلا ، والقصير يظل قصيرا . أما الاعتقاد السائد أن طفلا قصيرا قد ينمو فيصبح ماردا ، أو أن طفلا قد يقف نموه فجأة فيصبح من

قصار القامة ، فقد دلت الأبحاث على خطأه ، إذ قلما يحدث أن ينعكس النمو الإنسانى على هذا النحو .

ويلاحظ كثيرا أن الفتى قد يبدو صوته غريبا تارة خشنا وتارة منسجما رفيعا ، وقد يتعاقب الصوتان فى لفظة واحدة فلا يبدو صوته جميلا ، ذلك لأن الجهاز الصوتى قد نما فجأة ، ولم يستطع الفتى أن يتعود استعماله بعد ، فتراه لايعرف إن كان صوته سيكون عاليا أم منخفضا ، خشنا أم رفيعا ، فيزيد هذا من حيائه ، فيخشى الكلام وسط الضيوف مثلا وعلى الأخص فى حضرة السيدات . ويرجع هذا التغير فى الصوت إلى نمو الجهاز الصوتى ، فالخيوط الصوتية يزيد طولها عندئذ إلى مايقرب من الضعف ، وهذا هو السبب فى تغير الصوت من الرفيع العالى إلى الغليظ المنخفض ، كما أن الحنجرة تكبر وهذا هو السبب فى حدوث البروز المعروف فى الرقبة . ويختلف الفتيان عن الفتيات قليلا فى هذه المسألة ، فصوتهن فى العادة لايصل إلى درجة كبيرة من الخشونة ، ولو أنه قد يعتريه قليل منها ويفترق صوت الفتاة البالغة عن صوت الطفلة فى أنه أكثر امتلاء ، من غير اختلاف بين فى النغم Pitch .

أما فى طول القامة ، فيكون البنات والصبيان متعادلين فى المتوسط ، حوالى العاشرة أو الحادية عشرة ، مع أن الذكور كانوا يفوقون الأناث قبل ذلك ، ولكن بعد الحادية عشرة ، نجد أن البنات يسبقنهم ، لافى طول القامة فقط ، بل فى الوزن أيضا ، حتى يلحق بهم هؤلاء حوالى الثالثة عشرة ، وقد يسبقونهن عندئذ . والسنة التى تبدأ فيها المراهقة أو البلوغ تكون فى العادة أسرع السنين نموا ، فقد يزيد طول البعض فى هذه السنة ما يقرب من خمسة عشر سنتيمترا . وقد يزيد الوزن فى بعض الأحيان مالا يقل عن عشرين أو ثلاثين رطلا ، ولو أن مثل هذه الزيادات العظيمة يكون فى العادة شاذا قليل الحصول .

وقد دلت الإحصاءات على أن متوسط زيادة الفتى فى الوزن من سن

الثانية عشرة إلى السابعة عشرة ، يعادل زيادته فى السنوات العشر السابقة ولذا كان النمو فى العظام والعضلات أسهل مميزات المراهقة على الملاحظة العادية ، وأوضحها للعيان . فعند مانرى الصبى قد اعرض كتفاه وطالت يداه ، وقدماه وذراعاه وساقاه ، حكمنا توا أنه أقبل على دور المراهقة .

ذلك النمو السريع يوقع المراهق وأبويه أحيانا فى حيرة واضطراب ، فمثلا تزداد الشهية للطعام ، وقد تصل أحيانا إلى درجة غير عادية . وقد حدث مرة أن غلاما زاد طوله فى سنة واحد خمسة عشر سنتيمترا ، وازدادت شهيته تبعا لذلك ، حتى أنه كان يستيقظ من نومه جائعا فى الليل فيملأ بطنه بالماء .

ويحدث عدا التغير فى الطول والوزن ، تغير فى شكل الأعضاء أيضا ، فيخلع الفرد رداء الطفولة ، ويتخذ مظهر الراشدين من أفراد جنسه . فينمو الحوض عند البنات بدرجة تفوق نموه عند الصبيان حتى يصبح مشابها لنظيره عند النساء . كما أن صدرهن يرتفع ، وتحدث فيه استدارة خاصة ، بعد أن كان مستقيما . ويتسع الزور ويأخذ كذلك شكلا مستديرا ، كما أن الأكتاف يزداد عرضها وتمتلىء بعد أن كانت ضئيلة نحيفة فى عهد الطفولة . أما الصبيان فتظهر فيهم مميزات الرجولة ، فتبرز عضلاتهم كما فى الذراعين والأرجل ، بعد أن كانت هذه نحيفة مستديرة . وتعرض الأكتاف بدرجة واضحة ، ويشتد الساعد ، كما أن عظام الفك تصبح أكثر بروزا عن ذى قبل . وكذلك الأعضاء التناسلية ، فإنها تشترك مع بقية أعضاء الجسم فى النمو ، وتتخذ شكلها النهائى فى هذا الدور ، ويحدث نموها السريع فى بدء ظهور المراهقة .

وربما كان أظهر مميزات البلوغ عند البنات الحيض ، ولو أن هناك صفات أخرى من صفات البلوغ تظهر قبله وتنذر بقدومه كالطول فى الجسم ونمو الثديين ، وظهور الشعر تحت الإبطين وبالقرب من الأعضاء الجنسية ، وظهور الاستدارة فى أعضاء الجسم بدلا من شكلها السابق . غير أن نمو الحوض والصدر أظهر المميزات وأسرعها ملاحظة .

ولقد حاولت الأمم المتوحشة تفسير الحيض بأسباب شتى ، فمنهم من قال إن هناك ثعبانا يلدغ البنت ، أو تمساحا أو طائرا مقدسا . ومهما كان من أمر ذلك الحيوان ، فالفكرة السائدة عندهم أن سبب تلك العادة الشهرية ، جرح داخلى . وعند بعض تلك الأمم يسود الاعتقاد بأن القمر يتخذ شكل إنسان ويعانق الفتاة ، فيحدث لها مايحدث ، فكأنهم ينظرون إلى أول حدوث لتلك العادة كزواج ، ولذا فإنهم يضطرون الفتاة لأن تتزوج قبل البلوغ ، وإلا فقدت مركزها بينهم . ولا تزال العلاقة بين القمر وتلك العادة الدورية ملاحظة معتقدا فيها فى العصر العلمى الحالى .

ويختلف السن الذى تبدأ فيه تلك العادة باختلاف الأمم والأجواء وقد وجد أحد البحاثة فى أمريكا أن متوسط السن الذى تبدأ فيه هو ١٣ سنة وتسعة أشهر، وذلك بعد اختبار عشرة آلاف حالة من البنات . ولكن فى نفس خط العرض من أوروبا ، نجد أن السن يتأخر إلى ١٥ سنة و ٥ أشهر . ولكن هناك حالات تختلف عن ذلك المتوسط ، فقد يحدث أن فتاة تبدأ أول مرة لها عند سن التاسعة والنصف ، أو قد تتأخر أخرى إلى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة.

ويهم القائمين بالتعليم معرفة تأثير تلك العادة على الحالة العقلية والجسمية للفتاة أثناء حدوثها . ولقد وجدنا أن البحث لم يدل على حدوث تغير فى درجة الحرارة أو النبض أو ضغط الدم أثناء ذلك الدور ، كما أنه لاتتأثر القدرات العقلية أثناءها عند النساء الصحيحات ، وإنما المصابات بأمراض عصبية أو جنون يتأثرن بها أكثر من غيرهن . إلا أن ذلك الموضوع لم يصل فيه أحد إلى نتيجة يقينية حاسمة . غير أن المشاهد أن كثيرا من البنات يصيبهن ألم قد يستمر طويلا أو قليلا ، وتصيبهن آلام فى الرأس وتوتر فى الأعصاب وألم فى الثديين وتهيج فى المثانة ، وقد يصيبهن إسهال ، بينما البعض يصيبهن إمساك . وبصفة عامة تقل حيويتهن فيصبحن أكثر قابلية للتعب والملل ، وأقل جلدا على العمل الجثمانى والعقلى .

هذه الفترات بلا شك تعوق تعليم البنت فى ذلك الوقت من كل شهر ، وعلى القائمين بأمرها أن لا يصروا على إجهادها عندئذ . نعم إن الكثير من البنات يأتين الألعاب الرياضية ، كالجرى والسباحة والرقص ، أثناء تلك العادة ، إلا أن الضعيفات منهن يتأثرن بها أكثر من الصحيحات .

ويشمل النمو عند المراهقين والمراهقات الأجهزة والأعضاء الداخلية أيضا إذ قد يزيد حجمها ، وتنشط فى عملها ، وعلى الأخص الغدد المتعلقة بحركة النمو ، فهذه تنشط بدرجة كبيرة ، وتتلاشى الغدة النكفية التى كانت موجودة أيام الطفولة ، فى حين أن الغدة الدرقية ، التى فى أسفل الرقبة ، تزيد حجما ، وعندئذ يبرز هذا الجزء من الرقبة ، وعلى الأخص عند البنات . وإن أثر بعض الغدد فى نمو الجسم لعظيم ؛ إذ أن عصارة البعض منها تحدد مقدار النمو ، فإن زادت أصبح الشخص طويلا كالمارد ، وإن قلت أصبح قصيرا كالقزم .

أما الغدد الجنسية ، فتبدأ عملها لأول مرة فى دور المراهقة ، ويكون التطور الجنسى أظهر التغيرات التى تنتاب الفرد ، فهو مع أهميته فى حياة الفرد يحدث له كثيرا من القلق والدهشة . فنمو الأعضاء الجنسية ، وظهور إفرازاتها ، يحدث للفتى ارتباكا واشمئزازا ، ولا سيما أنه من الصعب السيطرة عليها فى بعض الأحيان نظرا لخضوعها « للأفعال المنعكسة » .

وإن نضوج الغدد الجنسية ، بلا شك من أظهر علامات حلول المراهقة . وليست أهميتها ناشئة من مجرد نموها فى حد ذاتها فقط ، بل من التغيرات الوجدانية التى تصحبها أيضا ، وسنفصل ذلك عند الكلام على التغيرات الوجدانية .

وتفرط غدد العرق فى إفرازاتها ، ولذا كثيرا ما نلاحظ أيدى التلاميذ فى المدارس الثانوية ووجوههم تفيض بالعرق أكثر من تلاميذ المدارس الابتدائية ، مما يسبب لهم مضايقة عظمى ، لا سيما فى حصص الرسم وغيرها ،

التى يخشون فيها تلويث كراساتهم بالعرق الذى يفيض من أيديهم . وتزيد كمية العرق المفرز باشتداد الحر ، ولكن أى عمل يثير فيهم انفعالات قوية يزيد فى عرقهم أيضا ، كالارتباك والخجل ، أو إعمال الفكر فى واجب مدرسى صعب ، كمسألة حسابية صعبة ، أو تمرين هندسى عويص ، أو خريطة معقدة وهكذا . وسخرية التلاميذ من أحد زملائهم تزيد فى إفرازه وتزيد فى ارتباكه على أن تلك الغدد لا تلبث أن تعود إلى حالتها الطبيعية بعد استقرار النمو العام للفتى أو الفتاة .

كذلك تنمو المعدة لتسد حاجة الجسم الذى نما ، وتنمو بقية أعضاء الجهاز الهضمى بنفس النسبة ، كما أن الرئتين والقلب تنمو ويزداد حجمها ، وتستطيع الرئتان فى هذا الدور تحمل العبء الذى يوضع عليها ، ولو كان ثقيلا ، وتتشكلان لمواجهته والقيام به ، على عكس القلب الذى ينوء بالمجهود الذى لا يتناسب مع حجمه وقوته فى هذا الدور .

أما المخ فلا يشاهد فيه نمو فجائى ، سواء فى الطول أم العرض أم الوزن ، فهو والرأس يكونان قد وصلا إلى تمام نموهما تقريبا ، قبيل دور المراهقة . فرأس الرضيع الحديث الولادة كبيرة جدا بالنسبة لجسمه ، وتنمو من الولادة إلى سن السادسة بدرجة أبطأ من الجذع والأطراف . ولو احتفظ إنسان بالنسبة بين رأسه وهو رضيع وبين جسمه ، لكان شكله عجيبا ، إذ تكون رأسه ضخمة جدا . وعند السادسة ، تكون الرأس قد بلغت حوالى تسعة أعشار حجمها عند تمام نموها ، وعند الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ، لم يبق لها من النمو إلا ما يعادل ٥٪ أو ٦٪ من محيطها الذى ستبلغه عند تمام نموها .

هذه التغيرات السريعة تجعل الفتيان والفتيات عرضة لبعض الأمراض والعاهات ، إلا إذا عنى بهم ، واتخذت الحيطة الكافية لوقايتهم منها ، فمثلا يزيد تعرضهم لمرض الأنيميا ، واعوجاج العمود الفقرى ، والنزيف الأنفى ، ووجع الرأس ، واختلال ضربات القلب ، والأمراض العصبية . وتتضح لنا أهمية

هذا الخطر من الإحصاءات التى وصل إليها السير وليم هيمر ، من بحث أجراه على ٢٠٠٠ تلميذة من تلميذات المدارس الثانوية فى انجلترا ، إذ وجد أن ٦,٨٪ عندهن أنيميا ، و ١٦,٧٪ عندهن اعوجاج فى العمود الفقرى ، و ١٥,٢٪ يشكون ضعف البصر . وهذه الزيادة فى نسبة الأمراض والعاهات، تدل دلالة واضحة على أن المدرسة لم تعد إعدادا صالحا للمراهقين بعد ، حتى فى بلد كانجلترا ، يعتبر فيها التعليم أحسن مما عندنا بكثير ، ولا سيما العناية بالتربية البدنية . ويتعرض الفتيان لكثير من أمراض الصدر والقلب ، ولكن يلوح أن الإجهاد العقلى لا يضر بهم ضرره بالفتيات . ويقول السير وليم هيمر ، إن نسبة ضعف البصر تزداد فى المدارس الثانوية ، من السنوات الأولى إلى السنوات الوسطى ، أى التى فى منتصف المرحلة .

هذه الأمراض والعاهات ناتجة من تلك السرعة فى النمو ، التى قد لا يكون الجسم مستعدا لها بعد ، ولا بد لكل من يشترك فى تربية النشء أن يتخذ لها العدة الكافية . فمثلا يضطر القلب فى دور المراهقة ، لبذل جهد أكبر من ذى قبل نظرا لكثرة الدم الذى يجب عليه أن يرسله إلى الأورطى كل ثانية من ثوانى الحياة . فعند الولادة ، يقذف القلب إلى الأورطى عشرين جراما من الدم فى الثانية ، تزيد حتى تبلغ ثلاثا وستين جراما فى سن الثالثة ، ولا تزال تزيد حتى تبلغ ١٤١ جراما فى سن الرابعة عشرة ، أى أكثر من ٢٠٠٪ من المقدار الذى كان يرسله فى الطفولة إلى الأورطى . هذا مع العلم بأن القلب ذاته لم يزد حجمه إلا بقدر ٣٠٪ . ومعنى هذا أن القلب يعمل بقوة أكبر مما كان يعمل فى أيام الطفولة . فالواجب إذن أن لا يكلف المراهقون أو المراهقات ، ببذل جهود رياضية مرهقة ، حتى لا يتعرض القلب للتضخم ، وهو كثير الحدوث فى هذا الدور . كما أن الإفراط فى مستلزمات الحياة الاجتماعية ، قد يؤدى إلى الإضرار بصحة المراهقين والمراهقات أيضا ، فالإفراط فى السهر والتدخين وحفلات اللهو والشراب ، كلها تستنفد من

حيوية الناشئين ما لا يعوضه إلا فترات طويلة من الراحة ، قد لا يجدها المراهق وهو فى أعز الحاجة إليها .

هذا ويلاحظ أنه على الرغم من ازدياد تعرض المراهقين للأمراض فى هذا الدور ، فإن نسبة الوفيات تكون أقل عندئذ منها فى أى دور آخر . هذا عن الوفيات الطبيعية ، أما الوفيات الناجمة عن الحوادث ، فإنها تزداد فى هذا الدور ، وربما كان هذا راجعا إلى الحرية التى اكتسبوها عندئذ ، فنجد أن حوادث الغرق والسيارات والأسلحة النارية ، ربما كانت أكثر فى هذا الدور منها فى أى دور آخر ، وهذا يعزى إلى أن تلك الآلات والمخترعات الحديثة يبدأ المراهقون فى استعمالها عندئذ ، من غير رقيب ، على قلة خبرتهم بها .

قد يتبادر إلى ذهن القارئ أن هناك نموا فجائيا يظهر مرة واحدة فى حياة الفرد ، ولذا نؤكد هنا أن النمو الذى ذكرناه لا يكون فجائيا فى وقت من الأوقات ، بل هو تدريجى فى جميع أوقاته ، وإنما يكون أسرع فى آونة منه فى أخرى . كما تجب ملاحظة أن النمو مع تباينه فى الأعضاء المختلفة ، يظل وحدة تامة مترابطة النواحى ، وما يحدث لعضو من الأعضاء يكون شديد الاتصال بما يحدث لبقية الأعضاء .

وليس من شك فى أن دراسة نمو المراهقين الجثمانى ذات أهمية عظمى للمشرفين على أمورهم وتربيتهم لأنها تشرح ، فى كثير من الأحيان ، ميولهم نحو أنواع معينة من الألعاب ، وظهور التآخى بين بعض الأفراد . وليس من شك فى عظم أهمية هذه الدراسة لمعلمى التربية البدنية ، لشدة اتصالها بالنمو الجثمانى ، والتوافق بين حركات أعضاء الجسم المختلفة ، ولا يغيبن عن الذهن أن مشاكل النمو الجثمانى شديدة الارتباط بالنمو العقلى والنفسى ، وهما شديدا الاتصال بتربية الفتى والفتاة .

ب — التغيرات العقلية

لا يقتصر الأمر على التغيرات الجسمية فقط ، بل هناك أيضا تغيرات عقلية ذات بال ، ولها علاقة وطيدة بالتغيرات الجسمية ، فقد دلت الأبحاث على وجود علاقة بين القدرات الجسمية والعقلية ، ولو أن هذه العلاقة ضئيلة القدر فى بعض الأحيان . فمثلا لا يوجد فرق بين ضعاف العقول وغيرهم ، من حيث النمو الجثمانى ، اللهم إلا فى علامات معينة .

ويتضح فى دور المراهقة نمو فى القوى العقلية ، كالحكم والتعليل والفهم والذاكرة وتركيز الانتباه . ولا شك فى أن بعض النمو راجع إلى نمو بعض العادات العقلية لدى الإنسان ، فى أثناء دور الطفولة ، حتى دور المراهقة ، أن بعض النمو راجع إلى السير الطبيعى للنمو الإنسانى فقد دلت الأبحاث التى أجريت على عملية التعلم مثلا ، على أن قدرة الشخص تأخذ فى الازدياد حتى تصل إلى وقت معين تكون الزيادة فيه ضعيفة ، ويظهر الخط البيانى الذى يمثل عملية التعلم عندئذ ، كأنه هضبة وكأنه ثابت غير آخذ فى الارتفاع ثم لا يلبث بعد فترة معينة أن يعود إلى الارتفاع ، دالا على ازدياد قدرة الشخص على التعلم . وقد تعزى هذه العودة للزيادة إلى تناسق عادات المرء وثباتها وإتقانه لها وتمكنه من العمليات التى تعلمها . ويتم ذلك فى فترة الركود أو (الهضبة) .

ولقد استعملت الاختبارات العقلية لقياس قدرات المراهقين فى أوروبا وأمريكا على نطاق واسع ، وأخذت تستعمل كذلك فى مصر منذ عهد قريب . وقد أصبحت نتائج تلك الاختبارات معينا لا ينضب ، نستمد منه الكثير من الحقائق النفيسة عن النمو العقلى مما يعد أكبر معين للمعلمين فى المدارس الثانوية ، أو غيرهم ممن يهمهم أمر هذا النشء ، كالآباء والأمهات ومديرى المعاهد وإصلاحيات الأحداث وغيرها .

وقد أجرت الأستاذة أوليف هويلر بحثا على مائتى شخص فوجدت أن من بينهم مائة وعشرين يذكرون أنهم بدا لهم فى دور المراهقة شغف عظيم بالمطالعة و ١٠٩ بدت لهم الطبيعة فى ثوب جديد فأحبوها وهاموا بها و ٥٨ أخذوا فى نظم الشعر ، بينما ٤٦ منهم أحبوا الأبحاث العلمية .

كذلك تزداد الحواس دقة وإرهافا ، كاللمس والذوق والسمع . وتتسع نواح خاصة من الخيال وعلى الأخص النوع المسمى «أحلام اليقظة» التى يلجأ إليها الفتى لتحقيق آماله التى لا يرى مجالا لتحقيقها فى الحياة العادية ، فيتصور نفسه بطلا فى الألعاب الرياضية مثلا ، وكل من فى المدرسة يشيرون إليه بالبنان ، أو يتصور نفسه محط أنظار الفتيات ، وهو يتيه عليهن خيلاء وعجبا . وإذا اشتدت عليه أعباء الحياة المدرسية ، فقد يتخيل نفسه قد بز كل أقرانه فى الامتحان وأصبح حرا طليقا لا يطالب بالدراسة ، أو اجتياز الامتحانات ، وهكذا تبعا لظروفه الخاصة به وميوله وأمانيه. وليست أحلام اليقظة فى حد ذاتها بالأمر الشاذ ، فكلنا قد ما رسناها يوما ما ، ولكن الشاذ هو كثرة الانغماس فيها ، والالتجاء إليها على الدوام ، كلما واجه الشخص مشكلة أعياه حلها . فهى ملجأ مريح يهرب إليه الشخص لينسى ما يواجهه من متاعب ، ولذا يحتمل أن يستعذبه الفتى فيصبح عادة يصعب التخلص منها ، فتتسع الهوة بينه وبين الحياة الحقيقية ، ويتسلط عليه الخيال ، ويعجز عن حل أموره الصعبة أولا ثم السهلة بعد ذلك ، فيفشل فى الحياة أيما فشل ويصبح مدمنا عاجزا مسكينا ؛ وهكذا تسوء حاله الخلقية والاجتماعية والاقتصادية .

وليس يخاف على أحد ضرورة تيقظ المعلمين والأبوين لتلك الظاهرة ، ليعملوا على تلافيها قبل استفحالها . وخير وسيلة لعلاجها ؛ هى تزويد الفتى أو الفتاة بما يشغل وقتهما وتفكيرهما ؛ ويتفق مع ميولهما وشوقهما ، حتى يجذب لبهما ويصرفهما عن الاسترسال فى أحلام اليقظة. ولذا كانت الهوايات hobbies المدرسية أو المنزلية من أفيد وسائل التربية لمن هم فى دور المراهقة

كالتصوير وركوب الدراجات والعزف على الآلات الموسيقية والسباحة ومسابقات الجرى وكرة القدم وغيرها ، فهى كلها مفيدة ، مالم يغال فيها بحيث تشغل وقت المراهق كله وتشغله عما عداه من مصالحه الحيوية .

وتبدأ روح حب البحث والاستقصاء فى هذا الدور ، كما يتجه الفكر نحو الأمور الدينية ويرغب فى بحثهـــا واستقصائها . ويحسن أن تشبع ميول المراهقين فى هذه الناحية ، من غير استرسال فى مناقشات ، أو مجادلات عديمة الجدوى .

وقد دلت مقاييس الذكاء على أن ذكاء المراهقين لاينمو نموا فجائيا ، بل يسير سيرا طبيعيا . ومقاييس الذكاء عادة إما لفظية أو غير لفظية ، والأولى تتركب من ألفاظ ، وتقوم على فهم المختبر لمعانيها . أما الثانية فتقوم على حركات وأعمال لا كلام فيها . وقد استعملت الأولى مع المراهقين بنوعيها وهما النوع الجمعى ، والنوع الفردى . فالمقاييس الجمعية هى التى تعطى لجماعات من المختبرين دفعة واحدة ، والفردية هى التى تعطى للأفراد واحدا فواحدا . ومن أشهر المقاييس الفردية مقياس (بينيه — ترمان — ميرل)[1] ويمكن تطبيقه على الأطفال من سن الثانية حتى الكبار النوابغ ، وهو من الاختبارات اللفظية. ومن الاختبات الجمعية المستعملة مع المراهقين ، اختبار ترمان، واختبار أوتس Otis واختبار برسى Pressey . وقد وجد الدكتور بالارد باختبار المراهقين فى انجلترا ، أن الخط البيانى الذى يبين نمو الذكاء فى هذا الدور ، لاتشاهد فيه نتوءات أو صعود فجائى أو هبوط فجائى . هذه النتيجة وصل إليها طبعا من إجراء اختبارات عديدة للذكاء . وقد وصل أيضا بإجراء هذه الاختبارات ، كما وصل غيره من علماء النفس ، إلى نتيجة هامة ، وهى إن نمو الذكاء الطبيعى يقف حوالى سن السا سة عشرة ، ولو أن علماء النفس لم يجمعوا كلهم على هذه النتيجة بعد . هذه حقيقة هامة لها قيمتها فى هذا الدور ، فكما أن دور المراهقة

---

١ Binet Terman Merr

يصل فيه كثير من الأعضاء إلى غاية نموها ، فكذلك يصل الذكاء الطبيعى إلى غايته . أما مايلاحظ من نمو عقلى بعد ذلك ، فيفسره بعض علماء النفس بأنه نمو فى الخبرة المكتسبة ، وفى المقدرة على استخدام الموهبة الفطرية. وعلى ذلك نستطيع القول ، إن المقدرة العقلية تظل فى الازدياد بعد وصول الذكاء الفطرى إلى نهايته . ولكن يلاحظ أيضا فى هذا الصدد ، أن نوع الاختبار المستعمل ، قد يكون ذا علاقة وطيدة بالنتيجة التى يحصل عليها مستعمل الاختبار . فقد وجد الباحثون ، فى أوائل أيام الاختبارات العقلية أن نمو الذكاء يقف فى السنوات الأولى أو الوسطى من المراهقة . ووصل الذين اختبروا ذكاء الجيش الأمريكى ، فى الحرب العظمى الأولى إلى أن النمو يقف حوالى سن الثالثة عشرة ، أو الرابعة عشرة . ولكن الأبحاث الأخيرة ، دلت على أن وقوف النمو أمر ظاهرى فقط يرجع فى الحقيقة إلى نوع الاختبار المستعمل . فمثلا يبين أحد اختبارات الذاكرة وقوف نموها حوالى سن الثانية عشرة[١] . بينما الاختبارات التى تتطلب التعليل أو المعلومات العامة أو استخدام المدركات الكلية اللفظية ، تبين استمرار النمو حتى الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة . وتستمر اختبارات الكلمات vocabulary والفهم وتكملة الصور فى إظهار النمو ، إلى ما بعد انتهاء دور المراهقة فكأن الأبحاث الحديثة تكذب النتيجة التى وصل إليها العلماء سابقا ، القائلة إن النمو العقلى يقف فى معظم نواحيه بحلول دور المراهقة ، أو حوالى منتصفه .

والمفروض بوجه عام ، أن نسبة ذكاء المرء تبقى دائما على ماهى عليه . غير أن الأبحاث الحديثة تدل على حدوث تغيرات طفيفة ، إما بمرور الزمن وإما بتغير الاختبار[٢] . والأفضل عندئذ اعتبار النتائج التى يحصل عليها

---

(١) H . E . Garrett , Bryan and Perl, The Age Factor in Mental Organization" . Archives of Psychology, No . 176 , 1935 .

(٢) Cattell, "Stanford Binet. I. Q. Variations", School and Society, 45 : 1637. R. L. Thorndike, "Retest Changes in the L.Q. of Certain Superior Schools, Thirty-ninth Yearbook of the Society for the Study of Education .

الباحثون من تطبيق نفس الاختبار عدة مرات فى فترات منتظمة متعاقبة .

ويقرر بعض العلماء ، استمرار ذكاء المراهقين فى النمو ، إلى مابعد سن السابعة عشرة . وقد أورد هذه النتيجة فريمان Freeman [١] من اختبارات طبقت سنويا من سن الثامنة إلى السابعة عشرة .

وزيادة على ماسبق ، فإن هذا الذكاء الذى زاد وقوى فى دور المراهقة ، يوجه وجهات جديدة ، أى أنه بعد أن كان مجاله ضيقا فى عهد الطفولة ، لايعدو البيئة المادية الضيقة التى تحيط بذلك الناشىء أصبح الآن مجاله البيئة الاجتماعية ، بما فيها من أهواء وأغراض وقرائح مشحوذة ، فمشكلة الحياة قد تغيرت ، من مجرد إشباع أغراض أولية بسيطة ، كالمحافظة على النفس ، والحصول على الطعام ، وإرضاء غريزة حب الاستطلاع مثلا ، إلى تفهم الأغراض والأهواء الإنسانية ، والدوافع الخفية فى صدور الناس . ولا يقف الفتى عند ذلك ، بل يسمو إلى محاولة تفهم منشأ الكون ، وأسرار الطبيعة العويصة ، فيلاحظ النجوم والكواكب والشمس والقمر والليل والنهار ، ويلقى عليها نظرات عديدة ، لانظرات الاستغراب والابتهاج والبساطة ، التى تعود أن يلقيها فى عهد الطفولة ، بل نظرات بحث واستقصاء ، محاولا اختراق حجب الأسرار التى تحيط بها . ولذا فإنه يقبل على مطالعة كتب الفلك البسيطة بشغف عظيم . كما أن العالم الروحى ، بله العالم الاجتماعى والعالم الطبيعى ، أصبح يشغل باله ، ويتطلب من ذكائه جهدا عنيفا ، فتراه ينغمس فى مجادلات عن الديانات ، ولا سيما بعد أن زاد محصوله من الألفاظ ، إذ يقدر عدد الألفاظ التى يعرف معناها فى أوائل دور المراهقة بحوالى عشرة آلاف كلمة . ويلذ للفتى الآن أن يؤثر فى سامعيه بسحر بيانه ، وطلاقة لسانه ، كما أنه يتأثر نفسه بعظماء الرجال ، ومصاقع الخطباء . ولذا فإن الإقبال على المناظرات ،

---

(١) F.N. Freeman, Intellectual Growth of Children as indicated by Repeated Tests," "Psychological Monographs, Vol 47, No. 2, 1936.

فى هذا الدور يشتد ، ويرغب الفتى فى الجمعيات المدرسية التى تعطيه فرصة لإظهار مهارته وتفوقه فى تلك الناحية . وليس هنا من داع لأن نحث المدرسين فى المدارس الثانوية على أن يشجعوا هذا الميل ، لأنه موجود قوى لايحتاج للحث ، وكل مايجب عليهم هو أن لايقفوا فى سبيله ، وأن يمهدوا له سبل الظهور ، لأن إشباع هذا الميل يبعث السرور فى نفس الفتى ، فضلا عن أنه ذو فائدة له فى حياته المستقبلة .

وإنا نرى أن المجادلات الدينية عديمة الجدوى له ، وتؤدى إلى إثارة الشكوك فى أمور لايكون استعداده مناسباً لها ، وتجعل الفتى على قلة خبرته فى الحياة ، وضعف قدرته فى المنطق والجدل والبيان ، فريسة لذوى الأغراض الذين قد ينتهزون فرصة إقباله على الأبحاث الدينية ، وسيلة إلى غوايته . غير أننا لانتصح أن ينهى الفتى عن الخوض فى هذه الأمور كلية ، أوأن يكمم فوه كلما هم بالكلام فيها ، لأن هذا يصغّر من قيمة الدين فى نظره ، إذ قد يتطرق إلى نفسه ، أن منعه من الخوض فيه إن هو إلا غطاء لمواضع ضعف يظهرها الجدل ، فيصر على رأيه ، ويستسلم لأوهامه ، ويعمل على استقاء المعلومات من مصادر غير صحيحة ، حسبما يقع فى يده منها ، وقد يتصل به المبشرون فيزودونه بالكتب والمجلات التى تفسد رأيه وتغير عقيدته . ولذا نرى واجباً على المعلمين والآباء أن يناقشوه ويبينوا له مواضع الضعف فى عقيدته ، لا بالأوامر والنواهى العمياء ، بل بالحسنى والجدل المنطق الذى يقبله عقله ، كما يجب عليهم أن يزودوه بالكتب التى تشفى غليله ، وتطفىء ظمأه إلى تلك الناحية الروحية من حياته الجديدة ، وأن يفتحوا صدورهم له كلما أراد أن يتعلم شيئاً . نعم إن كثيراً من أسئلته تكون صعبة ، وبعضها يتطرق بالحديث إلى الفلسفة وماوراء الطبيعة ، وقد لايستطيع كل الآباء أو كل المعلمين أن يسيروا معه فى طرقاتها الصعبة الوعرة ، ولكن يجب عليهم عندئذ ألا يخدعوه ويحاجوه بالأدلة الكاذبة ، بل عليهم أن يثبتوا عجزهم عن الجدل ، وأن يوضحوا

أن فشلهم فى المحاجة ناتج عن عجزهم وقصورهم ، لاعن عجز الدين وقصوره ، وعليهم أن يشيروا عليه بمشورة من هو راسخ فى العلم ليتباحث معه ، ويفضل أن يعينوا له ذلك الشخص ، أو المصادر التى يجد فيها مايريد .

وقد قامت الأستاذة أوليف هويلر[1] Olive Wheeler ببحث ، لمعرفة الوجهات التى يسير فيها النشاط العقلى فى هذا الدور ، فوجدت أنه يستيقظ عندئذ ، ولو أنه يتخذ طرقا مختلفة فى الأفراد المختلفين ، فوجدت أن عدداً كبيراً ممن أجرت عليهم البحث أظهروا ميلا جديداً للمطالعة عند المراهقة ، وشغفاً بالكتب ، واهتماما بالأمور العلمية ، وأن ثلثهم بدأ فيهم عندئذ شوق للعلوم والأبحاث العلمية ، كالرياضة والطبيعة وعلم الحياة والجغرافية .

هذه النتيجة التى وصلت إليها ذات مغزى ، إذ تدلنا على أن الطفل الذى كانت المحسات أهم مافى خبرته ، والذى كان يصعب عليه فهم المعنويات المجردة صار الآن قادراً على التخلص من ربق المحسات ، وأصبح فى استطاعته أن يفكر تفكيراً معنوياً مجرداً . يدل على ذلك ميل الفتيان عندئذ إلى البحث العلمى ، وتغلب الروح العلمية الدقيقة عليهم ، واشتغالهم بالأمور الفلسفية ، التى يكاد يكون كل مبحثها المعنويات المحضة ، والمسائل الدينية . كذلك دل البحث على نمو الناحية الإنسانية فى ذلك الدور ، فيشعر المراهق بميل لآداب اللغة ، وإلى قراءة القصص والروايات ، وتاريخ حياة مشاهير الرجال والتاريخ بوجه عام ، فضلا عن حماسه الشديد للأمور السياسية . هذا بعكس الطفل الصغير ، الذى كان محبا لنفسه ، لايهمه من أمر من يحيطون به شىء ، والذى كان منصرفا إلى تعرف خواص الأشياء والماديات ، بدلا من خواص المجتمعات البشرية والتفكير الإنسانى . أما المراهق فقد اتسع أفقه العقلى والجسمى ، وأصبح محيطه أكبر من ذى قبل واختلاطه أوسع ، فيبدو لديه

---

(١) أستاذة التربية بجامعة كاردف .

الميل للاشتراك فى الألعاب الجمعية ، ويفضلها على الألعاب الفردية ، لأنها تمهد له فرصة الاختلاط واحتكاك الآراء ومقارنة نفسه بإخوانه ، عقلا وجسما . وكما تلذ له المنافسة تروق له الأعمال التعاونية . وهذه الحقيقة يجب على المعلمين الاستفادة منها فى المدارس الثانوية ، لتربية المراهقين والمراهقات ، ووضع أساس عادات التعاون ، التى لابد سيكون لها أثر بين فى حياة التلاميذ بعد الانتهاء من دراساتهم .

ونظراً لاهتمام المراهقين بالعالم الاجتماعى ، نرى أن ذلك الدور مناسب لتفهيم المراهق شيئاً عن السلوك الإنسانى ، والعلاقات الاجتماعية ، ولا بأس بإعطاء بعض حقائق من علم النفس ، مع عدم التعمق فى النواحى النظرية ، بل يحسن الاقتصار على النواحى العملية ، التى تتمثل فى علاقات الناس بعضهم ببعض ، والتى تشرح له الدوافع النفسية ، وتعينه على فهم نتائج تلك الدوافع ، وتجعله أكثر تسامحاً ، وأقل شططاً فى الحكم على الناس .

ومن المفيد أن نذكر هنا أن ذكاء المراهقين له أثر مباشر فى ميولهم ونواحى اهتمامهم ، فقد وجد أحد الباحثين فرقا بين الأذكياء والأغبياء ، فيما يحبون قراءته . فوجد أن الأغبياء يحبون القراءة عما يقع فى محيطهم العادى ، فى حين يتسع ميل الأذكياء للقراءة عما هو أبعد من حياتهم اليومية العادية . ولقد أظهر الأغبياء كذلك غراما أقل من غرام الأذكياء بالقطع الفكاهية[1] .

وقد ثبت من بحث الأستاذة هويلر ، أن المراهقين الذين ظهرت عليهم أعراض حب العلم والاطلاع ، لم تكن الأمور النظرية البحتة والمشاكل الفكرية الصرفة ، أهم مايروق لهم ويأخذ بلبهم ، بل حلت الرياضة البدنية ،

---

(1) Miriam Huber : "The Influence of Intelligence upon reading Interests" Contributions to Education, New York, Teachers College, Columbia University, 1928, No. 312

والألعاب فى الهواء الطلق فى المقدمة . كما أن الأعمال اليدوية كانت ذات مركز ممتاز لديهم . فالكثيرون (٥٠ ٪) ممن أجرى عليهم البحث ذكروا أن أهم هوية يحبونها ، المشى الطويل وركوب الدراجات وفلاحة البساتين والزراعة ، وبالجملة الأشياء التى تدعو العقل والجسم للاشتراك معاً . فى حين أن ٣٥ ٪ أحلوا الأعمال اليدوية فى المقام الأول ، كالحفر والنجارة والتصوير الشمسى والرسم والعزف على البيانو وشغل الإبرة والأعمال المنزلية ، وحل وتركيب الأدوات الميكانيكية . وإذا أضفنا الرقمين إلى بعضهما ، ثبت لنا تماما أن ١٥ ٪ من المراهقين يعطون المكان الأول من أنفسهم ، لتلك الأعمال التى يشترك فيها العقل والجسم معاً ، لا الأعمال الفكرية المحضة ولا الأعمال اليدوية الآلية المحضة التى لاتحتاج إلى فكر .

ولا نود أن نألو جهداً فى تذكير المعلمين والآباء والأمهات ، بأن هويات المراهقين لها أثر هام فى حياتهم المستقبلة ، وبأن الكثير منها يتوقف عليه نجاحهم فى حياتهم العملية . فالهويات التى تمثل شغف المراهقين وغرامهم ، قد تحدد فى كثير من الأحيان ، اختيارهم لمهنتهم ، واختيارهم لأصدقائهم . فالشاب الذى يغرم بالألعاب الرياضية فى المدرسة ، قد يظل كذلك طيلة حياته ، ويجد نفسه منجذباً لمن هم على شاكلته من رجال السباحة ، أو الملاكمة أو العدو . ولقد تجده ملتحقا بالأندية الرياضية ، ومتتبعاً للصحف والمجلات التى تكتب عن الرياضة والرياضيين ، وقد يصل غرامه إلى احتراف نوع من أنواع الرياضة ، وهكذا . كذلك التلميذ الذى يقوم بالتمثيل فى المدرسة ، قد يحقق غرامه بأن يصبح ممثلا يكسب من التمثيل أوده . وما يقال عن الرياضة والتمثيل يقال عن بقية الهويات كالتصوير وتحرير الصحف والخطابة وغيرها . وغنى عن البيان أن المدرسة المصرية لاتزال تنظر بعين الازدراء إلى الهويات ، وتحلها فى المحل الثانى ، بعد العلوم الجدية ، التى تعقد فيها الامتحانات ، وتمنح فيها الشهادات ، والواجب أن يفسح المجال للهويات وأنواع النشاط الحر

أكثر مما هو الآن ، لأنها لاتقل أهمية فى حياة التلميذ ، الحاضرة والمستقبلة ، عن اللغات والجغرافية والهندسة والجبر وغيرها من العلوم التى تعنى بها المدرسة المصرية الثانوية .

حـ — التغيرات الوجدانية

ولو أن التغيرات الجسمية والعقلية التى ذكرناها ذات بال ، وإهمالها يؤدى إلى خطر لا يستهان به ، إلا أن التغيرات الوجدانية أهم ، وأثرها أدوم فى حياة المراهقين المستقبلة ، فبذورها التى تبدو فى النمو عندئذ ، تتخذ شكل الوسط الذى تنمو فيه ، وتتأثر بالتربية التى تتأصل فيها ، فإن كانت صالحة صلح النبات ، وإن كانت فاسدة تحولت إلى جرثومة فساد ، قد يصعب اجتثاثها فيما بعد . وأهم هذه التغيرات الوجدانية هى التى تتصل بالمسائل الجنسية ، ولا يخفى على أحد مالها من خطر فى حياة البشر . وكذلك يزداد حب المراهقين للطبيعة فيهتمون بها ، ويقومون بالنزهات الخلوية .

ومن الأمور الهامة أيضا ، بدء الشعور بالذات ، وبمركز الفرد كعضو فى الهيئة الاجتماعية ، بعد أن كان الطفل فى الأيام السالفة لا يهمه سوى إشباع رغباته ، بصرف النظر عما يقوله المجتمع عنه ، فإذا أراد اختطاف لعبة زميله اختطفها ، ولا يهمه أن تقول إنه أنانى ، وإذا رأى حافظة نقودك ملقاة على المائدة ، تفقدها وبحث ما فيها ، ولا يهمه أن يتهم بالسرقة ، أو بالفضول ، أو بسوء التربية المنزلية .

أما الفتى البالغ فإنه يقدر رأى المجتمع كل التقدير ، ويحاول إرضاءه بكل ما أوتى من قوة ، ويحب أن يسمع المدح والثناء ، فإذا اتهمته بالأنانية تأثر ، وربما انقلب الأمر إلى الضد فضحى بمصلحته فى سبيل الجماعة ، وإذا رأى حافظة نقودك اشمأزت نفسه من أن يمد يده إليها .

ولنضرب لك مثلا يوضح ما نقول : تعرفت فى وقت من الأوقات بعائلة

إنكليزية فى إنكلترا ، وكانت لهم طفلة من أقاربهم تزورهم كل أسبوع مرة وكثيرا ماحدثونى عنها وفخروا بها لذكائها وبراعتها فى العزف على البيانو على صغر سنها ، إذ كانت تبلغ التاسعة عندئذ، وما هى إلا أياما معدودة حتى أتت لزيارتهم وقت وجودى ، فدعتها عمتها للعزف على البيانو أمامى لتثبت لى صحة ماذكرته عنها ، وفعلا لم تتأخر تلك الطفلة بل اتجهت توا نحو البيانو وجلست امامه مستعدة ، ثم سألتنى أى دور أريد . فاقترحت العمة دورا ، سرعان ماعزفته تلك الفتاة الصغيرة ، ثم ثانيا وثالثا فى غير ماوجل أو استحياء .

مضت الأيام والشهور وأنا أسألها كل بضع زيارات أن تعزف دوراً على البيانو وهى تفعل ، ثم انقطعت الصلة لعودتى إلى مصر ، ثم سافرت ثانية إلى انجلترا ، وجمعتنا الظروف فى مجلس ، ولكنها لم تكن طفلة الأمس بل فتاة اليوم ، إذ كانت تبلغ حوالى الثالثة عشرة ، فسلمت على باستحياء لم أعهده فيها من قبل ، وكان حديثها أكثر تكلفاً ، وكانت تطيل التفكير قبل أن تأتى عملا أمامى ، ثم طلبت منها ، على سبيل الفكاهة والتذكرة ، أن تعزف دوراً على البيانو ، واشتركت معى عمتها فى الطلب وألحفت فى السؤال ، فكان نصيبنا الرفض ، وكلما ألحفنا فى السؤال ، زادت حياء وارتباكا وإباء ، معتذرة أنها لاتجيد العزف ، رغم أنها كانت تفوز فى كل مسابقة تدخلها ، وأنها حازت شهادة فى الموسيقى ، تفوقت فيها على الكثيرين ممن هم أكبر منها سناً . لم يكن هذا بمستغرب ، فطفلة الأمس لم تكن لتهتم برأى الجماعة ، ولذا كانت جريئة تجيب الطلب من غير تردد ، أما فتاة اليوم ، فهى تحب أن تظهر بالمظهر اللائق ، وتحب حسن السيرة ، وتهتم برأى الجماعة عنها ، وعلى الأخص إذا ما كان بالجماعة أفراد من الجنس الآخر ، حيث يهمها أن تظهر أمامهم بمظهر الكمال ، مما يزيد فى حيرتها وارتباكها ، لخوفها من أن تخطىء فلا تحظى بالإعجاب .

أما عن الانفعالات الجنسية ، فتطورها فى هذا الدور ظاهر بين ، وقد أيدته نتائج البحث ، إذ ظهر فى ٥ر٨٣ ٪ من الأفراد الذين أجرى عليهم الاختبار ، فقد اعترفوا بظهور الميل نحو الجنس الآخر ، وكثيرون منهم وقعوا فى شراك الحب بضعة مرات ، وهذا لم يكن له مجال فى عهد الطفولة . ومما هو جدير بالذكر أن كثيراً من الفتيان أو الفتيات فى هذا الدور ، أو على الأقل فى مبدئه ، يقعون فى حب من هم أكبر منهم سنا . هذه حلقة فى تطور الحب الذى كان فى السابق متعلقا بالأب والأم ، فيحب الفتى الناشىء معلمته مثلا التى تكون أكبر منه سنا ويكون الحب عندئذ مختلطا بشىء من الإعجاب خياليا أكثر منه عمليا ، وليس كالحب الذى ينشأ مثلا بعد سن العشرين أو الواحدة والعشرين ، والذى يكون من مميزاته أن يحب الفتى من هم أقل منه سنا ، وأضعف قوة وبدنا ، فنى أثناء هذا الانتقال من حب الأب والأم الذى قوامه العطف والإعجاب والاعتراف بالجميل والشفقة والحنان ، إلى الحب العملى ، الذى قوامه تقدير الجمال وصفات الأنوثة والضعف والحاجة إلى الحماية فضلا عن الحاسة الجنسية ، فى أثناء هذا التطور لابد أن يمر الحب بدور يأخذ فيه من كل بعض الصفات . فالحب الأبوى يظهر فى التعلق بمن هم أكبر من الفتى أو الفتاة سنا ، كما أن الشعور الجنسى يبدو فى التعليق بمن هم من الجنس الآخر ليس إلا ، وهذا معنى ماذكرناه من أن الحب عندئذ خيالى أكثر منه عمليا ، فهو حب للصفات الجنسيه ، لا للأشخاص الذين تتمثل فيهم تلك الصفات. وهذا يوضح لنا مانراه من هيام الفتيات فى هذا الدور بنجوم السينما ، لأنه هيام بصفات الرجولة التى تتمثل فيهم ، كالقوة والشجاعة وحب المخاطرة وحماية الضعيف والأدب مع النساء والتضحية بالنفس فى سبيل نصرتهن ، فتلك صفات لاشك تدعو إلى الحب ، أى الحب الممزوج بالإعجاب ، أما الناحية الجنسية ، فهى لاتعدو هذا الإعجاب بصفات الرجولة ، فى حالة الفتيات ، وبصفات الأنوثة ، فى حالة الفتيان . ومما هو جدير بالملاحظة ، أن الخوض

فى المسائل الجنسية مع البالغين الحديثى البلوغ ، يحدث اسمئزازا أو ضجرا لديهم أو لديهن ويمكن تشبيهه بالهبوط من حلم جديد إلى أد ناس الحياة العملية الحقيقية التى ليس للخيال أو الأحلام مجال متسع فيها ، ولذا نرى أن الفتاة إذا عرضت عليها أمها أمر الزواج فى السنين الأولى من هذا الدور ، ترتبك وتغضب ، فإذا ألحت عليها ، نفرت ورفضت الخوض فى هذا الموضوع ثانية كأنه سبة أو أمر معيب. هذا فى الوقت الذى تحلم فيه بنفسها كأميرة يخر على قدميها الأمراء يطلبون يدها . ولقد عثرنا فى بعض خطابات المراهقين على ذكر « لقبلات » ففى خطاب من فتى (إنكليزى) يبلغ الثالثة عشرة ، إلى فتاة إنكليزية[1] تبلغ حوالى هذا السن وردت العبارة الآتية : أنى مخاصمك لأنك رفضت أن تعطينى تلك القبلة التى طلبتها منك » فكان الرد من الفتاة « لا يهمنى أن تخاصمنى ، فإنى لاأوزع قبلاتى » . قد يتطرق إلى ذهن القارىء أن بالأمر أكثر من ظاهر هذه الألفاظ ، ولكننا لانرى فيه أكثر من القبلات المذكورة ، فإن هذا الطلب من جانب الفتى لايعنى شيئا سوى ميله إلى تقليد من هم أكبر منه سنا كوالده ، أو أشخاص الروايات السينمائية ، الذين يمثلون الرجولة لديه ، وما دام هو رجلا ناشئا ، فإنه يود أن يحتذى حذوهم . ونذكر للقارىء بهذه المناسبة ، أن تلك الفتاة كانت قد سمحت فعلا لصبى آخر أن يقبلها ، من خلال الحاجز الحديدى الذى يفصل الصبيان عن الفتيات . أثناء الفسح فى المدرسة . وهذا كان السبب فى عتاب الفتى الأول الذى ذكرناه . فلما استوضحتها الأمر ، قالت إن (رونى) وهو اسم الفتى الثانى ، يختلف عن (جنجر) الفتى الأول . فيتضح للقارىء إذن أن هذه الفتاة ، مع صغر سنها ، كانت تمجد فى أحدهما صفات لاتمجدها فى الآخر ، فعطفت عليه . ولو أن هذا العطف لم يكن ليحوى معنى قد يحويه فى دور غير هذا الدور المبكر .

---

(١) هى نفس الفتاة التى تحدثنا عنها فى صفحة ٢٨ .

ويجدر بنا هنا أن ننبه الآباء والأمهات والمعلمين والمشرفين على المراهقين، إلى أن النمو الطبيعى الصحيح للغريزة الجنسية، يكون موجها نحو أفراد الجنس المقابل، فإذا لم تسنح الفرصة الطبيعية المشروعة لمثل ذلك، اعتراها شذوذ، إذ قد يتعلق المرء بمن هم من جنسه، أى الفتى بالفتى، والفتاة بالفتاة. ومثل هذا الشذوذ قد يحدث فى المدارس الخاصة بجنس واحد. ولذا يجب أن لا يألو أولو الأمر جهدا فى الاحتياط من مثل هذا النمو الشاذ، ومراقبة المراهقين، وإسداء النصائح. وشرح النتائج التى تنجم عن مثل هذا الشذوذ خير من الصمت حتى وقوع الذنب ثم توقيع العقاب.

وقد أجرت إحدى الباحثات الأمريكيات استفتاء بين ١٨١ من الفتيات الأمريكيات، فاتضح لها أن ٥٠٪ منهن قد خضعن لهذا النوع من الشذوذ(١) وفى حين أننا لا يوجد لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد أن نسبة الشذوذ بين نساء الشرق أقل من هذا، إلا أننا لا نظن بأى حال، أنها منعدمة تماما بينهن. كما أن وجود هذا الشذوذ بين الفتيان أمر لا شك فيه.

ولكن يلاحظ أن الدور الذى ذكرناه فى بدء المراهقة، الذى يتميز بالإقبال على الجنس المضاد، يتلوه دور آخر بسيط، يتميز بالإعراض عن الجنس المضاد. وهو دور مؤقت لا يستمر طويلا، بل سرعان ما ينتهى، ويتلوه دور الحب الحقيقى، والإقبال على الجنس المضاد إقبالا حقيقيا بمعنى الكلمة. ويتميز ذلك الدور المؤقت بإعراض الفتيان عن الفتيات، والرغبة فى عدم إشراكهن فى اللعب معهم، لبطئهن وعدم مقدرتهن على مجاراتهم، فيكون فى اشتراكهن تعطيل لألعابهم، التى يودون أن يظهروا فيها ما اكتسبوه من قوة وشهامة ورغبة فى المخاطرة، وهى من أظهر ميزات دور البلوغ. كما أن الفتيات يكرهن الاشتراك مع الصبيان، لأن لعبهم خشن عنيف،

---

(١) Catherine Davis: Factors in the Sex Life of 2200 Women, 1929

فتجدهن دائما فى شقاق معهم . وهنا نتساءل عن الحكمة فى اعتراض هذا الدور للنمو الطبيعى المستمر للمراهقة . ليست الإجابة على ذلك بالعسيرة ، فتلك الفترة تعطى الإنسان فرصة ليحكم تلك الانفعالات والعواطف ، التى أصبحت كأنها جديدة[1] عليه ، إذ ظهرت ونمت بسرعة حتى كأنها أتت فجأة فأدهشته وأوقعته فى حيرة . إذن لا بد من فترة استراحة ، أو فترة رد فعل ، يتعلم فيها الإنسان كيف يسيطر على انفعالاته المتطورة ، وكيف يعدل سلوكه نحو الجنس الآخر . فالطفل لم يكن ليرى عيبا إذا قبله أبوه أو أمه أو إحدى الزائرات ، أو إذا ضمته إحداهن إلى صدرها ، أو إذا جلس على ركبتى أمه . ولكن بعد ما تطورت تلك الانفعالات ، وشعر بالميل نحو الجنس اللطيف ، تجده يخجل من الاقتراب من أفراده ، وعلى الأخص إن كن يعرفنه منذ عهد الطفولة ، فتراه لا يعرف هل يسمح لهن بتقبيله وضمه ، كما كن يفعلن منذ سنة أو سنتين ، أم يعرض عنهن ، كما تملى عليه انفعالاته الآن . ولقد شاهدت الفتيات فى بدء عهدهن بدور البلوغ لا يعرفن أى طريق يسلكن تجاه الجنس الآخر ، وعلى الأخص أفراد عائلتهن ، فتراهن أحيانا ينكمشن ، ويعاملنهم معاملة الكلفة ، أو بعبارة أخرى معاملة النساء للرجال ، وتارة يرفعن الكلفة ، فيسمحن لإخوانهن الكبار أو أعمامهن أو آبائهن بمعاملتهن معاملة الأطفال ، وهن فى كل هذا لا يعرفن أى مبدأ يتخذن لهن ، حتى إذا أعطين الوقت الكافى ، فى فترة الاستراحة المؤقتة التى ذكرناها ، علمن مركزهن فى المجتمع ، وتبين لهن ما أصبحن فيه ، وعرفن كيف يعدلن سلوكهن . وهنا نذكر كلمة للآباء والأمهات والمربين ، وهى أن هذه التطورات الجديدة فى الانفعالات حتم ظهورها ، ومهما تجاهلناها فلن نستطيع منعها ، وكل ما نستطيع هو أن نمنع مظاهرها الخارجة من الظهور للعيان . فالأب الذى يلاحظ أن ابنته

---

(١) لا تظهر انفعالات جديدة حينئذ ولكن الانفعالات القديمة تأخذ شكلا جديدا وقوة جديدة .

قد ألقت نظرة غريبة على ابن عمها ، فيضربها ويؤذيها فى سمعتها وشعورها بقارص الكلم ، ليس حكيما ، لأنه يحاول أن يتجاهل أمام نفسه وأمام ابنته شيئا طبيعيا ، إنكاره كإنكار الشمس الطالعة ، وسلوكه هذا مضر ، لأنه يضطر ابنته لأن تسلك طريق الخفاء بدلا من طريق العلانية ، وبدلا من أن تبوح إليه بما يعرض لها ويشغل بالها ، تعمد إلى كتمانه عنه ، وتلجأ إلى صاحباتها فى حل ما عصى عليها . هذا موضوع شائك ، ولكنه من الأهمية بمكان ، ولذا سنفرد له فصلا خاصا فيما بعد ، نكتفى بالتنويه إليه هنا .

تتضح فى هذا الدور أيضا ظاهرة جديدة ، وهى الميل إلى اتخاذ الأصدقاء ، وفى كثير من الأحيان ، يكون الأصدقاء الذين يتخذون حينئذ أصدقاء حياة ، أى تستمر صداقتهم مدة طويلة فى حياة الفرد . كذلك يظهر حماس جديد ، وحب فائق لعظماء الرجال والأبطال ، الذين يمجدون تمجيدا يكاد يشبه العبادة ، ويظهر الميل للتضحية بالنفس فى سبيل الجماعة التى ينتمى إليها الفرد ، سواء كانت هذه الجماعة مدرسة أو جامعة أو قرية أو أمة . وكل هذه الميول الجديدة يمكن إرجاعها إلى الانفعالات الاجتماعية . وهذه نقطة هامة يجب على من يعهد إليهم بتربية الفتيان فى هذه المرحلة أن يتدبروها ويستفيدوا منها ، فالفتى يحب الحياة الاجتماعية حينئذ ، ويعمل جهده لأن يظهر فيها ، ويجد لذة فى الاشتغال بها ، وما دام الفرد فى أيامنا هذه لا يمكن أن يعيش بعيدا عن الهيئة الاجتماعية ، وجب علينا أن نعده لها ، وأن نعمل على أن يتفوق فيها ، ويصبح أهلا لها . وليس عملنا شاقا فى هذه الناحية ، ما دامت الطبيعة تساعدنا بإيجاد تلك الميول فيه ، فهذه فرصة ثمينة لأن نعطيه النصائح اللازمة ، التى تجعل سلوكه فى المجتمع قريبا ما أمكن من الكمال ، وتعوده العادات اللازمة لذلك .

ويترتب على اهتمام الفتى بالأمور الاجتماعية ، أن يبدأ يفكر فى مركزه بالنسبة لغيره من أفراد الهيئة الاجتماعية ، فيقوده هذا إلى التفكير فى مستقبله ،

وفى المهنة التى سيتخذها لنفسه ، وفى العادة يكون تفكيره هذا عمليا ، بعكس الطفل الذى كان تفكيره فى هذه الناحية خياليا ، فكثيرا ما يقول الأطفال إنهم يريدون أن يكونوا فى المستقبل جنودا للبوليس ، أو سائقى قطارات الترام والسكة الحديد، أومعلمين ، إلى غير ذلك مما يسترعى نظرهم أثناء الطفولة، ويقترن لديهم بشىء من ألعابهم ، فهم لا يعلمون شيئا عن سائقى الترام ، من حيث مركزهم فى الهيئة الاجتماعية ، ولا من حيث مرتباتهم ، ولا من حيث المشقة التى تقترن بعملهم ، ولكنهم فى نظرهم يملكون شيئا ثمينا لا يملكه أحد غيرهم ، ألا وهو تسيير قطار كبير يجتذب لبهم ، ويقترن دائما بالسرور فى أذهانهم . كذلك جندى البوليس والمعلم ، كل منهما له من السلطة شىء كبير ، فالأول يأمر وينهى الباعة فى الطريق ، فضلا عن أن بذلته الرسمية تعطيه هيبة ونفوذا ، لايملكهما أى موظف ملكى مهما علت مرتبته ، والمعلم أقرب الرؤساء إلى الطفل نفسه ، كلمته مسموعة ، وعلمه لا حد له ، فيتكلم متى شاء ، ويسكت متى شاء ، ولا يعمل إلا متى شاء ، ولديه خزائن الدرجات يعطيها لمن يحب ، ويحبسها عمن يكره . لانلوم الطفل على ذلك ، فخبرته قليلة . ولكن فى السنين المقبلة، أى فى دور المراهقة ، يكون ذكاؤه قد نما ، وخبرته بالحياة قد زادت ، فلاتخدعه تلك المظاهر ، فيعرف أن سائق الترام إنهو إلاعاملا بسيطا ، وجندى البوليس عبد مأمور ، والمعلم موظف مأجور ، يرأسه الناظر والمفتش ، وواجب عليه احترامهما وتنفيذ كلمتهما ، وهو يرى ذلك بعينيه فلا فائدة من خدعه . وهو فى اختياره لمهنته يزن الأمور والمهن ، ويضع نفسه فى الموضع الذى يظن أنه يليق به . ولكن لا ينبغى علينا أن نحمله من المسئولية أكثر مما يجب ، فهو فى تلك السنين لا يزال حدثا لم يكتسب من الخبرة الشىء الكثير ، ونظرته إلى المهن والوظائف لا تزال مشوبة بشىء من حب الظهور ، من غير نظر لبعيد ، ومن غير تقدير للظروف الاقتصادية والمالية ، فهو قد يفضل وظيفة محترمة تحوى شيئا من السلطان ، على وظيفة متعبة درها كبير .

وقد وجدت الأستاذة أوليف هويلر فى بحثها ، أنه بينما ٨,٥٪ ممن أجرت عليهم الاختبار فكروا جديا فى المسائل الدينية أثناء طفولتهم ، فإن ٦١,٥٪ منهم شغلتهم المسائل الدينية ، وتعلقوا بها ، وتحمسوا لها ، فى عهد المراهقة . فقد قال كثيرون منهم إنهم شعروا كأنهم اعتنقوا ديانتهم من جديد ؛ لأن عينهم انفتحت لها ، فرأتها وكأنها لأول مرة .

ومن المسائل الروحية التى تبدو حينئذ ، غير الديانة ، حب الطبيعة والموسيقى والفنون والشعر ، فقد دل الاختبار على أن عددا كبيرا من البالغين يهيمون ولو بواحد من الفنون المعروفة ، دليلا على أن الانفعالات الجمالية قد بدت تظهر لديهم بشكل جديد .

وإذا أردنا أن نلخص ما مضى ، قلنا : إن دور المراهقة هو الدور الذى ينقلب فيه الإنسان من الكائن الفردى المحب لذاته ، إلى كائن اجتماعى تتوجه ميوله نحو المجموع الذى يعيش فيه ، والذى لا يكون هو نفسه إلا جزءا منه . ويصبح شعوره موجها إلى الخارج ، بعد أن كان موجها إلى داخلية نفسه ، وبعبارة أخرى ، فى هذا الدور تولد شخصية الإنسان .

الفصل الثالث

الفروق بين الجنسين

تكلمنا فى الفصل السابق ، عن التغيرات التى تصحب البلوغ ، أى بدء دور المراهقة بوجه عام عند البنين والبنات ، ولم نشر إلى الفروق التى يختص بها كل من الجنسين . وسنفصل الآن تلك الفروق ، ونستميح القارىء عفوا إذا تكررت بعض الحقائق التى ذكرناها فى الفصل السابق ، فذلك لامفر منه إذ سنضطر إلى إعادة ذكرها عند الكلام عن كل جنس على حدة . كما أن الحقائق التى سيرد ذكرها الآن عن كل منهما على حدة ، تعتبر مكملة لمميزات النمو التى ذكرناها فى الفصل السابق . وقد رأينا تسهيلا للموضوع ، أن نقسم الفروق المذكورة إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، جريا على خطتنا فى الفصل السابق : —

(ا) الفروق الخاصة بالجسم ، ووظائف الأعضاء ، والحواس ، وما شابه ذلك .

(ب) الفروق الخاصة بالإدراك ، والتفكير ، والتذكر ، ونواحى الاهتمام العقلية .

(ح) الفروق الوجدانية ، الخاصة بالانفعالات والعواطف ، وموقف الفرد تجاه العوامل المختلفة التى يصادفها فى حياته .

ا — الفروق الجسمية

إن أهم فرق بين الجنسين يسترعى النظر هو طبعا الاختلاف فى الأعضاء الجنسية ، وهذه بدورها تؤثر فى الحالة العقلية ، ولو أنا لانعرف بالضبط ماهى العمليات الفسيولوجية التى تحدث هذا الفرق ، ولا كيفية إجرائه ، وكل

مانعرفه هو أن هناك فروقا ، وأن تلك الفروق منها ما يرجع إلى اختلاف الجنسين ، لا إلى اختلاف البيئة أو التربية .

ثم هناك فرق بين الجنسين من حيث متوسط الوزن والطول ، فالصبيان فى المتوسط أثقل بقليل من البنات ، وذلك حتى السنة الحادية عشرة تقريبا ؛ وبعدها تزيد البنات ، فيصبحن فى المتوسط أثقل من الصبيان . ويكون الفرق أولا قليلا ، ولكن البنات يزدن بعد ذلك زيادة مطردة حتى الثالثة عشرة . ثم يصغر الفرق فى الوزن ، ويزيد الصبيان فيلحقون بهن حوالى الخامسة عشرة ، ولا تحل السادسة عشرة حتى يزيد الصبيان عنهن ، وتظل هذه الزيادة مطردة حتى يصبح الفرق فى وقت من الأوقات حوالى ثلاثين رطلا .

أما فى الطول ، فالصبيان يفوقون البنات حتى سن العاشرة أو الحادية عشرة حين يتساوى الجنسان ، وعندئذ تزيد البنات زيادة مطردة حتى سن الثالثة عشرة ، حين يكون متوسط البنات يزيد بوصة واحدة عن متوسط البنين ، ولكنهن يبطؤ نموّهن ثانية ويلحق بهن البنون ، حتى إذا حلت الخامسة عشرة أو السادسة عشرة نجد أن البنين يزيدون عنهن حوالى بوصتين ، ويظل الفرق فى الزيادة حتى يصل إلى حوالى خمس بوصات .

ومن حيث حجم المخ ، فمتوسط حجم مخ الرجال أكبر بقليل من متوسط حجم مخ النساء . أما من حيث مادة المخ وتركيبه ، فليس هناك فرق بين الجنسين وليس من السهل أو المستحسن أن نحاول إيجاد علاقة بين حجم المخ وقوة عمله ، وبناء استنتاجات على هذا الأساس ، لعدم وجود معلومات وثيقة فى هذا الموضوع . ومما يذكر فى هذا الصدد ، أن أناتول فرانس كان حجم مخه أقل من المتوسط .

ويصل البنات إلى البلوغ قبل البنين . ويختلف البحاثة فى السن التى يبدأ فيها البلوغ Puberty فعلا . ويلاحظ أنه بعد البلوغ تقل كمية الهيموجلوبين

التى بالدم عند البنات ، ولذا فإنهن يصبحن عرضة للتعب ، وتقل قدرتهن على مواصلة العمل ، وينتج عن ذلك سهولة تعرضهن للأنيميا .

ووقت المراهقة بوجه عام دور تزداد فيه الجهود العصبية . ولكن تلك الجهود يختلف زمنها فى كل من الجنسين ، نظرا لاختلاف زمن حلول البلوغ عند كل منهما كما أسلفنا . ويلاحظ هنا أن تلك الحقيقة ، أى تعرض الفتيات لتلك المجهودات العصبية فى وقت يختلف عن الفتيان ، مضافة إلى تبكيرهن بالنمو وسبقهن للصبيان ، تجعل تعليم الجنسين فى المدارس مجتمعين أمرا صعبا ، نظرا لحاجة كل منهما إلى العناية الخاصة فى وقتين مختلفين . كما أن التغيرات الجنسية الدورية ، التى تعترى الفتاة فى أوقات منتظمة متعاقبة ، تجعل الفتاة أثناءها أقل قابلية للعمل ، وتقلل نوعا من إنتاجها العقلى وهناك خطر من إجهادها فى تلك الفترات إذا لم تعامل بحكمة ، وليس من العدل عندئذ مقارنة عملها بعمل الصبيان الذين يكونون معها فى فصل واحد .

ويمكننا تلخيص الفروق الجسمية بين الجنسين فيما يأتى :

١ — أن البنات فى الغالب أقل فى القوة البدنية عن الصبيان .

٢ — أن أعصابهن أكثر تأثرا وأسرع توترا من البنين ، ولذا فإنهن أكثر تعرضا للتعب والإجهاد العصبى . وربما فسر هذا باستنفاد جزء غير قليل من الكلسيوم المختلط بالدم .

٣ — أن دمهن أقل كثافة لقلة الهيموجلوبين به ، مما يجعلهن أكثر تعرضا للأنيميا بعد البلوغ .

ب — الفروق العقلية بين الجنسين

جرت العادة أن يعتبر النساء أقل ذكاء من الرجال ، وأن ينظر إليهن ، كأنهن أقل من حيث المقدرة العقلية والاضطلاع بالأعمال ، وكتب الكثيرون

فى ذلك الموضوع ، قائلين إن مكان المرأة فى المنزل ، لأنه المكان الذى يتفق مع مواهبها وقدرتها العقلية .

غير أن هذه الآراء كثير منها مؤسس على الحدس والتخمين أو الملاحظة غير الدقيقة ، ولا يقوم على أساس متين من الأبحاث العلمية ، والمقاييس الدقيقة ، التى نستطيع أن نحكم بنتائجها على وجود تلك الفروق المزعومة .

وقد شعرنا فى الوقت الحاضر ، الذى خرجت فيه المرأة من المنزل إلى ميدان الحياة العملية والاجتماعية والسياسية ، بافتقارنا إلى معرفة كفاءتها بطريقة يقينية ، حتى نتثبت مما إذا كان من الحكمة أو الإنصاف أن نسند إليها مناصب خطيرة ، كما أن تقدم علم التربية والتعليم جعل من المحتم أن نعرف قدرة البنات حتى نستطيع أن نجعل طرق التعليم ملائمة لهن ، فيستفدن بذلك أقصى فائدة من وجودهن بالمدارس .

وإن أبسط وأسهل طريقة للتفرقة بين مقدرة الجنسين من الوجهة العقلية هى الموازنة بين نتائج كل منهما فى الامتحانات المدرسية ، غير أن هذه الطريقة لا يعتمد عليها فى الحكم حكما صحيحا على المقدرة العقلية ، وذلك لدخول عوامل كثيرة فى الامتحانات ، غير المقدرة العقلية ، فتؤثر فى إنتاج الفرد . ولقد حصل البحاثة بواسطتها على نتائج لاتزال موضع شك ، نذكرها هنا على سبيل العلم بالشىء .

أجرت إحدى اللجان التى انتدبتها وزارة المعارف الإنكليزية سنة ١٩٢٢ ، إحصاء فى امتحانات جامعة كمبردج بانجلترا ، وقارنت نتائج البنين بنتائج البنات ، فوجدت أن الصبيان تفوقوا فى الرياضة . (بما فيها الحساب) وفى الكيمياء والطبيعة واللغة اللاتينية ، وتفوقوا قليلا فى الجغرافية الطبيعية أيضا . أما البنات فقد أظهرن تفوقا ظاهرا فى الأدب (الإنكليزى) والإنشاء والتاريخ الإنكليزى وعلم النبات والجغرافيا واللغة الفرنسية بما فيها المحادثة الشفوية ، كما تفوقن فى رسم النماذج وتصميم الزخارف .

هذا وقد أجريت إحصاءات أخرى أظهرت مرة ثانية تفوق الصبيان على البنات فى الرياضيات ، وتفوق البنات على الصبيان فى اللغات الحديثة، ولكنها لم تبين فروقا تذكر عدا هذه .

ولما كانت أغلب الإحصاءات تظهر تفوق البنين على البنات فى الرياضيات، فقد حاول البعض تفسير هذا التفوق بأسباب مختلفة ، كعدم ميل البنات لتلك العلوم ، وعدم وجود مدرسات للرياضيات يعادلن فى الكفاءة مدرسى الرياضة من الرجال، وكعدم وجود وقت كاف عند البنات للاهتمام بتلك العلوم لاهتمامهن بمواد أخرى ، كالتدبير المنزلى والموسيقى وأشغال الإبرة .

غير أن بعض البحاثة ينكرون وجود فروق تذكر فى هذه الناحية ، ويقولون إن هذه الفروق ، إن وجدت ، فهى ضئيلة لاقيمة لها ، وإن الفروق التى بين أفراد الجنس الواحد أكبر من الفروق التى بين الجنسين .

وأمام هذه الآراء المتناقضة ، يجب علينا قبل الحكم بأفضلية أحد الجنسين أن ننتظر ظهور إحصاءات أخرى ، أكثر وفرة وأكبر دقة من تلك التى بأيدينا فى الوقت الحاضر .

ونخرج مما سبق بنتيجة يقينية ، ألا وهى أن الامتحانات المدرسية الحالية لايمكن الاعتماد عليها حتى الآن ، فى إظهار الفروق الحقيقية بين الجنسين من الوجهة العقلية . وأنه لابد لذلك من وجود اختبارات عقلية ، أكثر دقة من تلك الامتحانات . وأكثر مساسا بالقدرات العقلية المراد قياسها . وهذا لايتوفر فى تلك الامتحانات المدرسية ، لأنها تقيس مع القوى العقلية عوامل أخرى خارجة عن نطاق بحثنا ، قد لاتكون أساسية لنا .

ولذا فإنا ننتظر القول الفصل فى موضوع الفروق العقلية بين الجنسين ، لامن المعلمين أو الممتحنين ، بل من علماء النفس .

وهنا يجب أن نذكر أن إيجاد تلك الفروق العقلية أمر تحفه الصعوبة لحد ما ، فإنا إذا أردنا أن يكون حكمنا منزها عن التحيز . وجب أن لا نعتمد

على الآراء الشخصية ، وإنما على الحقائق الثابتة ، المستمدة من التجارب العلمية التى لاتؤثر فيها شخصية القائم بها ولدينا عدد لا بأس به من نتائج تلك التجارب التى أجريت على كلا الجنسين بطريقة واحدة ، وفى ظروف واحدة ، مما يمنع تسرب الشك إلى نتائجها .

ومن أهم الأبحاث التى من هذا القبيل ، ماأجراه الأستاذ سيرل[1] بيرت على تلاميذ وتلميذات المدارس الابتدائية بانكلترا ، للموازنة بينهما من حيث مواد الدراسة المختلفة . ويمتاز مثل تلك الاختبارات عن الامتحانات العادية بدقتها وإمكان الاعتماد عليها . ومما يؤسف له ، أن تلك الاختبارات لم تتناول إلا الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ٥ و ١٤ ، وكنا نود الحصول على نتائج تنطبق على الأعمار التى تلى ذلك ، ولكننا نكتفى بما لدينا الآن .

ولنلخص نتائج تلك الاختبارات فيما يلى :

وجد أن البنات يفضلن الصبيان ، فى جميع السنوات (بين ٥ و ١٤) ، فيما يختص بالمفردات وسرعة المطالعة . أما فى فهم مايقرأ ، فالبنون يفوقونهن بين ٥ و ٧ ، ولكن البنات يفقنهم مابين السابعة والرابعة عشرة .

وفى الهجاء والإملاء ، تتفوق البنات فى جميع السنوات المذكورة ، ولو أن الزيادة طفيفة ، كما فى بقية الفروق ، إذ لاتزيد فى المتوسط عن واحد فى المائة .

أما فى الحساب العقلى فالبنات تقل عن البنين فى جميع السنوات المذكورة، ولو أن الفرق بسيط جدا . أما فى الحساب التحريرى ، فهن أقل كذلك ، إلا أن الفرق واضح عندئذ ، وعلى الأخص فى حل المسائل .

وفى سرعة الكتابة وحسن الخط ، تمتاز البنات عن البنين ، وعلى الأخص بين سن العاشرة والحادية عشرة . أما فى الرسم ، فالبنات أقل من البنين حتى

---

(١) مدير معهد التربية التابع لجامعة لندن والمستشار السيكولوجى لمجلس بلدى لندن .

سن ١٢ ، ولكنهما يتعادلان عند ١٣ ، ثم يتفوقن عليهم عند سن ١٤ بمقدار ٤ ٪ .

وفى سرعة الأعمال اليدوية ، لايكاد يكون هناك فرق . أما من حيث جودة العمل ، فالأولاد أحسن من البنات بشكل ظاهر .

وفى الإنشاء ، فالبنت تفوق الصبى فى جميع السنوات ، من حيث سرعة الكتابة وحسن الإنشاء ، ويزيد الفرق أحيانا إلى ١٠ ٪ .

مما تقدم يتضح أنه توجد فروق هنا وهناك بين البنين والبنات ، فتارة ترجح كفة أحدهما ، وتارة ترجح كفة الآخر ، فلا يمكن القول برجحان كفة أحدهما باستمرار ، والحكم بأفضليته المطلقة ، لاسيما إذا تذكرنا أن الفروق عند ماتوجد تكون عادة طفيفة .

ومن أهم الاختبارات التى أعطيت لقياس القدرات العقلية ، اختبارات الذكاء وهو غير القدرات العقلية الأخرى، كالذاكرة بأنواعها المختلفة، والانتباه إلى غير ذلك . ولقد أظهرت اختبارات الذكاء نتيجة لاتخرج فى مجموعها عن النتيجة السابقة ، ألا وهى أن الفروق بين الجنسين فى الذكاء العام طفيفة أيضا لاتجيز التفرقة بينهما بشكل واضح .

ومن اختبارات الذكاء المشهورة مقياس (بينيه سيمون) ، وقد دلت نتائجه على أن البنات يفقن البنين فى كل السنوات تقريبا بين الخامسة والرابعة عشرة ، إلا عند العاشرة ، فالبنون يفوقون البنات بدرجة طفيفة ، ويلاحظ هنا أن زيادة البنات أيضا طفيفة (لاتكاد تعدو أربعة أشهر) .

غير أن البعض يعترض على المقياس المذكور ، بحجة أنه بطبيعة تركيبه يعطى فرصة للبنات للتفوق ، نظرا لاعتماده لحد كبير على القدرة اللغوية ، وهى ميزة فى صف البنات كما أسلفنا سابقا . وقد دلت الاختبارات الأخرى على عدم وجود تحيز ظاهر فى صف أحد الجنسين ، إذ أنهما يتسابقان ويتلاحقان وهكذا بعد سن السابعة .

ومن المقاييس المعتمدة للذكاء تلك التى ألفها الدكتور سيرل بيرت ، وقد دلت نتائجه على تفوق الصبى فيما بين ٨ و ١١ ، وتفوق البنت عند الثانية عشرة والثالثة عشرة . ولكن الصبى يلحق بها ويسبقها حوالى سن الرابعة عشرة .

ويقول الدكتور بيرت تلخيصا لنتائج أبحاثه ما يأتى : « إن الفروق بين الجنسين ، من حيث الذكاء ، طفيفة جدا أثناء سنى الدراسة . ولم يظهر البحث حتى الآن أية فروق بينهما فى المدارس التى يختلطان فيها فى حجر الدراسة ، يعلمهما معلم واحد تبعا لمنهاج واحد » .

وقد اختبر ترمان فى أمريكا مايقرب من ١٠٠٠ طفل ، فوجد أن البنات بوجه عام تتفوق قليلا من حيث الذكاء على الصبيان ، فيما بين سنى الخامسة والثالثة عشرة . غير أن هذا الفرق كان قليلا لدرجة تبيح إهماله فى الأمور العملية . وخرج ترمان من أبحاثه بنتيجة وهى أن متوسط ذكاء النساء والبنات يعادل فى المتوسط ذكاء الرجال والصبيان .

وهنا نلاحظ أن النتائج التى ذكرت تنطبق على متوسط قوة كل من الجنسين أى أن الموازنات السابقة كانت معقودة بين المتوسط الناتج من اختبار عدد كبير من البنات . ومن الواضح أن الصبيان ليسوا كلهم فى قوة واحدة ، كما أن البنات لسن كلهن متشابهات من حيث القوة . وكل فرد يختلف عن المتوسط العام لجنسه اختلافا قد يكون صغيرا وقد يكون كبيرا .

ومما هو جدير بالملاحظة ، أن الفروق الداخلية ، بين أفراد كل جنس فيما بينهم ، أكبر من الفرق الذى بين متوسطى الجنسين . ولقد لوحظت ظاهرة لها معناها ، وهى أن درجات بعد أفراد البنين عن متوسطهم ، أكبر من درجات بعد البنات عن متوسطهن ، أى أن هؤلاء أكثر تجمعا حول متوسطهن من البنين ، الذين نجد بينهم من هو أعلا بكثير ، أو أقل بكثير من ذلك المتوسط .

ومما سبق ، نستطيع أن نقول إنه ما دامت الفروق العقلية بين أفراد

الجنس الواحد كبيرة بهذا الشكل ، فإنا نستطيع أن نهمل الفروق التى بين الجنسين ، وأن نعتبرهما فى مستوى واحد من حيث العقلية . فإن الفرق بين صبي وفتاة لا يكون راجعا عندئذ لمجرد الفرق بينهما فى الجنس ، بل هو فرق فردى كـكل الفروق التى بين الأفراد ، سواء كانوا من جنس واحد أم من جنسين مختلفين .

ويقول بعض العلماء : إن بين الرجال عددا من المتفوقين فى الذكاء ، والنوابغ ، أكبر مما بين النساء ، ويظهر أن ذلك الرأى به شىء كثير من الصحة . ولـكن ليس هذا كل شىء ، فمن المحتمل أيضا أن يكون بين الرجال من ضعاف العقول أكثر مما بين النساء ، وبذلك نستطيع أن نفسر تساوى الجنسين فى المتوسط العام للذكاء .

تلك النتائج التى ذكرناها ذات بال للمربين ، فعليهم أن يعلموا أن النتائج السيكولوجية لا تبرر التفرقة بين الجنسين ، من حيث المناهج ، أعتمادا على وجود فروق فى الذكاء العام .

ورأى الأستاذ ثورنديك الأمريكى فى هذا الصدد صريح ، لا يترك مجالا للشك فى تفاهة تلك الفروق ، فهو يقول : « إن الفرق فى الجنس أقل أسباب الاختلاف بين فرد وآخر ، فأهم ما نلاحظه فى الفروق بين الجنسين هو تفاهتها إذ أن الفروق بين أفراد الجنس الواحد تربو على الفروق التى بين جنس وآخر فى الأعمال العقلية والقريبة منها ، حتى أننا لنستطيع أن نطمئن إلى إهمال تلك الفروق فى الأحوال العملية .

وليس بخاف أن تجربة الجيل الماضى كله فى تعليم المرأة ، قد أظهرت كفاءتها فى جميع مراحل التعليم ، الدولية منها والابتدائية والثانوية والعالية . وتؤيد ذلك خبرة الجيل الحاضر أيضا ، سواء فى التعليم أم فى الأعمال العامة . كما أن اختبارات علماء النفس تظهر أن ذلك التساوى ناجم عن تساو فى القوى الموروثة ، لا من مجرد اجتهاد النساء وإجهاد أنفسهن فى الأعمال .

غير أن أبحاث كل من بيرت Burt و ترمان Terman قد أظهرت فروقا هامة بين الجنسين ، فى النواحى العقلية الأخرى ، غير الذكاء العام . وقد ظهرت هذه الفروق من الاختبارات العقلية التى أعطيت لكلا الجنسين . فقد تفوق الصبيان فى الاختبارات التى تتطلب تعريف شىء ما ، أو إدراك التشابه بين الأشياء ، أو التعليل الحسابى . بينما البنات تفوقن فى الاختبارات التى بها مفردات لغوية ، أو التى تتطلب إصدار حكم على القيمة الجمالية للأشياء المختلفة ولنضرب أمثلة لذلك ، فقد ورد فى بعض تلك الاختبارات السؤالان الآتيان :

« ماذا تفعل لو سألك أحد رأيك فى شخص لا تعرفه » و « ما الذى يجب أن تفعله قبل أن تبدأ عملا هاما جدا ؟ » . وقد ظهر تفوق البنات فى الإجابة عن مثل تلك الأسئلة ، التى تحتاج إلى حكمة وحسن تصرف فى أمور اجتماعية .

ويظهر أن الفروق العقلية التى بين الجنسين ليست فى الذكاء ، أو العمليات العقلية الراقية ، بل فى العمليات العقلية البسيطة . فمثلا من النتائج الثابتة ، أن البنات يفضلن البنين فى الإدراك عن طريق اللمس ، والتفرقة بين الألوان وفى الذاكرة الآلية أو الميكانيكية ، أى فى ترديد ما يراد تذكره ترديدا ميكانيكيا من غير أن يحتاج تذكره إلى معرفة الروابط أو التفكير . ولكن البنين تفوقوا فى اختبارات الدق أو النقر Tapping ، والاختبارات التى يقاس فيها زمن الرجع[1] .

ونريد الآن أن نوضح نقطة هامة ، قبل أن نترك ذلك الموضوع ، خوف اختلاط الأمر على القارئ . فنحن إذا قلنا أن الفروق العقلية بين الجنسين طفيفة ، فيما يختص بالذكاء العام ، فإن هذا لا يتنافى مع وجود فروق عقلية أخرى من حيث الاتجاهات العقلية المختلفة ، والمشارب والأهواء والميول التى يوجه إليها كل فرد عقله ، وهذه لا شك يختلف فيها الرجال والنساء . وهنا

---

(١) زمن الرجع هو الزمن الذى يمضى بين حدوث مؤثر Stimulus والاستجابة أو الرد على ذلك المؤثر Response

ثانية نجد أن اختلافات الأفراد لا تقل عن اختلافات الجنسين . ومن المتفق عليه بين البحاثة فى هذا الصدد ، أن البنين يهتمون بالأفكار والآراء ، أكثر من اهتمامهم بالأشخاص الذين صدرت عنهم هذه الأفكار والآراء ، بينما البنات يهمهن الأشخاص أكثر من الآراء والأفكار . هذا طبعا فى المجموع العام . وكما أن البنات تهمهن الأشياء التى تدرك بالحواس ، والتى تمثلها أشياء مادية ، نجد البنين يهتمون بالمعنويات التى قد تتجرد عن المحسات المادية .

أما فيما يختص بمواد الدراسة ، فالبنات أكثر ميلا لأدب اللغة ، بينما البنون أكثر اهتماما بالرياضيات . ولا يمنع هذا وجود بعض أفراد من كلا الجنسين ممن يخرجون عن القاعدة العامة المذكورة .

وربما كان الصبيان أكثر تقيدا بالاستنتاج المنطقى وخطواته أثناء تفكيرهم من البنات اللاتى كثيرا ما يهملن بعض خطوات التفكير ، ويصلن بذلك إلى نتيجة خاطئة من جراء التسرع . أما عن الحفظ ، فيلوح لنا أن البنات يفقن البنين . ولكن قد يفوقهن الصبيان فى القدرة على تركيز الانتباه ، وحصره فى موضوع معين .

ويقول بعض الباحثين أن المرأة بوجه عام تجذب انتباهها حادثة ما أكثر من فكرة ما . ونحن معاشر الرجال نهتم ، على عكس النساء ، بعلاقات الأشياء بعضها ببعض ، أكثر من اهتمامنا بالأشياء ذاتها . واتجاه العقلية النسائية نحو الماديات والمحسات ، أكثر منه نحو المعنويات .

وليس هذا الرأى السابق بمختلف عن رأى جون ستيوارت مل ، الذى كان يرى أن المرأة تفكر فى الأشياء على أنها جزئيات منفصلة عن بعضها ، بدلا من أن تفكر فيها على هيئة مجموعات متصلة مترابطة أفرادها . وبينما يهتم الرجال بالآراء والأفكار من حيث هى آراء وأفكار ، بصرف النظر عن أشخاصها ، نجد النساء يفكرن فى تلك الآراء والأفكار على اعتبار أنها آراء أشخاص معينين ، فهن لا يفصلن بين الرأى وقائله أو مصدره .

وقد دلت الأبحاث على أن النساء يتميزن باهتمامهن بالأشياء التى حولهن مباشرة ، على عكس الرجال الذين ينصرف اهتمامهم إلى أبعد من ذلك . وبينما يهتم النساء بالشىء كما يرونه فى شكله النهائى ، نجد الرجال يهتمون أكثر بالطريقة التى وصل بها ذلك الشىء إلى الصيغة النهائية . وكما أن النساء يجذب لبهن كل ما هو من قبيل الزينة والتجمل ، يهتم الرجال بما هو نافع مفيد .

أما عن تعليل تلك الاختلافات فى الاتجاهات العقلية ونواحى الاهتمام ، فالآراء متعددة . فقد تكون هذه الاختلافات راجعة لأسباب جسمية ، أو فسيولوجية ، وقد ترجع إلى اختلافات فى قوى الغرائز الأساسية عند كل منهما . ولسنا نريد أن نقول إن غرائز الرجال تختلف عن غرائز النساء من حيث النوع ، بل نريد أن نقول إن القوى الدافعة لتلك الغرائز ، هى التى تظهر اختلافا بين غريزة وأخرى . فمثلا غريزة المقاتلة Pugnacity ، وغريزة الجمع والادخار ، وغريزة الحل والتركيب ، تكون أقوى عند الرجال منها عند النساء . بينما هؤلاء تقوى فيهن غرائز الهرب والأمومة . غير أن الفرق فى الغرائز أقل بكثير مما يذهب إليه البعض .

ولا ننسى أيضا أن الفروق فى هذه الناحية ، قد تكون راجعة إلى البيئة الخاصة لكل من الجنسين ، أى الظروف المنزلية والاجتماعية ، التى تحيط بكل منهما ، فإذا كان هذا هو السبب الجوهرى ، أمكننا أن نتحكم فى تلك الفروق فنزيلها أو نزيدها ، ودلك بتغيير تلك الظروف التى تحيط بكل من الجنسين .

حـ — أوجه الاختلاف الوجدانية

من المسلم به أن كلا من الجنسين يرث نفس الغرائز التى يرثها الجنس الآخر ويشعر أيضا بنفس الانفعالات ، كالخوف والغضب وإثبات الذات والإعجاب والتمجيد ، والانفعالات الجمالية والدينية ، التى هى موجودة لدى الجنسين ، كما أنه يحدث لكل منهما عند البلوغ تطور وجدانى عظيم ، ولو أنه يحدث مبكرا عند البنات عنه فى الصبيان .

وإن الموازنة بين الجنسين من حيث الصفات الوجدانية أمر ليس بالسهل لعدم وجود اختبارات ومقاييس لتلك الصفات الوجدانية نستطيع أن نعتمد على نتيجتها اعتمادا تاما . نعم إن هناك مقاييس مزاجية أو خلقية[1] ، Tests of temperament ، وقد استعملت فعلا فى انجلترا وأمريكا ، إلا أنها لاتزال حتى الآن فى دور التجريب ، ولا نستطيع الجزم بصحة نتائجها . فما دامت الحال هكذا ، فلنحاول أن نجنى بعض الحقائق عن موضوعنا هذا من جهات أخرى ، وليس من ضرر فى ذلك ، مادمنا متذكرين دائما أنها ليست نتائج قاطعة ، إلى أن نستطيع أن نحصل يوما ماعلى مقاييس يقينية ، بتقدم الأبحاث فى هذا الشأن .

وإنا لنستطيع أن نتبين فروقا مزاجية أو خلقية بين الجنسين بالملاحظة . ويسلم الأستاذ بيرت ، وهو من الثقات فى هذا الموضوع ، بوجود تلك الفروق كما يسلم بأنها أكبر وأكثر وضوحا من الفروق العقلية ، التى سبق ذكرها فى الفصل السابق ، ولكنه يعود فيقول إن الفررق الوجدانية بين الجنسين أقل من الفروق الجسمية .

وعلى سبيل الموازنة ، نستطيع أن نقول إن انفعالات الرجال ربما كانت أعمق وأطول أثرا من انفعالات النساء ، ولكنها أقل ظهورا ، بعكس النساء ، اللاتى تظهر عليهن انفعالاتهن الحادة الفجائية ، من غير كظم أو إخفاء . والاختلاف يتناول أيضا الأشياء التى تثير تلك الانفعات لدى كل من الجنسين فهذه كما أنها تختلف من سن الآخر ، تختلف عند الذكور والأناث . وسرعة تأثر النساء بالانفعالات تجعلهن أكثر تعرضا للهستيريا .

أما فيما يتعلق بالناحية المدرسية ، فقد لوحظ أن البنات أقل اهتماما من

---

(١) لم نهتد فى العربية إلى كلمة تؤدى معنى اللفظية الأفرنجية تماما . ولكى نتبين القارىء معنى هذا الاصطلاح تماما نرجو أن يفرق بين اللفظات الآتية . الخلق Character والحالة الطارئة النفسية Mood والحالة النفسية العامة المستديمة Temperament

الصبيان بالناحية العملية من الأشياء، وأكثر تأثرا بالانفعالات والوجدانات كما أنهن أكثر اكتراثاً للمدح والثناء أو التوبيخ ، وقد يصل الأمر بهن إلى البكاء ، من أقل توبيخ أو إظهار لتقصير فى العمل ، أو عدم منح درجة تقنع وترضى . ويلاحظ أن البنت أميل إلى الهدوء والدعة فى منظرها العام ، بينما الصبي أميل إلى الحركة ، والبنت تستمع للنصح والإرشاد من الرؤساء أو المعلمين وتتقبله من غير معارضة[1] . أما الصبي فلا يتقبله من غير معارضة بل يناقش ويجادل قبل أن يسلم ويخضع .

ويقول بعض المربين ، بناء على ملاحظته لتلاميذ المدارس الثانوية وتلميذاتها ، فى السنوات الأولى منها ، لمدة طويلة : «يخيل للرائى من سلوك البنت أنها أكبر سنا مما هى ، فى العادة . فهى تؤدى عملها بإخلاص ودقة وأناة ، تفوق الصبي . وهى تقلد الكبار بسهولة ، وتميل إلى الاقتناع بسرعة بأشياء قد لا يقبلها الصبي إلا بعد المناقشة . والصبي فى تفكيره أكثر ابتكارا واستقلالا فى الرأى ، وأكثر انتباها وحذرا من الأخطاء المنطقية التى تتخلل مناقشة أو مشكلة ما . وهو أقدر على إدراك ما بين الأشياء من تشابه ، وعلى اكتشاف العلاقة التى بين الحقائق أو الظواهر ، وهو أدق فى ذلك من البنت . ولكنها أكثر صبرا ، وأطول أناة فى جمع تلك الحقائق وتبويبها وتصنيفها . كما أنها أكثر قابلية لتقبل الآراء والتشبع بها وهضمها . وذاكرتها على وجه العموم ، أكثر احتفاظا بالأشياء ، وعلى الأخص تفاصيلها . وهى فى ترتيب عملها أدق وأكثر إتقانا ، وهذا هو السبب فى أنها تصرف وقتا أطول فى تحرير مذكراتها واستذكارها ، بينما الصبي يأنف من مضيعة الوقت فى ذلك ، ويفضل أن يصرف وقته وجهده فى التفكير فيها وتمحيصها ونقدها . والبنت أقوى فى الإنشاء الشفوى ، وأسلس بيانا وأسرع إلى فهم مغزى الألفاظ والفقرات »[2] .

---

(١) هذا فى الغالب .

(٢) حبذا لو أجريت اختيارات على البنين والبنات فى المدارس المصرية لمعرفة مدى انطباق هذا على مراهقينا .

ذلك رأى مرب وصل إليه من خبرته فى حجرات الدراسة . ومن المفيد أن نورد رأى علماء النفس الذين سلكوا طريقا آخر ، فوصلوا إلى نفس النتائج . فيقول الأستاذ بيرت : « تتفوق البنات من حيث قدرتهن على الصبر والمثابرة اللذين يقتضيهما التحليل . كما أنهن يمتزن بمراعاة التفاصيل ودقائق الأمور . إلا أنهن أكثر عرضة لإهمال بعض خطوات التفكير ، والوصول إلى نتائج لا تؤيدها شواهد الأحوال . وهن يستطعن فرض الفروض بشكل يجعلها ملموسة ، ويستطعن تصور مواقف بغاية من الوضوح تفوق البنين ، وذلك بالاستعانة بخيالهن الواضح . وإن قدرتهن على استخلاص المعنى من عبارات مكتوبة أمامهن لاشك فيها ، وتبدو تلك المقدرة أيضا إذا طلب إليهن صوغ ذلك المعنى فى عبارات مناسبة. أما البنون فهم أكثر ثباتا فى تفكيرهم وانتقالهم من خطوة إلى أخرى أثناء التفكير ، وإنهم لأكثر انتباها لما يعترى ذلك التفكير من أخطاء. أما عنايتهم بالألفاظ فأقل من البنات، ولكنهم أقل تعرضا للوقوع فى شراك المغالطات المنطقية أو الاستهداف لما تحويه العبارات التى يقرأونها من إيحاء أو استهواء[1] .

ومن الأبحاث القيمة فى هذا الصدد ، ماقام به الأستاذ بيرت على الأطفال المجرمين أو الأحداث delinquents . فقد بحث حالات عديدة من هذا القبيل ، وأمكنه أن يقسم حالات إجرامهم إلى أقسام ، على أساس الدوافع الغريزية ، التى حدت بهم إلى الوقوع تحت طائلة القانون ، والانفعالات المتعلقة بها . فوجد أن عددا كبيرا من جرائم الصبيان تدخل تحت الأقسام الآتية: التشاجر والقسوة على الحيوانات والتشرد . أما البنات ، فنسبة كبيرة من جرائمهن ، تتعلق بالأمور الجنسية والكذب ومحاولات الانتحار . ولعل القارىء قد استلفت نظره فى الجرائد المصرية كثرة حوادث انتحار البنات المصريات ، لأسباب مختلفة كمضايقة أهلهن لهن ، أو الحيلولة بينهن وبين من يهوين من

(١) حبذا لو استطعنا معرفة مدى انطباق ذلك على مراهقينا أيضا .

الأزواج ، ومحاولة إرغامهن على أزواج لا يملن إليهم ، إلى غير ذلك. ويلاحظ أن المجموعة الأولى الخاصة بجرائم الصبيان ، يمكن إرجاعها إلى ضعف الهيمنة على بعض الغرائز كغريزة المقاتلة Pugnacity وإثبات الذات Self Assertion، وغريزة التملك ، وبعبارة أخرى ، الغرائز والدوافع الصادرة عن الذات The Self . وأما المجموعة الثانية فيمكن إرجاعها إلى الغريزة الجنسية والدوافع الصادرة عن إنكار الذات ، والخضوع Self Subiection ، والغرائز الأخرى الاجتماعية .

تلك الموازنة الموجزة تعطينا فكرة عامة مبسطة عن الانفعالات التى قد تصعب الهيمنة عليها فى كل من الجنسين ، وتبين لنا أن هناك فرقا بينهما من حيث قوة الانفعالات التى تدفع الفرد وتوجهه ، إما نحو الذات ، وإما نحو المجتمع .

ويجدر بنا أن نذكر القارىء هنا بأن تلك الفروق ليست هائلة ، وأن كلا الجنسين يخضعان بوجه عام لنفس الغرائز ، وتحركهما نفس الانفعالات .

وقد أيدت نتائج بحث الأستاذة هويلر (Wheeler) النتائج التى حصل عليها الدكتور بيرت ، فقد دل بحثها على أن بين النساء نسبة أكبر (من الرجال) ظهر عليهن فى دور البلوغ ميل نحو الجنس الآخر ، كما أن كثيرا منهن بدت عليهن بوادر الاهتمام بالمسائل الدينية ، أما الانفعالات الجمالية ، فقد ظهر اهتمام الذكور بها أكثر من الأناث .

ويظهر أن الأناث تكون حياتهن الوجدانية أقل استقرارا وثباتا وقوة من الذكور ، وليس هذا بغريب ، فإن الفتى أو الرجل عند مايحس بميول قوية نحو شىء مايعمل على الحصول عليه ، بما له من القوة والحق الذى تخوله له التقاليد والهيئة الاجتماعية، فهو دائب فى تحقيق أطماعه وآماله، وعلى الأخص تلك الأطماع والآمال التى تتعلق بمستقبله كالزواج وغيره . أما عند الأناث فقد ينشأ تصادم بين الدوافع « الذاتية الأنانية » والدوافع «الاجتماعية» ومن المعلوم أن كلا من هذه الدوافع يتطور تطورا عظيما فى دور البلوغ ، فكأن

هذا التضارب يبدا من ذلك الدور . فى هذه الأيام نجد كثيرا من النساء ، تتنازعهن تلك الميول ، فتارة تسيطر عليهن الميول الذاتية فينزعن نحو إثبات ذاتهن ، واتخاذ مكان محترم لهن فى الهيئة الاجتماعية . ومن أمثلة ذلك ، النساء اللاتى يأخذن كثيرا من الوظائف الهامة فى الصحافة والتدريس والطب ، واللاتى يخضن مضمار الحياة النيابية والسياسية ، ففى هؤلاء بلا شك بدت الدوافع الذاتية ظاهرة جلية ، حتى حققت تلك المآرب التى فى تحقيقها إثبات للنفس والذات ، وإرضاء لحب الظهور .

غير أن الغالبية الكبرى من النساء يتخذن طريقا آخر ، ألا وهو الزواج ، وليس من شك فى أن الزواج به تضحية كبيرة لتلك الميول الذاتية التى ذكرناها ، فالمرأة فى تضحيتها بمستقبلها ومركزها ، ترضى ميولها الاجتماعية ، التى تجعل منها مأوى صالحا يركن إليه الزوج والأطفال فى المنزل أو فى غيره .

هذا الكفاح بين تلك الميول قد يشتد أو يضعف تبعا للظروف الاجتماعية المحيطة بالفتاة أو المرأة ، ولكن مالاشك فيه ، أن بوادره تظهر فى عهد البلوغ وأبسط مظهر له عند ماتفكر الفتاة فيما سيئول إليه أمرها ، ولكنه يشتد فى حالة الفتيات أو النساء اللاتى ينفتح أمامهن مستقبل ناجح فى الحياة الاجتماعية أو فى المهن الحرة ، أو الوظائف الحكومية ، فهؤلاء ليس من السهل عليهن التضحية بمستقبل زاهر فى سبيل الزواج ، وعلى الأخص إذا تعارض هذا مع اشتغالهن بالأعمال الاجتماعية ، أو الوظائف والمهن . ووزارة المعارف بإجبارها المعلمات المتزوجات على ترك الخدمة ، تثير فى نفوسهن ذلك الكفاح النفسى بأجلى معانيه .

وربما كان هذا الكفاح النفسى ، وعدم الاطمئنان الاجتماعى ، من الأسباب التى قللت من نوابغ النساء ، بعكس الرجال الذين أمامهم سبيل الظهور ميسر مفتوح . ويؤيد ذلك ماأثبتته اختبارات الذكاء من تساوى الجنسين من حيث الذكاء الطبيعى .

فى هذا الوقت العصيب ، الذى تتنازع الفتاة فيه تلك الميول المختلفة ، تجد

من أبيها ناصحا مرشدا وعضدا قويا تركن إليه إذا ماتجاذبتها الأنواء والعواصف، ولذا نجد أن الحياة الوجدانية للفتاة على اتفاق تام مع الوالد ، بعكس الفتى الذى يجمح إلى تحقيق مطامعه الشخصية وإثبات ميوله الذاتية فيصطدم مع أبيه فتأتى أمه تحنو عليه وتنقذه من سطوة أبيه ، الذى قد يميل إلى كسر شوكته ، وإخضاع ميوله الذاتية .

ولا شك أن الكثير من الآباء يشتط فى هذه الناحية ، فيعمدون إلى إثبات نفوذهم وذاتهم على حساب أبنائهم ، غير عالمين بما يجره ذلك من الضرر على هؤلاء الفتيان الناشئين ، وغير عالمين أن ميل الفتى فى دور البلوغ لإثبات ذاته وشخصيته أمر طبيعى ، وليس تحديا لسطوة الأب أو مركزه فى العائلة .

وكثيرا ماتسوء العلاقة بين الأب وابنه ، من جراء جهل الأب بتلك الحقائق التى ذكرناها ، ووقوفه فى سبيل النمو الطبيعى لانفعالات الفتى ، مما قد يؤدى به إلى ارتكاب بعض الجرائم ، كالفرار من المنزل ، ومحاولة السرقة لسد أوده أثناء غيبته ، وغير ذلك مما قد يدخله تحت طائلة القانون ، الذى هو جاهل به ، فيصبح مجرما من حيث لايدرى . وواضح أن الذنب ذنب أبيه والبيئة الاجتماعية المحيطة به ، التى لم تحسن التصرف معه ، ولم تحسن تربيته ، ولم تفهم طبائعه وميوله ، فأساءت إليه كما أساءت إلى الهيئة الاجتماعية بإخراجها مجرما قد يصعب علاجه فيما بعد .

وإن معاملة المراهقين ، ذكورا كانوا أو إناثا ، لمن أهم الأمور التى يجب على كل أب أو أم أو معلم معرفتها نظرا لخطورتها ، ولأثرها الكبير فى مستقبل حياة الناشىء ، ونظرا لعدم انقياده لطرق التأديب والمعاملة التى تعودها قبل ذلك الوقت ، أى فى عهد طفولته .

ومما هو جدير بالذكر ، أن البيت تحت الظروف الحالية ، هو المكان الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه فى تربية انفعالات المراهق وتنظيم حياته الوجدانية . أما المدرسة ، فمع كبير أثرها فى حياته ، فإنها توجه جل عنايتها فى العادة ، إن صوابا وإن خطأ ، نحو تربيته من الوجهتين العقلية والجسمية . وسنتكلم فى أحد الفصول الآتية عن تأديب المراهق ومعاملته .

الفصل الرابع

الأنواع الرئيسية للمراهقين

أو الفروق الفردية بين المراهقين

تكلمنا فى الفصل السابق عن الفروق التى بين الجنسين ، ووصلنا إلى أن الفروق بينهما ليست أكبر مما بين فرد وفرد ، ولذا فإننا سنولى وجهنا فى هذا الفصل نحو بحث تلك الفروق التى بين الأفراد . غير أن اختلاف الموضوع هنا سيقتضى منا طريقة تختلف فى البحث ، فإن كلامنا حتى الآن كان عاماً ينطبق على الغالبية العظمى من المراهقين والمراهقات ، والصفات التى ذكرناها هى الصفات التى تنطبق على الأكثرية المطلقة ، أما الأحوال الخاصة أو الشاذة فلم تدخل فى عداد حسابنا ، فبحثنا كان منصباً على دور المراهقة بوجه عام ، لمعرفة خصائصه التى يشترك فيها غالبية من هم فى هذا الدور ، بصرف النظر عن (فلان) الذى قد يشترك فى بعض الصفات فقط مع الغالبية ، ويشذ عنها فى البعض الآخر ، والطريقة التى يعتمد عليها فى جمع تلك الحقائق العامة هى طريقة الإحصاء The Statistical Method . التى أصبح لها شأن عظيم فى علم النفس ، وفى كثير من العلوم الأخرى ، لأنها تحررنا من التقيد بحالة خاصة قد تكون شاذة ، فتضللنا إذا ما أطلقنا صفاتها على المجموع ، وبهذه الطريقة نأمن التحيز لأفراد قلائل ، قد يقعون تحت بحثنا من طريق الصدفة ، أو بعامل الاختيار ، بحكم وجودنا فى ظروف خاصة ، تجعل الحالات التى تحيط بنا وتقع تحت ملاحظتنا من نوع خاص .

غير أن هذه الطريقة ، طريقة التعميم ، رغم مابها من مزايا جليلة ، والخدمات التى أدتها لعلمى النفس والتربية ، لا تكفى وحدها لأن تكون أساساً لبحثنا ، لأننا بانصرافنا للأغلبية نهمل الأقلية ، التى هى ذات شأن فى حياتنا أيضاً ، رغم كونها أقلية ، فكون (فلان) يخالف المجموعة فى صفة من

الصفات ، ليس معناه أن يهمل ، ويترك من حسابنا ، ونغض الطرف عنه فى حياتنا الاجتماعية ، وإلا لأهملنا المرضى وتركناهم تسطو عليهم آفاتهم وعللهم ما دامت الأغلبية صحيحة . كذلك إذا قلنا إن ٨٠٪ أو أكثر من المراهقين يبدو عليهم الميل الجنسى ، فمعنى هذا أن تلك إحدى الصفات العامة لدور المراهقة التى « نتوقع » أن تبدو على كل مراهق « عادى » غير شاذ، فاعتمادنا كلية على نتائج طريقة الإحصاء يضللنا ، إذا لم نأخذ حذرنا بأن نتذكر الطريقة التى وصلنا بها إلى تلك النتائج ، وإلا لأهملنا عدداً غير يسير من الأفراد الذين لايدخلون تحت الأغلبية ، فضلا عن أن الأفراد الذين يدخلون تحت الغالبية لا يشبه بعضهم البعض تماماً ، بل بينهم أيضاً فروق طفيفة تهملها طريقة الإحصاء، حتى تستطيع تقسيمهم إلى أنواع ، وحصر العدد الذى يدخل تحت كل نوع . والحقيقة أن الشخص « العادى الكامل » لا يوجد ، بل هو محض فرض ، فليس هناك فرد واحد كل صفة من صفاته تنطبق على مجموع المراهقين، فالشخص الذى بلغ الكمال فى كل صفة من صفاته الجسمية والنفسية لم يخلق بعد ، بل كل فرد من الأفراد الذين نراهم على وجه البسيطة إن بلغ الكمال فى ناحية من النواحى ، وليكن فى قوة ذراعيه ، حتى أصبح مضرب الأمثال ، قد يكون ضعيف البصر أو السمع أو الهضم ، أو قد يكون ضعيف الذكاء ، أو ضعيف الذاكرة ، وهكذا ، ففى الحقيقة كل فرد من أفراد النوع الإنسانى حالته خاصة ، تحتاج إلى دراسة خاصة به ، أما الصفات العامة التى تنطبق على المجموع ، ففائدتها فى بيان الإتجاه العام ، وقيمتها فى إرشاد الباحث إلى الناحية التى يجب أن يتجه نحوها ليجد ضالته المنشودة ، فالطبيب الذى يعطى دواء واحدا لكل من يشكو الصداع قد يضر الكثيرين بدلا من أن ينفعهم ، كما أن المعلم الذى يعطى جميع الأطفال درساً واحداً بطريقة واحدة ، رغم اختلافهم فى السن والاستعداد العقلى ، يكون كمن يتخبط فى دياجير الظلام ، ولا يؤدى أمانته على الوجه المرضى ، فمهما قيل من أن الأطفال الذين فى سن

كذا تبدو عليهم صفات عامة مشتركة فى الجسم والعقل والخلق ، فإن الخبرة والعلم يقولان إنه ما من طفلين يشبهان بعضهما تمام الشبه فى كل شىء ، فإن اتحدا فى الطول فقد يختلفان فى القوة البدنية ، وإن إتحدا فى السن فقد يختلفان فى درجة النمو ، وإن اتحدا فى نسبة الذكاء فقد يختلفان فى ميولهما الخاصة وهكذا ، فإن عاملنا هؤلاء كلهم معاملة واحدة ، نكون كمن يحاول صب تماثيل مختلفة الأشكال والحجوم فى قالب واحد ، ثم يعجب من أنها لا تلين ولا تظهر مقدرته الفنية .

ولقد كانت الاختبارات العقلية أكبر عضد لعلماء النفس فى الطريقتين ، الطريقة العامة والطريقة الفردية ، أى فى جمع الحقائق والميزات العامة لغالبية الأفراد أولا ، وذلك باختبار عدد كبير منهم فى نفس الزمان والمكان ، ثم استخراج النسب المختلفة لكل سن ولكل نوع على حدة بطريقة الإحصاء ، ثم بتطبيقها ثانياً على الأفراد فى أحوالهم وظروفهم الخاصة كل فرد على حدة ومعرفة مقدار اختلافه عن الغالبية فى كل ناحية من نواحيه على حدة كذلك .

ومما يزيد فى قيمة الطريقة الفردية أنها لا تكتفى ببحث حالة الفرد من حيث الكم ، أى كمية ما عنده من صفة خاصة ، بل توجه العناية إلى « النوع » أيضاً . فالفروق بين الأفراد ليست فى الكم فقط ، بل فى النوع أيضاً ، (ففلان) لا يختلف عن (فلان) فى أنه أشد ميلا نحو الألعاب الرياضية ، أو أنه أطول تذكراً للأشياء فقط ، بل الفرق بينهما أيضاً فى نوع الألعاب التى يميل إليها كل منهما ، وفى نوع الأشياء التى ترسخ زمناً أطول فى الذاكرة ، ولذا ظهرت قيمة (الاختبارات التشخيصية) Diagnostic Tests التى تشخص صفات المرء وقدراته ، فلا تكتفى ببيان مقدار الضعف أو القوة بل تبين نوع ذلك الضعف ، أو القوة أيضاً ، ففائدتها من الناحيتين الكمية والنوعية Quantitative & Qualitative

ومن أهم الاختبارات العقلية التى ساد استعمالها فى علم النفس ومعامله اختبارات الذكاء Intelligence Tests ، وهى ترمى إلى الوقوف على حالة

الذكاء الطبيعى الموروث عند المرء ، دون المعلومات والتعليم الذى حصله فى حياته ، إذ تلك لا دخل لها فيما ورثه يوم بزوغه إلى ذلك العالم ، ولها مقاييس خاصة تسمى المقاييس التحصيلية Achievement Tests . أما الذكاء فهو منحة توهب كما يوهب الكثير من الصفات الخلقية والجسمية ، وكما توهب السعادة والشقاء .

واختبارات الذكاء هى امتحانات تحوى مشاكل أو مسائل تتطلب حلا ، ومواقف تتطلب تصرفاً خاصاً لكل منها على حدة ، ولقد طبقت تلك الاختبارات على جموع كبيرة فى أنحاء العالم وعلى الأخص فى أمريكا وانجلترة وفرنسا ، فدلت على وجود فروق شاسعة فى الذكاء بين الأفراد ، حتى الذين هم فى سن واحدة ، فإذا أخذنا مجموعة غير مختارة اختياراً خاصاً من المراهقين فى سن الثانية عشرة مثلا ، وجدنا أن « الغالبية » منهم عمرهم العقلى ١٢ سنة ، أى أنهم متوسطو الذكاء ، وأنهم متفقون مع الشائع والغالب ، ولكننا نجد أفراداً من تلك المجموعة ذكاؤهم يعادل ذكاء أطفال فى سن السادسة ، أو السابعة أو الثامنة أو التاسعة أو العاشرة أو الحادية عشرة ، فهم دون متوسط الذكاء لسنهم ، كما نجد آخرين يعادل ذكاؤهم ذكاء من فى سن الثالثة عشرة ، أو الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة أو السادسة عشرة . فبينهم إذن من هو فى درجة الأبله ومن هو فى درجة النوابغ ، رغم كونهم كلهم مراهقين ، ورغم اتحادهم كلهم فى السن ، ومع ذلك قد تجدهم كلهم يحشدون فى فصل واحد ، ويخاطبون فى موضوع واحد ، بنفس الطريقة والأسلوب ، ويعاملون معاملة واحدة ، كأنما هم خشب متراصة ، أو جنود فى معسكر ، والواجب أن يفصل بينهم ، وأن يفرق بينهم فى المعاملة ، فيأخذ كل على قدر استعداده ومواهبه ، وذلك لن يكون إلا بعد دراسة كل واحد دراسة فردية على قدر الاستطاعة .

وذلك المثل من أكبر الأدلة التى يسوقها علماء النفس والتربية ، للتدليل على أن المدارس المعدة لتربية المراهقين يجب أن تكون من أنواع متعددة ،

تبعاً لتعدد ميولهم واستعداداتهم وحاجاتهم فى ذلك السن ، وحتى داخل كل نوع من تلك المدارس المتعددة ، يجب أن تختلف الطرق من مجموعة إلى مجموعة ، وأن تتاح الفرص لكل فرد لأن يأخذ مايلائمه ويناسب طبيعته التى وهبها ، إذ ليس أضر على المرء من أن تقاوم طبيعته التى وهبها له الخالق عز وجل . وليس هناك من فائدة تجنى من صب جميع الأفراد فى قالب واحد

ويعبر عن نتائج اختبارات الذكاء برقم يسمى فى علم النفس نسبة الذكاء I.Q. . فإذا كان ذكاء الإنسان متفقا مع ذكاء من هم فى سنه ، رمز إليه برقم ١٠٠ ، وإذا كان يفوقهم رمز إليه برقم يزيد على المائة تبعا لدرجة التفوق ، وإذا قل عنهم رمز إليه برقم يقل عنهم تبعا لدرجته وهكذا . وتتراوح نتائج مقاييس الذكاء عادة بين ١٥ و١٩٥ أى من الأبله الذى لايعادل ذكاؤه أكثر من ١٥٪ من ذكاء من هم فى سنه إلى النابغة الذى يكاد يعادل ذكاؤه ضعف من هم فى سنه .

والأشخاص المتوسطون أو العاديون هم الذين يتراوح ذكاؤهم بين ٨٥ و ١١٥ ويعادلون حوالى ٦٥٪ من الناس الذين فى سنهم . ويليهم من هم دون المتوسط الذين يتراوح ذكاؤهم بين ٧٠ و ٨٥ ويكونون حوالى ١٥٪ من التلاميذ . وكذلك من هم فوق المتوسط الذين يتراوح ذكاؤهم بين ١١٥ و١٣٠ ويكونون حوالى ١٥٪ من التلاميذ . أما الذين دون ٧٠ فقلما يصلون إلى المدرسة الثانوية ، فلا يلقى المعلم عبء تعليمهم فى هذا الدور ، ويكونون عادة حوالى ٢٫٥٪ من التلاميذ . ويطلق اسم النوابغ على الذين يتراوح ذكاؤهم بين ١٤٠ و ١٩٠

وتشير الأبحاث إلى أن غالبية الموهوبين فى الذكاء موهوبون فى الصفات العقلية والجسمية الأخرى . ولا يجد المراهقون الأذكياء صعوبة فى تعلم مواد الدراسة الثانوية ، لتقدمهم على متوسط التلاميذ ، ولهم قدرة على فهم المعنويات والأفكار المجردة ، أى التى لاتتمثل فى أشياء مادية محسوسة ، ولهم قدرة على

التعميم والحكم . وبالجملة لايجدون صعوبة فى النجاح فى الامتحان . ولكن حظهم سىء مع ذلك ، فى الوقت الحاضر من جهة أخرى ، لأن المدرسة الثانويه بنظامها الحالى لاتفهمهم ، ولا تعد العدة للاستفادة من قدرتهم الفائقة ولا تمنحهم حرية الدرس المستقل ، والاستزادة من الاطلاع ، بل تجبرهم على السير بنفس الخطى كغيرهم من المتوسطين والأغبياء ، فيحدث فيهم ذلك قلقا نفسيا ، قد يزيد إلى ثورة نفسية إذا لم تجد نفوسهم الجامحة منفذاً لتطلعها ونشاطها .

وتجب الحيطة فى الوقت نفسه ، من المغالاة فى أشباع نهم المراهقين الأذكياء من الأبحاث العقلية ، إلى حد إهمال قدراتهم الأخرى ، سواء عقلية أم جسمية ، إذ أن ذلك يجعل نموهم غير متزن ، فنجعل منهم فلاسفة ضعاف الأجسام ، أو رياضيين لايعرفون شيئا عن الحياة الاجتماعية ، أو موسيقيين أو فنانين عاجزين عن فهم أسرار الكون العلمية . وإنما الواجب الجمع بين أكبر عدد من تلك النواحى التى ذكرناها مع إعطاء اهتمام أكبر للنواحى الخاصة ، التى يبدى فيها المراهق نبوغا واهتماما .

وعلى العكس مما سبق ، نجد المراهقين الذين دون المتوسط فى الذكاء ، لاتلذ لهم الأفكار المعنوية المحضة ، أى التى لاتتمثل فى أشياء محسة أو مادية ولذا تجد أن مواد الدراسة العملية أنسب ما يكون لهم ، وعلى المدرسة الثانوية أن تنشىء لهم فصولا وبرامج خاصة ، تختلف عن برامج الأذكياء من المراهقين .

ولقد تبين علماء النفس الفروق الموجودة بين المراهقين ، عندما وجدوا أن البعض يميلون نحو الأشياء العملية أكثر من المعنويات ، أى المعانى المجردة من المحسات ، فاضطروا إلى استخدام (مقاييس الذكاء العملية) Performance Tests ، وهى مشاكل عملية يطلب من الفرد حلها بطريقة عملية ، من غير اعتماد على الألفاظ ، كما فى مقاييس الذكاء اللفظية التى أساسها

فهم مدلول الألفاظ. ومن أمثلة المشكلات العملية المذكورة، تقطيع صورة مجسمة (على خشب أو ورق مقوى) إلى أجزاء، ثم مطالبة الفرد المختبر بأن يجمع تلك الأجزاء المبعثرة، ويضعها فى أمكنتها المناسبة لإعادة تركيب الصورة. ومنها أيضا اختبارات التواهات Mazes، وهى عبارة عن طريق محفور من الخشب معقد متشابك متداخل (على شكل بيت جحا)، ويطلب من المختبر أن يسير فيه بالقلم حتى يصل إلى نهايته. وتلك الاختبارات تتدرج من السهل البسيط الذى يستطيع الأطفال حله، إلى الصعب المعقد الذى لايستطيع حله إلا الراشدون الأذكياء فقط. ولقد وجدت علاقة كبيرة بين ذينك النوعين من اختبارات الذكاء، أى أن نسبة عالية من الذين يتفوقون فى أحد النوعين يتفوقون كذلك فى النوع الآخر. ولكننا نعود فنقول إن هناك أفراداً يناسبهم أحد النوعين فقط دون النوع الآخر، فيتفوقون فى الأول ولا يتفوقون فى الثانى أو بالعكس، ولذا ننصح باستعمال النوعين جنباً لجنب فى الأحوال الدقيقة، التى يراد فيها تشخيص الذكاء تشخيصاً دقيقاً، كما فى العيادات السيكولوجية، أو فى الأحوال التى يبنى على نتائجها اعتبارات خطيرة، كالقبول فى الوظائف أو المدارس أو الجامعات.

ولقد أظهرت الاختبارات العقلية، غير مقاييس الذكاء، فروقا فى «القدرات الخاصة» Special Abilities، فقد نجد فتى قدرته الرياضية عالية جداً بينما قدرته اللفظية وضيعة، كما أن آخر قد يكون دون المتوسط فى الذكاء العام، ولكنه قد يكون فوق المتوسط فى الفنون والموسيقى. ولاشك أن الفروق فى تلك القدرات الخاصة لها أهمية كبيرة فى تكييف الدراسة، وتحوى بين ثناياها استعداد الفتى أو الفتاة للمهنة المستقبلة.

وباختبار تلك القدرات الخاصة نستطيع مساعدة الفتيان فيما يختص بمهنتهم المستقبلة، وتوجيههم نحو الطريق الذى ينتظر لهم أن يبدوا كفاءة فيه بناء على استعدادهم، إذ لافائدة من أن يزج الفتى بنفسه فى معترك الحياة

فى ناحية ليست عنده القدرة على السير فيها فيفشل ، بينما لديه مواهب معطلة ، لو وجه لاستخدامها لنبغ وأظهر كفاءة نادرة . ويسمى هذا بالتوجيه المهنى Vocational Guidance ويمكن إعطاء اختبارات التوجيه فى نهاية المدرسة الابتدائية ، حتى يستطيع الفتى أن يعرف أى المدارس أنفع له . فالفتى الذى لديه الاستعداد العملى ، وهو ضعيف فى الناحية النظرية واللفظية ، لافائدة من دخوله المدرسة الثانوية التى تؤدى إلى الجامعة ، وكلاهما دراسته نظرية معنوية لحد كبير ، وخير له عندئذ أن يلتحق بالمدارس الصناعية أو الفنية ، إذا كانت لديه مواهب من ذلك النوع . وبالعكس الفتى الذى لديه الاستعداد للأشياء المجردة المعنوية ، ولمتابعة الدراسة النظرية ، خير له أن يواصل دراسته حتى الجامعة ، حيث يشتغل بالأمور المعنوية ، ويتابع الأبحاث فيستفيد ويفيد أمته .

وتطبق تلك الاختبارات على الفتى مرة أخرى عند رغبته فى اللحاق بإحدى الوظائف ، لا لإرشاده هذه المرة ، بل لاختيار من يصلحون لوظيفة ما ، فهو اختيار مهنى Vocational Selection . وهو يفيد الفرد من حيث أنه يوفر عنه الشقاء ، الذى ينتابه من سلوك طريق لايصلح له ، ولا يكون موفقا فيه ، فيبقى محروما من الترقية والتقدم ، فضلا عما يناله من اللوم والتأنيب . وهو يفيد العمل من حيث اختيار الأفراد الأكفاء لأدائه بطبعهم . وليس من شك فى أن المران والدربة تفيد ، ولكن الشخص الذى لديه الاستعداد الطبيعى ، يتقدم أسرع ممن لايتوفر لديه ذلك الاستعداد .

على أن الفروق بين المراهقين لاتقتصر على الناحية العقلية التى سبق ذكرها ، بل تظهر أيضا فى الناحية الوجدانية (Emotional) وهى ذات بال فى حياة المراهق . فالطاقة الجديدة التى قد تنبعث فى نفسه عند بدء عهده بذلك الدور ، أجلى ماتظهر فى الناحية الوجدانية ، ودراسة هذه واجبة قبل أن نستطيع تحديد ميوله ونزعاته .

ولقد أجرت الأستاذة أوليف هويلر[1] بحثا مفيدا ، بطريقة الاستفتاء على جماعتين من الأفراد ، الأولى من العمال ، والثانية من طلبة الجامعة ، ووجهة إليهم أسئلة لخصت نتائجها ، بطريقة الإحصاء فى الجدول الآتى ، نثبته للقراء للفائدة :

س ١ — النسبة المئوية للذين كانوا أثناء مراهقتهم مغرمين ويمضون بعض وقتهم فى :

	العمال	الطلبة
	نسب مئوية	
المطالعة والأدب	٥٩	٦٤
الرياضة البدنية	١١	٣٣,٥
أعمال فى الهواء الطلق (كالمشى وركوب العجلات والفلاحة وأعمال الكشافة الخ)	٢٢	٢٦
الأعمال اليدوية والفنية (كالنجارة وشغل الإبرة والرسم والموسيقى)	٦١	٣٥
نظم الشعر	صفر	٦
التاريخ (والسياسة)	١٠	٢٤
الرياضيات	صفر	٣١
العلوم الطبيعية والعلمية	صفر	٣٣
الجغرافيا	صفر	١٠
الفلسفة والفقه	١٨	٦,٥
س ٢ — نسبة الذين يذكرون انغماسهم فى أحلام اليقظة أثناء المراهقة	٣٨	٦٤

س ٣ — نسبة الذين شعروا أثناء المراهقة بازدياد تقديرهم وحبهم نحو :

(١) أستاذة التربية بجامعة كاردف

	العمال	الطلبة
الطبيعة	٧١	٥٤,٥
الموسيقى	٤٠	٥٩
التصوير	٤٠	٤٢,٥
الشعر	٢٩	٦٣

س ٥ — نسبة الذين اتجهوا نحو الدين :

أولا : فى الطفولة	٩	٨,٥
ثانيا : فى المراهقة	٥٠	٦١,٥

س ٨ — نسبة الذين شعروا بالميل نحو الجنس المقابل فى المراهقة ٩١ ٨٣,٥

س ٩ — نسبة الذين أسسوا صداقة جديرة بالتذكر فى المراهقة ٩٠ ٧٣,٥

س ١٠ — نسبة الذين شغفوا بحب بعض الأبطال ٨٠ ٥٠,٥

س ١١ — نسبة الذين شغفوا باستطلاع خبايا الحياة وأسرارها فى الطفولة ٢٩ ٢٤

س ١٢ — نسبة الذين شغفوا باستطلاع خبايا الحياة وأسرارها فى المراهقة ٧٣ ٨٨

يمكننا أن نستدل من الأرقام السابقة على بعض حقائق عامة ، تؤيد ما هو معروف عن دور المراهقة بوجه عام :

١ — أن دور المراهقة يتميز بإقبال الفرد على الاطلاع ، وزيادة معلوماته ، وباتساع أفقه العقلى ، وشغفه بالعلوم ، كما تدل على ذلك أرقام السؤال الأول وهى (٥٩٪ و ٦٤٪) .

٢ — يزداد حب المراهقين للطبيعة ، وعلى الأخص الطبيعة الخلوية ،

ويقدرون جمالها وما فيها من فن ، كما تدل أرقام السؤال الثالث (٧١٪ و ٥٤,٥٪) .

٣ — تتفتح أعين المراهق للدين ، ويبدأ يتفهمه كأنه يعتنقه من جديد ، ويتضح هذا من مقارنة أرقام الطفولة والمراهقة فى السؤال الخامس .

٤ — أما الميل نحو الجنس المقابل ، فيتضح من أرقام السؤالين الثامن والتاسع .

٥ — حب المراهقين للأبطال وتمجيدهم يدلنا على اتساع دائرة التفكير والنشاط عندهم ، وحبهم للظهور والاقتداء بمن حصلوا على شهرة واسعة .

واتباعا لما قلناه فى أول ذلك الفصل ، سنقرن تلك النتائج العامة التى ذكرناها ، والتى حصلنا عليها من طريقة الإحصاء ، بنتائج البحث الفردى . ولذا سنقتطف بضعة حالات ندرس كلا منها على حدة ، ولا شك أن هذا يعطينا فكرة أوضح عما يجرى فى نفس المراهق والمراهقة .

خذ مثلا الحالة الآتية[1] :

ولنرمز للاسم بالرمز (و ٢) رجل عمره ٣٩ سنة . كان أبواه على قيد الحياة أثناء مراهقته ، وكان له أخوان وأخت واحدة . ترك المدرسة فى سن الحادية عشرة ، واشتغل فى مخازن أحد مصانع القطن ، فيما بين سن الحادية عشرة والثامنة عشرة . وقد شعر أثناء مراهقته بميل نحو التاريخ ، ولكن هوايته الخاصة التى كان يحبها كانت إصلاح اللعب الميكانيكية والساعات .

وهو لا يذكر انغماسه فى أحلام اليقظة بدرجة كبيرة . وكان يحب الطبيعة ، ولكنه لم يغرم بالموسيقى أو التصوير أو الشعر .

أما من حيث الدين ، فلم يشعر بانتقال فجائى ، ولكنه جعل يتحول نحوه تدريجيا .

---

(١) من ابحاث الأستاذة أوليف هويلر

ولقد شعر بميل نحو الجنس المقابل ، وأحب فتاة وهو فى سن السابعة عشر ، وتزوجها فى سن الرابعة والعشرين .

واتخذ كثيرا من الأصدقاء ، وأحب بطلا من أبطال السباحة . أما عن رغبته فى الاستطلاع ، فتمثلت فى حصوله على بعض كتب فى البيولوجيا والتشريح ووظائف الأعضاء ، واكتسب منها كثيرا من المعلومات .

نرى من دراسة الحالة السابقة ، أن النمو كان طبيعيا متزنا بوجه عام ، وكانت اتجاهاته كلها معقولة فى طرقها العادية الطبيعية . كما أن اتجاهاته نحو الزوجة والحياة الاجتماعية والعالم بوجه عام ، لم يعترضها أو يعق نموها شىء ما . والقوة أو الطاقة الجديدة التى ظهرت فى دور البلوغ ، كانت موزعة توزيعاً حسنا من غير اعتراض ، كما يدل على ذلك قلة انغماسه فى أحلام اليقظة[1] .

ولنأخذ حالة أخرى تختلف قليلا عن السابقة :

(م ٢١) امرأة سنها ٢٦ سنة . كان أبواها على قيد الحياة فى دور المراهقة وكان لهائلات إخوة وأخت واحدة . استمرت فى الدراسة الثانوية والجامعة . وكان أهم ما تمضى فيه وقتها فى دور المراهقة هو القراءة . وكانت تنغمس فى أحلام اليقظة كثيرا ، ولنقتطف من كلامها ما يأتى ، وصفا لحالتها عندئذ :

كنت فى دور المراهقة أتخيل نفسى دائما كأم لعائلة . أما هؤلاء الأبناء الخياليون ، فلم أرهم أبدا كأطفال ، بل كصبية وبنات ، يتراوحون بين الحادية عشرة والخامسة عشرة . وكنت أتصورهم فى حاجة إلى معونتى ومساعدتى ، وكانت صورهم واضحة جد الوضوح فى ذهنى ، فمنهم واحد كان قويا بدينا أعرفه جيدا ، وآخر خيالى كأنه منغمس فى أحلام ، والثالث كان شقيا ، ثم بنتان . أما أب تلك العائلة فلم يكن واضحا تمام الوضوح فى مخيلتى ، وكانت صورته تتغير من آونة لأخرى . ولقد انتهت هذه الأحلام حوالى سن التاسعة عشرة أو العشرين أو مابعد ذلك .

---

(١) هذه الحالة والحالتان التاليتان من أبحاث الأستاذة هويلر .

ولقد دلت إجابتها على أنها شعرت باشتداد فى ميولها وحبها للجمال والفن .

أما الدين ، فقد شعرت بتحول بين إليه ، وتقول إنه ساعدها وأعانها فى كثير من النواحى . ومما هو جدير بالملاحظة أنها لم تقع فى حب مع أحد من أفراد الجنس المقابل ، ولم تتخذ لنفسها أصدقاء أثناء مراهقتها .

فيتضح من بحث تلك الحالة ، أن بعض الطرق التى كان يجب أن تسير فيها بعض القوى أو الطاقة الجديدة قد اعترضت ، فلم يتح لتلك الطاقة الجديدة أن تتسرب فى مجراها الطبيعى . وبعبارة أخرى أن بعض الميول لم يسمح لها بأن تصل إلى غايتها ، واعترضت القوة الدافعة خلفها .

قد يتبادر إلى ذهننا أن عدم وقوع تلك الفتاة فى الحب ، وعدم شغفها بالأمور الجمالية أو الاجتماعية (لأنها كما تقول ، لم تتخذ لها أصدقاء فى ذلك الدور) ربما كان راجعاً لعدم وجود الدوافع والميول نحو هذه الأشياء ، لا إلى اعتراضها والوقوف فى سبيل نموها . إلا أن كثرة أحلام اليقظة ، واستمرار انغماسها فيها ، ونوع الخيالات التى كانت تتمثل أمامها ، تدل على وجود تلك الميول (أو الدوافع) ، من غير أن تعطى الفرصة لتنمو وتظهر فى عالم الحقيقة فتحولت إلى عالم الخيال ، وأصبحت تتمثل فى أحلام النهار أو أحلام اليقظة .

غير أن عدم هذا التوازن المشاهد فى تلك الحالة ، كان يخففه اتساع المجال أمام الميول الدينية ، التى أمكنها أن تحافظ على التوازن لحد ما بين الدوافع الذاتية والاجتماعية ، فهى تقول فى إجابتها : (إن الدين كان يساعدها فى نواح كثيرة) .

مثال ثالث — (س ٢١) . امرأة تبلغ من السن ٢١ سنة . كان أبواها على قيد الحياة عند ما كانت فى دور البلوغ . وكانت لها أخت واحدة وإخوة ثلاث . ولقد أتمت دراستها فى مدرسة ثانوية مختلطة الجنسين ، ثم فى الجامعة .

وكانت وسائل تمضية الوقت لديها فى دور المراهقة ، قراءة الروايات ، والمشى منفردة فى نزهات خلوية ، والعزف على البيانو ، وكانت تنغمس فى أحلام اليقظة ، وهذه لا تزال مستمرة لديها إلى وقت إجابتها على تلك

الأسئلة (سن ٢١ سنة) . وكانت تلك الأحلام على نوعين : الأول أحلام عن النبوغ فى عالم الدراسة والأدب ، والثانى عن الحب والزواج من رجل يكون مثلا أعلا ideal . وتقول إن تقديرها للطبيعة زاد كثيراً فى دور المراهقة وإنها تحب أن تظل وحيدة فى كنفها . كما أنها أحبت الشعر ، ولكنها لم تشعر بحماس دينى . وتقول إنها فى دور المراهقة أغرمت باثنين أو ثلاثة من مدرسيها فى المدرسة ، فيما بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة ، كما أنها اتخذت أصدقاء كثيرين ، ولكنها لم تجد أية بطلة من النساء ، أى من نفس جنسها .

يستنتج من تلك الحالة وجود كفاح بين الدوافع الأنانية والدوافع الاجتماعية ، فتلك الفتاة كانت ذات آمال وأطماع فى النبوغ والتفوق فى عالم الدراسة والأدب ، وهذه لابد أن تصرفها عن التفكير فى الزواج والحب ، وما بهما من تضحية ذاتية فى سبيل الحياة الاجتماعية الزوجية . غير أن الميول الجنسية لم تكن مفقودة ، فتترك الميدان خاليا للميول الأنانية ، بل كانت أيضاً يقظة تطلب حظها من التحقيق ، كما يتضح من أحلام اليقظة التى كانت تنغمس فيها .

أما فقدانها الحماس الدينى ، فيمكن تفسيره من طريقين : الأول أن الكفاح الذى كان قائما بين الدوافع الأنانية والدوافع الاجتماعية ، استنفد جزءا من الطاقة التى كان يصح أن تنصرف فى الاتجاه الدينى ، لو سمح لها . الثانى أن اعتناق الفتاة للطبيعة ، والهدوء فى نزهاتها المنفردة الخلوية ، كان بمثابة استعاضة عن ذلك الشعور الدينى ، أو بحث عنه ، كمن يبحث عن شىء مفقود ، ولكنها لم توفق إليه ، ويدلنا على ذلك قولها هى : « لقد كان يؤلمنى عدم شعورى بحماس دينى ، وكم كنت آسف لعدم اشتغالى بتلك المسائل الدينية ، ولا يزال هذا الأمر يشغل بالى حتى الآن » .

وإليك بضعة حالات أخرى تبين الفرق بين نمو المراهقين الذين فوق المتوسط فى الذكاء والذين دون المتوسط .

المثل الأول — فتى رمز إليه بالحرف «ا» كان وقت دراسة حالته ، فى سن الرابعة عشرة ، وهو متفوق فى الذكاء ومتقدم فى المدرسة ، وحالته الجسمية والصحية جيدة ، وعلاقاته الاجتماعية سائرة سيرا حسنا ، لا مشاكل ولا تعقيد فيها . ونسبة ذكاء هذا الفتى ١٥٧ وقد دل عمله فى المدرسة على تفوق فى التاريخ وأدب اللغة والمعلومات العامة ، وقرر معلموه أنه محبوب لدى أقرانه وقد تبين حبه للمطالعة حتى أخذ يكون لنفسه مكتبة خاصة ، كما أنه أغرم بكتابة القصص ونال جائزة فى مسابقة قصصية . ومن هواياته جمع طوابع البريد ، وكان لديه وقت البحث ثلاثة آلاف منها ، كما أنه كان يجمع النقود النادرة ، وكان لديه منها خمسون قطعة . ولقد كان هذا الفتى مغرما كذلك بالألعاب الرياضية ، ومتتبعاً لأخبارها بشغف ، فكان يحب الوقوف على أسماء أبطال الألعاب ، ونتائج المباريات المختلفة . ومع تفوقه فى نواح عديدة فانه كان متواضعا رقيقا فى معاملته . وبالاختصار كانت حياته سعيدة موفقة[١] .

المثل الثانى[٢] — فتاة نرمز إليها بالحرف «ب» سنها ١٤ سنة . كانت متفوقة فى الذكاء ، لدرجة أن نسبة ذكائها بلغت ١٦٨ ، وقررت معلمتها أنها من النوابغ منذ سن التاسعة . وقد أظهرت هذه الفتاة ميلا لدراسة اللغتين اللاتينية والأغريقية ، وكانت جميع نتائجها باهرة . وكانت شخصيتها محبوبة . وتتزعم الأطفال الآخرين ، كما بدت عليها سيماء الجمال . أما غرامها باللعب فعادى ، وتميل بوجه عام إلى الألعاب الهادئة ، وربما كان ذلك راجعا إلى صغر جسمها ولكنها لم تظهر نزعة للانزواء ، أو تحاشى الألعاب التى بها مجال للمنافسة الشديدة . وحياتها الاجتماعية مرضية عادية ، لا تعقيد أو مشاكل فيها ، لأنها

(١و٢) Burks, Jensen & Terman : Genetic Stucies of Genius Vol. III 1930.

لم تتعرض لضغط والديها أو مدرستها . وقد عنيت المدرسة بتغذية ميولها إلى الاطلاع والنشاط .

المثل الثالث — فتاة نرمز إليها بحرف «ح» كانت مائلة الجسم ، وذكاؤها دون المتوسط ، وقررت المدرسة أن سوء سلوكها كان مشكلة صعبة . وذكرت أنها ذات مرة قدمت واجب تلميذة أخرى إلى المعلمة ، مدعية أنه واجبها . كما أنه ذات مرة زورت إمضاء والدها على التقرير المدرسى ، وادعت أنه اطلع عليه وعلى مابه من الدرجات الدالة على رسوبها . ثم إنها بالإضافة إلى كل هذا سرقت نقودا من حقيبة إحدى السيدات . وكان عملها فى المدرسة متأخرا ، فضلا عن كثرة كلامها وشدة تبجحها وقلة طاعتها .

أما أسرتها فكانت فى رخاء ، إلا أن أمها كانت سيدة عصبية ، محبة للسيطرة ، ولاشك أن سوء سلوك ابنتها وتأخرها كان مما يسبب لها حزنا عظيما

من الواضح أن تأخر تلك الفتاة كان نتيجة لقلة ذكائها ، ولم يكن الذنب ذنبها ، لأن أهلها ومعلميها لم يفهموا تلك الحقيقة تمام الفهم ، فلقد حاولت أمها أن تستحثها على العمل والاجتهاد بالضغط والتهكم وإثارة غيرتها من الأطفال الآخرين ، والإقلال من اختلاطها بغيرها ومن أوقات فراغها لتصرف وقتها فى المذاكرة .

وكانت تلك الفتاة تخشى يوم وصول التقارير المدرسية ، لأنها كانت تترتب عليها إهانات جديدة . وتنغيص لحياتها المنزلية . غير أن تلك الفتاة كانت تبدى حبها للطهى ، وكثيرا ما كانت تطهى ألوانا من الطعام تنال إعجاب الأسرة .

ولما درست حالتها ، وأصلحت مواضع الضعف فى حياتها ، تحسنت حالتها بتحسن معاملة أهلها ومعلميها ، إذ اقتنعت أسرتها بقصور ذكائها عن متابعة الدراسة النظرية ، وأدخلت بضعة تعديلات على مواد دراستها ، فأصبحت تشمل الطهى والحياكة ، كما أن أمها سمحت لها بأن تلتحق بأحد الأندية حيث تتمتع بوقت فراغها وتختلط بأقرانها .

الفصل الخامس

تأديب المراهقين

حالات الشواذ والأحداث

قد أفادتنا كثيرا دراسة حالات الأحداث ، أى الصبيان الذين يقعون تحت طائله القانون ، بأن أظهرت لنا الكيفية التى وصلت بها حالة هؤلاء التعساء إلى ماهى عليه . ولقد استنتج العلماء والأطباء كثيرا من القواعد والقوانين عن كيفية حدوث شذوذهم ، وكيفية تحاشيه وعلاجه . ولكن مالا شك فيه أن الوقاية خير من العلاج ، فليس من داع مطلقا لأن ننتظر حتى تسوء حال هؤلاء الصبية ، ويقعون تحت طائلة القانون ، أو تنتابهم الأمراض العصبية ، أو الشذوذ الخلقى ، فيصبحون كرها عنهم ، إما مجرمين ، وإما مرضى عالة على المجتمع . فعلينا إذن أن نتفهم طرق معاملتهم ، وأن نتبع منتهى الحكمة معهم ، لدقة الموقف ولخطورة ذلك الدور ، ولذا فإنا سنبحث ذلك فيما يلى

وإن أول خطوة نحو تفهم حالة هؤلاء الشبان ، هى فهم قدرتهم العقلية على مجابهة مطالب الهيئة الاجتماعية ، وحدودها وقوانينها . ولقد وجد أحد الباحثين ، الذى أجرى بحثه على ١٧٣١ من الأحداث ، أن متوسط عمرهم العقلى ١٤ سنة ، وأن ٦٠٪ من الأحداث ، الذين فحصهم ، تقع نسبة ذكائهم بين ٧٥ و ١١٠ . ولكن لايتطرق إلى ذهننا ، أن نقص الذكاء هو السبب الوحيد فى وقوع الأحداث تحت طائلة القانون ، ومخالفة قواعد الهيئة الاجتماعية ، فهناك أمثالهم عديدون ممن لم يدخلوا فى عداد تلك الطائفة .

غير أن العيوب الجسمية ، والعاهات أيضا ، لها أثرها . ويستدل على ذلك من بعض الأبحاث التى أظهرت ازدياد العيوب والأمراض والعاهات فى الأحداث على نظيرهم من غير الأحداث . ولكن نلفت النظر أيضا ، إلى

أن تلك العاهات والأمراض الجسمية ليست وحدها المسئولة عن شذوذ الأحداث ، بل أحد العوامل العديدة التى تؤدى إليه[١] . وربما كانت تلك العاهات والأمراض سببا فى إضعاف إرادة المرء وفى قلة صبره واحتماله لمطالب العرف والقانون . ويؤيد هذا التعليل ، ماتراه من ازدياد حالات الإجرام فى السنوات الأولى من المراهقة ، حين يجد الفتى نفسه تحت ضغط عوامل جديدة ، عليه مجابهتها ، والاستعداد لها . ومن أمثلة تأثير العاهات الجسمية المثال الآتى لفتى يبلغ الثالثة عشرة ، كان كثير الهرب من المدرسة ، فى السنوات الأربع الأخيرة . وقد لوحظ عليه أنه شرس الخلق ، كثير الاعتداء ، لا يأنس إلى أحد من إخوانه التلاميذ ، حتى قبض عليه البوليس مرة لمهاجمته لسيدة . فلما أحضر إلى المحكمة رفض أن يفتح فاه بكلمة واحدة ، وضاعت أسئلة المحكمة كلها عبثاً ، فأحالته إلى الطبيب لفحصه . ولكن الطبيب أيضا عجز عن إقناعه بفتح فمه لفحصه .

وعلمت الباحثة الاجتماعية من والدة الفتى أنه لاحلق له ، وأن الأطفال كانوا يعاكسونه ويغيظونه لذلك السبب . وعند ما زارت المدرسة علمت من معلمته ضعفه فى القراءة ، ولكنها لاحظت تقدمه فى القراءة الصامتة . وأخيرا نجحت الباحثة الاجتماعية فى إقناعه بأن يسمح للطبيب بفحص حلقه . ولما سألته عن سبب مهاجمته للسيدة ، أجاب إنها تشبه معلمته بالمدرسة . وقد عولج حلقه واستمر فى دراسته بنجاح ، ولم يسمع عنه شذوذ بعد ذلك .

ويجب على كل مهتم بتربية النشء أن يدرك تمام الإدراك أن الفتى والفتاة يخضعان ، إلى حد كبير ، للعوامل النفسية والاجتماعية المنصبة عليها ، ولذا يجب النظر فى تلك العوامل لوقايتهما منها ، والعمل على علاج العوامل النفسية التى يمكن علاجها .

---

(١) A. Christie: "Physical Defects in Adolescent Boys". Journal of Juvenile Research, 18 : 13—22, 1934

ومن أبلغ العوامل أثراً فى نفوس المراهقين ، البيئة المنزلية ، وأثر الوالدين وعليهما أن يذكرا أن كلا من الفتى والفتاة ، الذى كانت آماله ونشاطه محدودا بجدران المنزل ، قد اتسعت آماله الآن ، وأصبحت الحياة الخارجيـة تجذبه ، ولا يكتفى بالبيئة المنزلية الضيقة ، التى لا يعدو أفرادها أعضاء الأسرة . وإن الوالدين اللذين يرغمان بنيهم وبناتهم على الإخلاد إلى الحظيرة العائلية الضيقة ، ويكبحان جماحهم فى ميلهم لاستكشاف ماوراء حـدود المنزل ، يتعسفان ، ويدفعان بهم إلى العصيان أو التستر على علاقاتهم الخارجية . والأفضـل أن يعترف الأبوان بميول بنيهم المشروعة ، وأن يعلما أن اتساع أفقهم العقلى والاجتماعى أمر طبيعى ، لامناص منه ، يجب أن يشجع بدلا من أن يعترض لأنه يعين على النمو العقلى ، ويحفظ الدوافع النفسية فى طرق صريحة مشروعة .

ولا شك أن الفتيان والفتيات عندما يجدون استعداداً من آبائهم ومربيهم للاستماع لرغائبهم وآمالهم يثقون بهم ، ويأتون إليهم للاسترشاد والنصيحة ، بدلا من إخفاء أمورهم عنهم ، والالتجاء للأغراب والخلان .

ولا يغيبن عن الذهن أن تأثير الحظيرة العائلية كبير عن طريق التقليد والاستهواء ، فالفتى والفتاة اللذان ينشآن فى أسرة ينتشر فيها السكر أو الشقاق والضجيج ، فى خطر كبير من أن تنطبع تلك النقائص فى نفوسهـم ، بل قد تصبح مثلا عليا ، ولو بطريقة غير شعورية . وأن اضطراب الحالة الاقتصادية للعائلة عامل لا يستهان به لدفع الناشئين فيها إلى الإجرام ، إذا لم تـكن التربية المنزلية قويمة لحد يدفع عنهم سوء تأثير الحالة الاقتصادية . فالفتى الذى يكون خالى الوفاض ، حين ينفق إخوانه على الحـلوى أو اللعب أو دور السينما ، أو غير ذلك ، قد يندفع فى سبيل الاقتراض ، أو قد يقبـل نقودا من ذوى الأغراض السيئة الذين قد يسيئون إلى أخلاقه وآدابه ، وقد يُستأجرون للأجرام نظير دراهم معدودة .

ولاشك أن الكثيرين من أبناء السبيل فى مصر ، الذين نراهم فى طرقات المدن يبدأون حياتهم الإجرامية بتلك الطريقة ، فإن عائلاتهم الفقيرة ضاقت بإطعامهم ذرعا ، فدفعتهم إلى الشوارع غير مكترثة بما يحدث لهم ، فيكون مصيرهم سوء الخلق أو الإجرام أو كلاهما . ولقد تمكنا من علاج الكثير من حالات السرقة بتقرير مصروف يومى للصبى .

وإن انفصال الأبوين بالطلاق أو غيره لمن العوامل الشديدة الأثر فى الأبناء والبنات ، لأن انصراف الأبوين عن الأطفال لانشغالهما بالشقاق ، ولاضطرابهما العصبى ، وعدم التعاون بينهما ، يؤدى إلى إهمال الأطفال ، فيشقون فى الحياة لأنفسهم كيفما عن لهم ، من غير ناصح أو رادع ، فتسوء حالتهم النفسية والصحية ، وخاصة إذا ما كانت العائلة فقيرة ، وبذا يصبحون قاب قوسين أو أدنى من الإجرام ، حتى يقترفون عملا يقع تحت طائلة القانون من غير علم لهم بما يقره القانون ولا يقره . ولقد عرضت على المؤلف[1] حالة لطفل نرمز له بحرف « ع » من أسرة متوسطة الحال ، ليست فقيرة ، وليست غنية . وقد انفصل الأب عن الأم ، وتزوج غيرها ، وقام الخلاف كالعادة على الطفل ، فتسلمه أبوه ، وتنازلت عنه الأم ، واشتغلت هى فى إحدى الوظائف البسيطة لتكسب أودها . ونذكر هنا أن كلا من الأب والأم حائز لقسط متوسط من التعليم ، وبعبارة أخرى ليس الفقر من العوامل الفعالة ، فى حالة ذلك الصبى . ولم يستطع الطفل الذى يبلغ من السن حوالى الثانية عشرة أن يجد السعادة والهناء فى أحضان امرأة أبيه ، ولم يجد من أبيه العطف والإشراف الكافيين ، فهجر المدرسة وهام فى الطرقات ، ولم يكن أبوه يهتم بالبحث عنه حين تغيب عن المنزل . فأخذ الطفل يتردد على دور السينما يصرف فيها مايصل إلى أيديه من الدراهم ، وجعل يطرق دور الأقارب فى ساعات متأخرة من الليل طلبا للمأوى والغذاء ، كما جعل يتردد على المخابىء العامة طلبا للنوم مع

(١) الإخصائى النفسى لمكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث بالقاهرة .

الجنود المكلفين بحراستها . وقد علمت الأم بتغيبه فأرسلت البوليس فى أثره حتى قبض عليه وأحضره إليها ، فأعطته ما تيسر من النقود وأرسلته إلى أبيه . ولكن الفتى ظل فى سلوكه هائما لا يدرى له مستقرا ، حتى تدخل الباحث الاجتماعى للمكتب وحاول إثارة اهتمام كل من الأبوين ، وإثارة شعورهما بواجبهما نحو ذلك الناشىء ، الذى ضاع فريسة لانفصال الأبوين . وتمكن من إعادة إلحاقه بإحدى المدارس الابتدائية ، مع إقناع الأبوين بالاشتراك فى المصاريف الضرورية للفتى . ولكن ظل كل منهما محتاجا إلى إقناع كثير لإخراج الحزازات الزوجية من نطاق تربية الفتى ، وعدم تضحيته على مذبح الطلاق والنزاع الزوجى . ولقد قام المكتب بتقديم المعونة فى شراء بعض الملابس الضرورية لحفظ كرامة الطفل بين إخوانه فى المدرسة . وكان من نتيجة معونة المكتب فى إصلاح الحالة الاجتماعية للطفل أن نجح نجاحا باهرا فى الامتحان ، وأخذ معلمه المشرف عليه فى المدرسة يعنى به عناية خاصة ، ويهتم به من الناحية الفردية والاجتماعية . ويسرنا أن نقول إن ذلك الطفل قد قبل بالقسم الداخلى بإحدى المدارس الأميرية الثانوية ويسير فى دراسته بنجاح عظيم .

وإن المستوى الاقتصادى للأسرة كذلك شديد الصلة بإجرام الأحداث ، فالأبوان اللذان يضطران لكسب أود الأسرة ، لا يجدان الكثير من الوقت للعناية بأطفالهما ، ولا سيما إذا كانت الأم كثيرة التغيب عن المنزل لاشتغالها بعمل أو لأى سبب آخر . والسبب الاقتصادى من أقوى الأسباب التى تجعل الأحياء الفقيرة منبعاً للمجرمين عامة والأحداث خاصة .

وازدحام المساكن عامل هام فى نشوء الأحـــداث ، نظرا لاختلاط الأطفال ببعضهم ، وتقليدهم واستوائهم البعض للبعض الآخر ، مع صعوبة فصل الأخيار عن الأشقياء ، فضلا عن أن ازدحام الناشئين فى المساكن كثيرا ما يؤدى إلى المشاكل الجنسية .

وكما أن البيئة العائلية لها أثر خطير فى نشوء المجرمين ، نجد كذلك أن الحى الذى تعيش فيه الأسرة ، له أثره الفعال فى أخلاق الناشئين ، لأنهم فى حظيرتهم العائلية لا يعيشون منفصلين عن الجيران أو أبناء الحى .

وإن مسئولية المدرسة فى علاج الأجرام ، ومنع انتشاره لكبيرة ، ففيها تمكن ملاحظة مبادىء الأجرام قبل استفحاله ، كسرقة التلميذ كتب إخوانه ، أو تغيبه عن المدرسة من غير علم المنزل وهكذا . وتستطيع المدرسة بذل النصح والإرشاد واستقصاء أسباب الاعوجاج ، حتى لو احتاج الأمر إلى عرض الطفل على الطبيب أو العيادة السيكولوجية . وإن الأمثلة التى تدل على أهمية المدرسة فى علاج صعوبات الأطفال وشذوذهم لكثيرة ، وقد ذكرنا بعضا منها . وقد حدث مرة أن رسبت فتاة ثلاث مرات متعاقبة فى فرقة واحدة ، مع أن نسبة ذكائها كانت تبلغ التسعين . وقد تبين فى الفحص أن فمها مريض ، وأسنانها معتلة ، وحلقها كذلك فى حاجة إلى العلاج . فلما عولجت هذه الفتاة وتحسنت صحتها ، تحسنت كذلك حالتها الدراسية ، وزاد حبها للمدرسة ، كما زاد نشاطها وحب معلمتها لها ، بعد أن كانت تشكو من سوء سلوكها من قبل .

ونروى هنا مثلا آخر ، من البيئة المصرية ، يبين كيف أن اهتمام ناظر المدرسة ومعلميها باستقصاء مشاكل التلميذ ، بروح العطف والتفهم ، تكشف عن أشياء لا يكشف عنها العقاب والصرامة ، كما توضح ضرورة عناية المدرسة بالحالات الفردية بدلا من النظر إلى التلاميذ فى هيئة كتل أو مجموعات متماسكة تتحرك معاً .

لاحظ ناظر إحدى المدارس الثانوية أن تلميذا معينا (نرمز إليه بالحرف ع) كثير التغيب عن المدرسة ، كما أنه أقدم مرة على سرقة خريطة رسمها تلميذ آخر فى فصله بأن انتزعها من كراسته خلسة وألصقها فى كراسته هو مدعيا أنها له . ولما تعمق الناظر فى بحث الأمر وجد أن غياب التلميذ يتخذ شكلا دوريا معينا فهو يحدث دائما فى أوائل كل شهر ، وعبثا حاول الناظر أن يحصل

من التلميذ على حقيقة أمره ، وأسباب غيابه ، وسرقته للخريطة ، وذلك لما تعود التلاميذ أن يروه حول ناظر المدرسة المصرية من رهبة . فلجأ الناظر إلى طبيب المدرسة ، ورجاه معاونته فى استدراج التلميذ ليقر له بحقيقة الأمر ، فلما نجح فى الوقوف على كنه الأمر ، نظرا لثقة التلميذ أن الطبيب لا يستطيع عقابه على غيابه ، بقيت مشكلة إخبار الناظر بما علم ، نظرا لما وضعه التلميذ فيه من ثقة ، وما وعده به من الكتمان . وأخيرا نجح الطبيب فى إقناعه بأنه لا ضرر من إخبار الناظر ، وطمأنه إلى نتيجة ذلك . وهكذا أمكن لناظر المدرسة أن يكشف عن مأساة اجتماعية دلت على حالة نفسية مليئة بالتضارب ، فى جهود فتى يحاول أن يستمر فى تعليمه ، فى نفس الوقت الذى كان لا يجد القوت الكافى أو العطف الكافى ، أو الارشاد إلى كيفية شق طريقه فى الحياة . وخلاصة حالته أن أباه تزوج غير أمه وتركه يعيش خارج المنزل ، مكتفيا بدفع سبعين قرشاً فى الشهر له ، فى نظير مسكنه ومأكله وملبسه ، فلم يكن من الفتى إلا أن توصل إلى مسكن لدى امرأة تؤجر غرفا رثة حقيرة ، بخمسة قروش فى الشهر ، حتى إذا عجز فى أول كل شهر عن دفع ما عليه لها ، حجزت عنه كتبه ، فاضطر للانقطاع عن المدرسة .

أما سرقته للخريطة فكانت لعجزه عن أداء ما كلف به ، نظرا لتلك الظروف القاسية المحيطة به . عندئذ اتصل الناظر بولى أمر التلميذ ، وبعد محاولات عدة حضر لمقابلته والتشاور معه فى أمر ابنه ، واتفق معه على زيادة المرتب لابنه زيادة طفيفة ، بعد امتناع شديد من الأب . ولقد استطاع الناظر أن يحصل لذلك التلميذ على معونة مادية من بعض الجهات ، ولكن الشاب اضطر أخيرا للانقطاع عن الدراسة والبحث عن عمل يرتزق منه . ولو كان الناظر قد وجد تعاوناً كافياً من ولى أمر الشاب لأعانه على الاستمرار فى الدراسة . هذا المثل يوضح لنا كيف أن اهتمام المدرسة بالحالات الفردية للتلاميذ وبمشاكلهم

الخاصة تفتح أمامها الطريق لإصلاح نواحى اعوجاجهم وحـــل مشاكل لايستطيعون حلها بمفردهم .

هذا بالاختصار استعراض عام ، لبعض العوامل الاجتماعية ، التى تؤدى إلى نشوء الشذوذ أو الإجرام ، فى نفوس المراهقين ، وسنبحث فيما يلى العوامل النفسية التى تؤدى إلى نشوء الأحداث .

قدمنا قبل الآن ، أن دور المراهقة ، يتميز بازدياد النشاط والقوة الحيوية فى نواح خاصة من الفرد ، وأن ذلك النشاط الجديد ، قد يؤدى إلى صعوبة الهيمنة على بعض الغرائز ، فتظهر عنـدئذ بشكلها الطبيعى الأولى ، الذى قد يتنافى فى كثير من الأحيان مع تقاليد المجتمع وقوانينه المرعية . وليست هناك أية فائدة من تجاهل الخطر أو المشكلة بأن ندير ظهرنا ، فإن ذلك قد يؤدى إلى ما يعرف فى علم النفس باسم « الكبت » فإن إرغام الفتى على تجاهل رغبة ما وتناسيها وإخضاعها لقوة الإرادة ، قد يدفعها إلى غياهب اللاشعور ، وهناك الضرر المحقق . ويجب ألا نغتر بالظاهر ، وهو عدم ظهور تلك الرغبة لملاحظتنا الخارجية البسيطة ، إذ أنها تكون فى تلك الحالة فعالة فى الخفاء ، فيكون ضررها على صحة الفتى وحياته الوجدانية أكثر خطرا ، ويجب أن يكون ناموسنا فى تأديب المراهق الإرشاد والنصيحة بدلا من التجاهل والإخماد .

وإن أبحاث الدكتور بيرت على أحداث المجرمين ، معين لا ينضب ، نستفيد منه الشىء الكثير فى معاملتنا للمراهقين ، حتى لا تصل حالهم إلى مثل ما وصلت إليه حال هؤلاء . ولقد درس الدكتور بيرت عددا كبيرا من هؤلاء الأحداث ، من حيث ظروفهم المنزلية ، وتاريخ حياتهم ، وحالتهم الصحية فى الماضى والحاضر ، وذكاؤهم ومواهبهم ، ومواضع ضعفهم وقوتهم الدراسية ، وحالتهم المدرسية ، وأخلاقهم ، والظروف التى أوقعتهم تحت طائلة القانون . وفى بعض الأحيان أضاف إلى بحثه التحليل النفسانى . ولقد خرج من أبحاثه بنتيجة هامة ، وهى أنه تقريبا فى جميع حالات هؤلاء الفتية التعساء ،

الذين أطلق المجتمع عليهم اسم المجرمين من غير حق ، نتجت ظروفهم السيئة من ضعف الهيمنة على واحد أو أكثر من الدوافع الأولية أو الغرائز .

وكما ينتظر ، نجد أن سن عدد كبير من هؤلاء الأحداث ، تقع بين الثانية عشرة والخامسة عشرة ، وهو الوقت الذى تكون فيه حياتهم الوجدانية أقل استقرارا ، ويكون التغير فيها أسرع من غيرها . فتطور الميول الذاتية وازديادها قوة ، واشتداد الميول الجنسية والاجتماعية ، يجعل عوائد الفتى ، التى نما ودرج عليها ، غير صالحة لتلك الحياة الجديدة ، ويوجب تدريبه على حكم تلك الميول الجديدة . ولا شك أن هذا يحتاج إلى وقت قبل أن يصبح ذلك الفتى فردا من أفراد الهيئة الاجتماعية ، مسئولا عارفا لحقوقه وواجباته . إلا أن معرفته لتلك الحقوق والواجبات لا تكفى ، إذا كانت تربيته لم تعوده السيطرة على دوافعه الأولية ، وتعلمه كيف يستخدمها لصالحه وصالح المجتمع ، بدلا من أن تكون شرا عليه ووبالا على المجتمع . ولا يحق لنا بأى حال من الأحوال أن نعتبره مجرما ، ما دامت مقدرته هذه غير كافية ، أو ما دامت عقليته قاصرة عن فهم تلك القوانين الوضعية ، التى ما وضعت فى الحقيقة إلا للرجال البالغين العاقلين ، الذين يعلمون حق العلم ما لهم وما عليهم ، والذين تعودوا بمرور الوقت أن يسيطروا على دوافعهم الأولية .

ويمكن تقسيم حالات الشذوذ إلى قسمين على وجه العموم : فالقسم الأول تدخل تحته تلك الحالات التى قصرت فيها إرادة الشخص عن السيطرة على بعض الدوافع الأولية ، وقد يكون هذا القصور ناتجاً من ظهورها بقوة غير عادية . والقسم الثانى تدخل تحته تلك الحالات التى منع فيها النشاط الجديد من الظهور وكبت ، وبذا أوقف النمو الطبيعى فى ناحية من النواحى .

والحالات التى من النوع الأول كثيرة ، فالفتى الذى يستسلم للمسائل الجنسية ، أو الذى يسلك سلوكا مشينا فى حضرة النساء ، لابد أنه يجد نفسه قاصرا عن السيطرة على الغريزة الجنسية ، التى ازدادت قوة ، حتى أصبحت

وكأنها جديدة . ومن أمثلة ذلك حالة فتاة بحثها الدكتور بيرت ، عمرها ثلاث عشرة سنة ، أتى بها أبواها إليه ، وقالا إنهما قد ضاق ذرعهما بها . وكانت هذه الفتاة تنتمى إلى عائلة طيبة ، غير أنها تبين بالبحث أن كلا من أبويها ذو ميول جنسية حادة . وقالت أمها إن الفتاة مع أنها كانت صادقة غير كذوبة ، مطيعة غير عقوقة ، إلا أنها كانت تتأخر خارج المنزل فى المساء ، وكثيرا ما سمعت أنها تصرف أوقاتها مع الشبان ، وعلى الأخص الشرقيين[1] منهم . ومع كون تلك الفتاة لم تزد عن الثالثة عشرة ، فإن مظهرها الخارجى كان يدل على أنها لا تقل عن السادسة عشرة . أما ذكاؤها فكان فوق المتوسط ، وكانت مشهودا لها بالكفاءة فى أعمالها بوجه عام ، وفوق ذلك كانت لها مواهب خاصة فى الغناء .

هذا ملخص حالة الفتاة كما بحثها الدكتور بيرت ، أما تشخيصه لسبب هذا الشذوذ الجنسى ، فكان ملخصه تجاهل تلك الميول الجنسية القوية ، التى لم تستطع تلك الفتاة احتمالها ، وقلة النصيحة والإرشاد لاختيار أحسن الطرق للسيطرة عليها . أما العلاج فملخصه أن نصح أبويها بأن يسمحوا لها بالالتحاق ببعض النوادى الرياضية ، كنوادى الهوكى والتنس ، وأن تتخذ التمثيل هواية لها ، وغيره من أنواع التسلية الفنية ، وأن يسمح لها فى هذه النوادى بأن تتخذ أصدقاء[2] من الرجال ، وأن يعترف بهم صراحة ، وألا تكون علاقتها بهم سرية ، أو محادثتها معهم خلسة ، كما نصحهم أن يتموا تعليمها ، وأن يزودوها بالمعلومات الكافية عن الأمور الجنسية ، ويمكن لطبيب العائلة أن يزودها بتلك المعلومات . ويظهر أن هذه السياسة الإيجابية الجديدة التى اتخذها نحوها أبواها ، والتى كان ملؤها العطف بدلا من الاحتقار والتأنيب ، كانت ناجحة

---

(١) تلك فتاة انكليزية .

(٢) إن إباحة اختلاط الجنسين عند الأمم الغربية يجعلهم ينظرون إلى ذلك نظرة عادية .

بوجه عام ، إذ لم يسمع بعد ذلك أية شكوى من أبويها ، بل على العكس سمع أنها أصبحت ممثلة يبشر مستقبلها بنجاح ، وأصبحت فى هذا الوقت العائل الوحيد لأسرتها .

أما عن النوع الثانى ، الناتج عن كبت رغبة أو غريزة ، فمن الثابت فى علم النفس ، أننا إذا منعنا ميلا طبيعيا أو غريزة من الظهور ، فإنا لا نفنى هذا الميل أو هذه الغريزة ، بل على العكس قد يبقى كل منهما فعالا فى الخفاء ، يؤثر فى سلوك المرء بطريقة غير مباشرة ، وقد يظهر بطريقة رمزية أثناء النوم فى الأحلام ، أو أثناء النهار فى أحلام اليقظة .

ومن أمثلة ذلك مثال الفتاة الذى قدمناه (صفحة ٦٥) ، وكانت فى دور المراهقة تنغمس انغماسا كبيرا فى أحلام اليقظة ، وبلغ من شدة انغماسها فيها أنها كانت تأتيها بانتظام ، وتعطى لنفسها فرصة الاسترسال فيها ، كأنها حياة أخرى ، تعيشها الفتاة كلما انفردت بنفسها . ولم يكن هناك من عمل أو درس يعكر عليها صفو هذه الأحلام ، ويضطرها للعودة إلى عالم الحقيقة . وقد كتبت عن نفسها بعد أن كبرت تقول ما يأتى[1] : (كنت فى دور المراهقة أتخيل نفسى دائما كائم لعائلة . أما هؤلاء الأبناء الخياليون ، فلم أرهم أبدا كأطفال ، بل كصبية وبنات ، يتراوحون بين الحادية عشرة والخامسة عشرة . وكنت أتصورهم فى حاجة إلى معونتى ومساعدتى ، وكانت صورهم واضحة جد الوضوح فى ذهنى ، فمنهم واحد كان قويا بدينا أعرفه جيدا ، وآخر خيالى كأنه منغمس فى أحلام ، والثالث كان شقيا ، ثم بنتان . أما أب تلك العائلة فلم يكون واضحا تمام الوضوح فى مخيلتى ، وكانت صورته تتغير من آونة لأخرى . ولقد انتهت هذه الأحلام حوالى سن التاسعة عشرة أو العشرين أو مابعد ذلك) . ولقد نتج من البحث كما قدمنا ، أن هذه الفتاة لم تنشغل

---

(١) سبق أن أوردنا عبارتها فى صفحة ٦٥ ونعيدها على سبيل التذكرة هنا .

بالحب أثناء المراهقة ، كما أنها لم تتخذ أصدقاء حميمين . ومما ذكرته عن نفسها أنها كانت تمضى جزءا كبيرا من وقتها فى المطالعة .

هذا مثال يوضح لنا انسداد السبيل فى وجه النشاط الجديد ، وعدم السماح له بالظهور . وقد قلنا إنه يلاحظ مما قالته هذه الفتاة عن نفسها ، إن الميول الجنسية لم تظهر بشكل صريح ، غير أن هذا لا يدلنا مطلقا على انعدامها ، بدليل وجود أحلام اليقظة التى كانت تنغمس فيها بانتظام ، وما كانت هذه الأحلام سوى طريقة غير عادية لظهورها ، تساعد على التنفيس عنها بدلا من كبتها .

وهاك مثلا آخر مشابها لما ذكرنا ، نأتى به هذه المرة من الأحداث . ونلاحظ هنا على سبيل المقارنة أن المثل السابق ، رغم اشتداد أحلام اليقظة فيه ، لم يصطدم عالم الخيال فيه بعالم الحقيقة ، بحيث يصبح الشخص مجرما ، أو مريضا اجتماعيا ، أو شاذ الخلق ، بعكس المثال الآتى ، وهو من أبحاث الدكتور بيرت . وملخصه أن فتاة اسمها نللى مالونى Nellie Malone أتى بها للدكتور بيرت وهى فى سن السادسة عشرة ، وكانت عندئذ تشتغل كخادمة فى منزل ، وكانت متهمة بأنها كثيرا ماسرقت أشياء أهمها المجوهرات والمصاغ من سيدتها . وقيل إنها كانت كذوبة ممعنة فى الكذب إذا ما سئلت عن هذه السرقات . ولكن كذبها لم يكن قاصرا على السرقة ، بل كانت كذلك تنتحل كلاما تأتى به من خيالها الواسع عن مواضيع شتى . وبالبحث والتحليل وجد بيرت أن هذه الفتاة منذ طفولتها كانت كثيرة الانغماس فى سلسلة من أحلام اليقظة ، وفى وقت هذه السرقة كان الحلم الذى يلذ لها أن تنغمس فيه ، يتلخص فى تقدم البرنس أوف ويلز (ولى عهد انجلترا) بالخطبة إليها ، وكان هذا هو السبب فى سرقتها لمجوهرات سيدتها ، إذ كانت تتخيل عند لبسها لتلك المجوهرات أن خطيبها العظيم قد أغدق عليها الهدايا .

ولاشك أن ظروفها المنزلية العائلية كانت أحد الأسباب التى نتجت عنها تلك الحالة السيئة ، فوالدها الذى كانت تحبه فى طفولتها ، اختفى فى يوم من الأيام ، ولم تعرف له مقرا ، ولما سألت أمها عن سبب اختفائه لم تعطها جوابا مقنعا ، مما أوجد فى نفسها كراهية وحقدا عليها . هنا نجد أن عاطفة الحب قد اصطدمت ، وأوصد سبيلها قبل الوقت الذى تطورت فيه إلى الحب الجنسى ، فضلا عن ظهور العداء بينها وبين أمها ، واشتغالها كخادمة بائسة فى بيئة غير ملائمة لها . كل هذه الظروف كانت أكثر مما يمكن للفتاة أن تتحمله ، فاضطرت إزاء ذلك ، رغما عنها وعن غير عمد ، أن تفر من عالم الحقيقة إلى عالم الخيال ، وأن تبنى لنفسها فى أحلام اليقظة ، جنة تنعم فيها بما تحب وتهوى من غير رقيب . فكأن جريمة السرقة التى ارتكبتها هذه الفتاة لم تكن سوى منفس لتلك الانفعالات التى صدمت وأوقف سبيلها . وإن هذا المثال لهام جدا ، إذ يدلنا دلالة واضحة على ما لكبت الميول والانفعالات من الخطر ، كما يبين لنا الأثر السيىء الذى قد تحدثه الظروف المنزلية الشاذة فى انفعالات وعواطف الطفل ، الذى ينمو فى كنفها .

فى المثالين السابقين ، لاحظنا أن الخطب نجم عن الميول الجنسية ، ففى الحالة الأولى ضعفت إرادة الشخص عن الهيمنة عليها ، وفى الحالة الثانية اصطدمت هذه الميول بعالم الحقيقة فكبتت ، فاتخذت لها منفسا غير طبيعى كان هو عين الضرر . ولكن ليس معنى هذا أن الميول الجنسية هى دائما العامل الفعال فى كل شذوذ خلقى ، أو مرض عصبى[1] . فإن الدوافع الذاتية أو « الأنانية » أيضا ، قد تجمح بالشخص فيصعب عليه كبحها ، أو قد تصطدم

---

(١) يخالف هذا الرأى الطبيب النمساوى فرويد فى هذا الرأي ، إذ يعتبر الميل الجنسى المصدر الأول لكل الاضطرابات العصبية ، إلا أن الكثير من علماء النفس لايوافقونه على رأيه من غير قيد ولا شرط .

بما هو أقوى منها ، وتوصد فى سبيلها الطرق فتكبت . وفى كلتا الحالتين يكون الفرد معرضاً لأضرار مشابهة لما ذكرناه فى الحالات السابقة .

فمن الأمثلة التى توضح لنا كيفية التنفيس عن تلك الميول الذاتية مثل فتى نأتى به من الأحداث الذين درسهم الدكتور بيرت . واسمه ستانلى ، كان يبلغ الثانية عشرة من العمر . وكان كثير الهرب من المنزل ، وكثير النوم فى العراء ليلا ، وكان يسرق بعض الفاكهة والحلوى من الباعة ، حتى نشل فى يوم من الأيام ورقة من فئة الخمسة الجنيهات من صندوق عمه . ولما اكتشفت فعلته ، قال : « إنى أريد السفر . لقد سرقتها لأسافر بها إلى الخارج » . وعند البحث تبين أنه ضعيف فى المدرسة ، وأن مدرسه كان يظنه ضعيف العقلية . غير أن اختبارات الذكاء دلت على أنه فوق المتوسط . وهذه نقطة هامة جديرة بالملاحظة ، فوجود مثل هذا الفرق العظيم بين عمله فى المدرسة وذكائه ، يدلنا على أن نشاط هذا الصبى كان منصرفا إلى ناحية أخرى غير العمل الدراسى . كما أن كثرة تجواله وحيداً منفرداً ، دلت على أن هذا الفتى لا يعيش فى عالم واحد ، بل فى عالمين مختلفين . وبالبحث والتدقيق توصل الدكتور بيرت إلى الاكتشاف الآتى ، وهو أن هذا الفتى بدلا من أن يوجه انتباهه ونشاطه نحو عمله الدراسى ، كان على العكس ينغمس فى حلم مستديم ، يتخيل نفسه فيه بطلا يجوب الآفاق ، ويكتشف المجاهل ، على نمط مكتشف أفريقيا العظيم ستانلى ، الذى كان يشبهه فى الاسم . ولما كان عالم الحقيقة الذى يعيش فيه ، لم يمنحه من الفرصة للحرية والمغامرة ما منحه المكتشف العظيم ، فإن هذا الفتى لجأ إلى عالم الخيال ، وتصور أن الباعة فى الطريق ، وأصحاب الحوانيت ، ورجال البوليس ، وأقاربه وأفراد عائلته ، أعداء له ، كما كانت قبائل أفريقيا أعداء للمكتشف ستانلى ، وكان عليه حينئذ أن ينقض عليهم ، وأن يستعمل قوته وحيلته فى التفوق عليهم .

ولقد كانت الظروف المنزلية هنا أيضا من الأسباب التى أدت إلى ذلك الشذوذ ، كما فى حالة نللى مالونى التى سبقت ، فكان الأب والأم من الناس الهادئين ، الوديعى الطباع ، يمضون وقتهم فى المنزل ، لاتخلب لبهم الحياة الخارجيـة وما فيها من مخاطرات ، على النقيض من ولدهما . وكثيرا ما كان الأب يمتدح ولديه الآخرين على مسمع من ستانلى ، ويظهر إعجابه بسلوكهما مما أدى إلى إيجاد العداء بينه وبينهما ، وبالاختصار كان ذلك المنزل بيئة غير ملائمة له . وقد أشار الدكتور بيرت بأن يعطى الفتى فرصة للحرية واللعب فى مكان آخر ، غير ذلك المنزل الهادىء الوديع ، فأرسل إلى مزرعة فى الريف لإكمال تربيته وتعليمه ، فأتم دراسة خمس سنوات فى أقل من ثلاث سنوات . وبعد ذلك دخل مدرسة البحرية مما أدى إلى علاج الشذوذ الذى كان فى أخلاقه وهذا طبعاً نتج عن حسن فهم العلة وحسن وصف العلاج .

ولقد لوحظ أن معظم جرائم البنات ترجع إلى سبب جنسى فى الأصل على الأقل ، إن لم تكن ذات مظهر جنسى فعلا . والمثالان المتقدمان يظهران ذلك بوضوح[1] . والظروف التى تساعد على الإجرام كما قدمنا تكون فى أكثر الأحيان الضعف العقلى ، والشذوذ الجسمى ، والنمو الوجدانى غير المكتمل ، وضعف الإرادة ، وفقد الأبوين ، وجهلهما ، وإدمانهما للشراب ، وفقدان أحد الوالدين أو هجره للعائلة ، وعدم تربيتهما . وليس من الضرورى طبعا أن يؤدى وجود بعض تلك الأسباب أو كلها إلى الإجرام ، ولكنها لوحظت فى غالبية الأحوال التى وقعت تحت طائلة القانون .

ولا شك أن مثل هؤلاء المجرمين الأحداث يدخلون تحت طائلة القانون مع جهلهم به ، وعدم قدرتهم على تحاشى الظروف التى تؤدى بهم إليه . وكانوا فى وقت من الأوقات يعاقبون ، وينظر إليهم بنفس العين التى ينظر بها إلى المجرم البالغ ، أما الآن فإن الكثير من الأمم المتمدينة قد غيرت نظرتها إليهم

(١) مثال الفتاة (م ٢١) ومثال نللى مالونى .

فأنشأت لهم محاكم خاصة تسمى محاكم الأحداث ، كما عهدت بهم إلى قضاة متنورين ، غرضهم فى الحقيقة الإصلاح لا العقاب . وقد اتجهت مصر هذا الاتجاه أيضا .

ويجدر بنا هنا أن نقول إن مثل هؤلاء الأحداث فى حاجة إلى العطف ، فهم أشبه بمرضى يحتاجون إلى العلاج ، لا إلى الاحتقار والعقاب . على أن علاجهم يجب أن يقوم به إخصائيون ، وفى كثير من البلدان يقوم بهذا العمل علماء نفس مدربون . ويأخذ بهذا النظام مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث بالقاهرة .

نخرج من الأمثلة التى أوردناها بنتيجة هامة ، وهى أن المراهقة دور يحتاج فيه كل من الفتى والفتاة إلى معاملة خاصة ، نظرا لظروفه الجديدة التى وجد فيها ، وعماد هذه المعاملة يجب أن يكون العطف عليه ، وفهم رغباته وميوله وطبيعته النفسية . فمثلا الفتى ستانلى الذى ذكرناه ، كان فى الاستطاعة مساعدته وانتشاله من وهدة الإجرام ، لو هيئت له الفرصة لإرضاء حبه للتجوال والمخاطرة ، وهذه الفرصة تسنح فى المعسكرات وحياة الريف والأسفار أثناء الإجازات ونظام الكشافة . كل هذه الأشياء ترضى فيه تلك الميول فى حدود التقاليد والقانون ، تحت إشراف أبويه ومعلميه ، ولا شك أن فى ذلك تربية وتثقيفاً له ، فضلا عن فائدته فى تحاشى ذلك الشذوذ الخلقى الذى ذكرناه .

ومن هنا تتضح لنا فائدة من أهم الفوائد التى تعود على الفتيان من نظام الكشافة ، ذلك النظام الذى يستخدم تلك القوى الحيوية والدوافع القوية التى تملأ الفتيان إقداما ونشاطا . فى تربيتهم ولفائدتهم ، تلك الميول والقوى التى لو تركت وشأنها لدفعتهم إلى الشر بدل الخير ، وإلى طاعة رؤساء العصابات ، وإلى الإجهاز على الضعيف بدلا من نصرته ، والعبث بالقانون بدلا من حمايته .

فالميول والقوى الدافعة ، من الوجهة النفسية ، ليست خيرا ولا شرا ، فالفتى يشعر بنداء من نفسه عليه أن يلبيه ، ولا يدرى أن هناك قوانين تمنعه من تلبية ذاك النداء ، نظرا لما يجره ذلك من وبال على المجتمع ، فهو لم يعرف قوانين الأخلاق بعد ، ولم تتسع خبرته لفهم حالة كل من الضعيف والمظلوم والبائس والمسكين . وفى الحقيقة إن قواعد السلوك ليست إلا مقاييس يضعها المجتمع ، فتختلف من عصر لعصر ، ومن أمة لأمة ، ومن بيئة لبيئة ، تبعا للظروف المحيطة بكل منها . ولا شك أن الإحاطة بها تحتاج إلى دراسة وخبرة وإرادة لم تتوفر بعد لدى المراهق . فالفتى الذى يود إرضاء غريزة المقاتلة ، لا يهمه أن يقاتل فى نصرة الحق ، أو فى نصرة الباطل ، ولكن المجتمع يمجد الذين يقاتلون فى نصرة الحق ، ويذل الذين يقاتلون فى نصرة الباطل ، وهذا أمر لم يتعلمه الناشىء بعد ، فكان لزاما علينا أن نعلمه ذلك ، وأن ندربه عليه ، لا فى حومة المجتمع ، بل فى بيئة صغيرة خالية من التعقيد ، يمكنه أن يتعلم فيها على مهل ، وتعطى له الفرصة لإصلاح أخطائه ، واكتساب الصفات الحميدة التى يمجدها المجتمع الكبير . ولا شك أن نظام الكشافة هو ذلك المجتمع المنشود ، ففيه فرصة للحرية وإظهار ما لدى الفتيان من قوة جسمية أو معنوية كما فيها إرضاء لحب التجوال والمخاطرة ، كما فى المعسكرات والرحلات الشاقة . فالنوم فى الخلاء ، وقيام الفتيان بحراسة أنفسهم ، وتجوالهم فى جهات غير مأمونة ، وارتقاؤهم للجبال العالية ، واجتيازهم للفيافى والقفار ، كل هذه الأشياء على ما بها من مشقة ، لذيذة سارة لإرضائها ميولا طبيعية . وإن لم تعط هذه الميول تلك الفرصة للظهور لاتجهت اتجاهات أخرى ، قد تكون غير مرغوب فيها كما اتضح لنا . فغريزة الاجتماع مثلا إذا لم تجد فرصة فى اجتماع الفتى بأقرانه فى فرقة واحدة ، وانضوائه تحت لواء الفرقة ورئيسها ، قد تدفعه إلى تكوين العصابات التى قد تعمد إلى السرقة ، ومعاكسة البوليس ، أو القتال مع أفراد عصابة أخرى ، لا لغرض سوى

إرضاء بعض الغرائز ، كغريزة المقاتلة وإثبات الذات والاجتماع وغيرها .

ولقد تغير موقف المجتمع والحكومات فى أوروبا وأمريكا ، نظرا لاقتناعها بضرورة علاج الأحداث بدلا من عقابهم فأصبحت المحاكم ترسلهم إلى مدارس خاصة بدلا من الإصلاحيات أو السجون . ولقد بلغ من تغير الموقف فى أمريكا ، أن أصبحت المحاكم تعهد ببعض الأحداث إلى مدارس خاصة ، لا تختلف عن غيرها من المدارس ولا تشبه السجون فى شىء مّا على الإطلاق . ومن أمثلة تلك المدارس المدرسة المسماة « قرية الأطفال » وهى فى ضواحى مدينة نيويورك بأمريكا . وهى تشبه قرية مستقلة ، نظرا لاتساع أرضها وترامى أبنيتها وكثرة الطرقات التى تشق أملاكها . ومما هو جدير بالذكر ، أن تلك المدرسة لا أبواب لها والهرب متيسر لمن يشاء من تلامذتها . فهى بذلك قد خرجت من عداد السجون وألقت على الناشىء مسئولية البقاء فيها ، بدلا من أن يجبر على ذلك بالأبواب المقفلة والحراس الساهرين والحراب المشهورة .

وتلك المدرسة داخلية أى يعيش فيها الأطفال ويتعلمون ، ولكنهم يسمح لهم بقضاء الإجازات فى بيوتهم بين أهلهم وذويهم فهى فى ذلك لا تمت إلى السجون بوجه شبه مّا .

ويسكن الأطفال فى بيوت مستقلة مبعثرة فى أنحاء القرية ، يضم الواحد حوالى الخمسة عشر فتى يعيشون تحت إشراف « أب وأم » . ويقوم الفتيان بأمر المنزل من تنظيف وإعداد موائد الطعام وغير ذلك ، ولهم زعيم منهم ينوب فى الكلام عنهم وغير ذلك .

ويقوم الفتيان بأعمال كثيرة فى النجارة والطلاء وإصلاح الأدوات بدلا من العمال المأجورين ، ويعطون عليها أجرا يدخرونه فيكون فى ذلك تدريب لهم على كسب عيشهم بعرق جبينهم فيما بعد .

والفكرة التى تقوم عليها تلك المدرسة وأمثالها أن التربية والتعليم والعلاج أنجع من العقاب وأن الشخص الذى يعجز عن مسايرة قواعد المجتمع المرعية مريض أحق بالعناية منه بالعقاب .

وإن أهم نصيحة نسديها للآباء والمربين ، الذين يقومون بتربية الفتيان والفتيات ، هى أن يتبسطوا إلى مستواهم ، ويحاولوا فهم الدوافع التى تدفعهم ويهيئوا لهم الفرصة لإرضاء تلك الدوافع ، بالكيفية التى ترضى المجتمع ، وتفيدهم فى حياتهم الحاضرة والمستقبلة . وعليهم أن لا يقفوا فى سبيل ميولهم الذاتية والاجتماعية ، وأن لا يحاولوا تربيتهم بالإكراه والإهانة والإخضاع ، لأن هذا يصطدم مع ميولهم الذاتية . كما أن حبسهم فى المنازل لا يرضى ميولهم الاجتماعية ، فهم فى حاجة إلى الحرية ، ولا نقصد هنا الحرية المطلقة ، بل الحرية المنظمة المفيدة ، التى يشبع فيها الفتى ميوله الذاتية ، عند ما يشعر أن لا رقيب عليه . وميوله الاجتماعية عند ما يجتمع بأقرانه ويعيش معهم عيشة الند للند .

وعلى سبيل التمثيل ، وإيضاح ما لذلك الاجتماع والصداقة من قيمة فى نفس الفتى ، نقتطف الكلمات الآتية من مذكرة فتى ، كتبها وهو فى سن السادسة عشرة ، وقد ضمنها خطابا وجهه لنفسه عند ما يصبح رجلا ، له من الأولاد من هم فى سن السادسة عشرة مثله[1] وهى :

« عزيزى جاك .

أكتب إليك هذا الخطاب لأذكرك بما تكون قد نسيت. لعلك الآن أب لفتى مثلى ، أو فتاة فى السادسة عشرة من العمر . عدت الآن إلى المنزل بعد أن كنت مع صديقى كارل ، وقد رافقنى إلى منزلى فرافقته إلى منزله ، وكثيرا ما يرافق الواحد منا الآخر على هذا النحو فلا تحظر على ابنك

---

(١) ذلك الفتى روسى الأصل .

أن يفعل ذلك أيضا يا جاك . نعم قد يكون بليدا وعمله فى المدرسة غير مرضى ، فيخيل إليك أن تجواله هـــذا مضر به ، ولـكنك مخطىء ، فهو ضرورى ، وهو ممتع . فالصداقة لا غنى عنها .....

ألا فليبعث ذلك الخطاب فى نفسك ذكرى شبابك ، وجولاتك مع بول أولا ، ثم مع بيتروكارل . أتذكر هذا ؟ إذن فاذكر تلك الليالى ، نعم تلك الليالى العزيزة النادرة ، عند ما كانت تفيض نفوسنا بشرا وانشراحا أثناء تجوالنا . لن تعود تلك الليالى . فدع ابنك وابنتك ينتهزان فرصة الاستمتاع بتلك الجولات . اليوم ذهبت مع صديق الحميم كارل فى إحدى جولاتنا ، وتساءلنا عما إذا كنا فى المستقبل سنحظر على أبنائنا التجوال شأن كل الآباء».

وليس التوفيق بين هاتين الطائفتين من الميول الذاتية والاجتماعية بالأمر السهل ، فإن إرضاء الميول الذاتية لشخص ما قد يتعارض مع الميول الذاتية لشخص آخر ، وليست المحاضرات والدروس النظرية فى الأخلاق بمجدية فى منع اعتـداء شخص على حقوق شخص آخر ، وعلى الأخص بين هؤلاء الناشئين ، الذين يرون الحق فى جانبهم مهما كانوا معتدين .

ومن أبدع النظم التى أنشئت للتربية فى دور المراهقة ، تلك التى تمثل مجتمعاً صغيرا ، يكون أفراده هم القائمون بالحكم ، فيضعون القانون ، ويسهرون على تنفيذه ، فيكون المعتدى على القانون فى تلك الحالة ثائرا ضد من وضع القانون ، وهم أقرانه ، فيهبون فى وجهه ، ويرغمونه على احترامه . أما إذا أجبروا كلهم على احترام قانون ليس من وضعهم ، بل منزل من رئيس أكبر منهم سنا ، مهما كان حقا ، فإنهم يعتبرون العقاب الذى يوقع بأحدهم ، عقاباً لهم كلهم ، ويعتبرونه شهيدا ، فلا يزيد هـذا المعتدى إلا استمساكا بجرمه ، واعـتزازا بنفسه ، اعتقادا بأنه بطل ، وأن الجماعة خلفه تؤيده ، فلا يزيد إلا استبسالا .

ومن أمثلة ذلك، المجتمع الصغير الذى بناه المستر هومر لين Homer Lane من أحداث المجرمين فى انجلترا ، حيث جعلهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم . فعند وصول المجرم الصغير إلى ذلك المجتمع ، الذى كان يعيش على مزرعة فى بقعة من أجمل بقاع انجلترا ، كان يجد نفسه حرا طليقا . وكانت أفراد هذا المجتمع تشتغل فى تلك المزرعة ، ويكتسبون قوتهم بعرق جبينهم ، وتدفع لهم أجور كغيرهم من العمال ، ويتحملون المسئولية فى النهوض بمجتمعهم والمحافظة عليه ، فإذا قعد أحدهم عن العمل ، أصبح كلا على غيره منهم ، وصار موضع الاحتقار . وكان عليهم وضع القوانين والسهر على تنفيذها والمحافظة عليها . وكانت نظرية المستر هومر لين التى بنى عليها هذا النظام ، أنه حتى المجرمين إذا منحوا الحرية ، وحملوا المسئولية ، فإنهم يتعودون الهيمنة على غرائزهم ودوافعهم القوية الجامحة ، وبالتدريج يمكنهم أن يستعيدوا الفرصة التى فاتت لتربيتهم .

الفصل السادس

فطام الشباب

تطلق كلمة الفطام فى العادة على منع الطفل عن ثدى أمه ، ولكننا سنستعملها هنا مجازا ، لخروج الفتى المراهق عن سيطرة أسرته النفسية ، وتخفيف القيود التى كانت تربطه بها فى وقت الطفولة . فمما لا شك فيه أن الظروف المنزلية التى كانت تحيط بالطفل ، تصبح غير صالحة له إذا ما بلغ دور المراهقة . كذلك معاملة أبويه له يجب أن تتغير وتصبح ملائمة لعقليته التى تغيرت . وتظهر فى دور المراهقة ظاهرة تدفع كل إنسان إلى ترك الحظيرة العائلية التى نشأ فيها ، ليتخلص من الروابط التى تقيده بها ، وليصبح فردا مستقلا . ولقد أطلق عليها اسم فطام المراهق ، نظرا لما بينها وبين فطام الطفل من الشبه .

وقد يصحب هذه الظاهرة اشتداد فى الانفعالات أحيانا ، أو انحطاط فيها ، كما يحدث غالبا عند ما نحاول كبح جماح عادة استأصلت جذورها ، فأصبح المرء عبدا لها ، وهذا ما يحدث فى فطام الطفل أيضا ، إذ فى الحالتين نجد أن كلا من الطفل والشاب قد تعود عادات تمكنت من نفسه ، وأصبح يستعين بها على ملاءمته للبيئة التى يعيش فيها ، ولا يكون هناك أدنى تضارب ما دامت البيئة باقية على حالها لم تتغير ، وما دامت نفسيته وعقليته اللتان أملتا عليه تلك العادات باقيتين لم تتغيرا . أما إذا تغيرتا ، وأصبحتا تتطلبان بيئة جديدة ، وجوا جديدا ، فإن العادات القديمة يجب أن يتخلص منها الفرد . غير أن هذا ليس بالأمر السهل ، لأن العادة إذا استأصلت جذورها فى نفس الإنسان ، صعب عليه التخلص منها ، وكلما حاول إبطالها تاقت نفسه للرجوع إليها . وهذا هو السبب فى اشتداد الانفعالات أو هبوطها .

ويزيد المسألة تعقدا أن عادات الأبوين ومن يحيط بالفتى يجب أيضا أن تتغير فيما يختص به ، فإن هؤلاء قد تعودوا أن يخاطبوه بلهجة خاصة ، وأن يعاملوه معاملة خاصة ، كانت لحد ما صالحة للدور الذى كان فيه . أما وقد انقضى هذا الدور ، فإن عادات هؤلاء كلهم يجب أن تتغير تغيرا يناسب الظروف الجديدة ، وإلا كانوا عقبة فى سبيل نموه النفسى الطبيعى . وهذا فعلا ما يحدث فى كثير من الأحيان ، أى أن هؤلاء كثيرا ما يكونون مصدر تعب وآلام نفسية عظيمة للمراهق ، نظرا لجهلهم بتلك الحقيقة ، وبالحقائق الأخرى التى ذكرناها فى غير هذا المكان . وهذا هو السبب فى أن دور فطام الشاب يكون مصحوبا بآلام ومتاعب نفسية ، كما حدث عند فطامه من ثدى أمه وهو طفل .

ولقد دلت أبحاث[1] بعض العلماء على أن النزاع الذى ينشأ بين المراهقين ووالديهم ، كثيرا ما يسبب آلاما ومشاكل نفسية عميقة فى حياة المراهقين . وقد دلت بعض الأبحاث على أن السبب الأول فى النزاع ، يرجع إلى الخلاف بين المراهقين والوالدين على مسائل مختلفة فى مثل وجوب خضوع المراهقين لرأى الوالدين فيما يختص بمظهرهم الشخصى ، وملابسهم ، وآدابهم ، وغير ذلك . ويبدأ الخلاف فى أوائل دور المراهقة من ثورة المراهقين على التقاليد ورفضهم الطاعة من غير سبب يقتنعون به .

ومن أسباب النزاع بين المراهقين ووالديهم ، تأخرهم فى العودة إلى المنزل مساء عن المواعيد التى يقررها الوالدان ، فى حين أنهما فى كثير من الأحيان لا يدركون مقدار التغير فى شخصية أبنائهم وبناتهم ، ويرغمونهم على البقاء فى المنزل فى حين يتوقون إلى الاستقلال والحرية ، وقد يغالى المراهقون كذلك فى نزعتهم الاستقلالية ، غير مدركين قلة خبرتهم ، والأخطار الاجتماعية

---

(١) Virginia Block: "Conflicts of Adolescen with their Mothers", Journal of Abnormal & Social Psychology, 1937, 32, pp. 192—206.

والمادية التى قد يتعرضون لها ، إذا منحت لهم الحرية الكاملة دفعة واحدة .

وكثيرا ما تكون المتاعب النفسية التى يصادفها المراهقون ، وما يصحبها من انفعالات ، سببا فى نموهم نموا غير طبيعى ، وإحداث شذوذ فى أخلاقهم ، قد يظل معهم ردحا كبيرا من حياتهم ، ولذا كانت مسألة فطام الشباب من أهم المسائل الحيوية ، التى يجب أن يعلم بها جميع الآباء والمربين .

وليس المقصود بفطام الشباب ، خروجهم من منزل الأسرة ، وابتعادهم عن أهلهم ووطنهم ، فإن كثيرين قد مروا بدور الفطام هذا ، وهم مع عائلتهم تحت سقف واحد ، كما أن هناك كثيرين لم يستطيعوا التحرر من القيود العائلية ، مع بعدهم كل البعد عن الحظيرة العائلية ، إذ لم تتخلص نفوسهم من تلك القيود التى كانت تربطهم بها ، والطاعة العمياء التى كانوا يفرضونها على أنفسهم ، فهؤلاء مهما بعدوا ، ينتظرون من كل من يحيط بهم العطف والرحمة والعناية التى كانوا يستمدونها من الحظيرة العائلية .

كما أننا ، فى الوقت نفسه ، لا نعنى بلفظة الفطام خروج الشاب عن طاعة والديه ، والتبجح فى حضرتهما ، وعدم احترامهما ، أو العناية بهما ، فإن هذه النقائص قد تظهر أيضا بأقبح شكل فى كثيرين ممن لم يفطموا . نعم إن سلوكهم وأفعالهم تشبه تماما أفعال الأطفال ، غير أن هذا لا يستلزم تخلصهم من الرابطة النفسية التى تشد وثاقهم ، وتمنعهم التصرف الحر المستقل .

أما الانفصال الذى ننشده ، فهو التحرر السيكولوجى أو النفسى ، لا الانفصال الجسمى ، وهو تحرير عواطف الشاب وانفعالاته من سيطرة أبويه النفسية ، حتى لا تقف هذه السيطرة فى سبيل نموه الطبيعى ، وفى اختياره للطريق الذى سيسلكه فى الحياة كفرد بالغ عاقل .

فالواجب أن لا يتجاوز الفتى سن العشرين إلا ويكون قد تحرر من ربق الحظيرة العائلية ، كما أن عادات الطفولة يجب أن تكون قد كسرت قيودها وظهرت فى نفس الشاب علائم الاستقلال ، وشعور الثقة بالنفس ، والقوة

على مواجهة صدمات الحياة ، من غير حنين إلى حماية الوالدين وعطفهما . فإذا لم تظهر هذه البوادر ، وجب علينا أن نعلم أن هذا الفرد لم يفطم ، وأنه لم يتم النمو الطبيعى ، الواجب لكل فرد .

ولقد وضع أحد العلماء[١] ، اختبارا لمعرفة مدى فطام المراهقين . وتبين بتطبيقه أن مظاهر عدم الفطام ، هى كثرة طلب الناشىء للنصيحة والمعونة من الغير ، لعجزه عن الاعتماد على نفسه ، نظرا لأن والديه كانا دائما يمدانه بالنصح والمعونة ، فلم يقو بذلك على مواجهة مشاكل الحياة مستقلا . وتجد مثل ذلك الناشىء كثير السؤال لمعلمه عن معانى الكلمات والارشادات ، وكثير الطلب لشرح المطلوب منه ، بدلا من الاعتماد على نفسه فى ذلك . ومن علامات عدم الفطام أيضا الحنين الشديد إلى الحظيرة العائلية ، إذا ما اضطر الناشىء إلى مفارقتها . وقد يشتد به ذلك الحنين إلى درجة فقد الشهية والأرق . وقد يعجز مثل هذا الشخص عن كسب ثقة رؤسائه أو معلميه لأنه ينتظر منهم الحنو والموالاة ، اللذين كان يجدهما من والديه . ونعرض هنا وصفا لشاب ، لم يكتمل فطامه : كان هذا الشاب بأحد معسكرات الشباب ، وعمره ١٩ سنة . وقد لحظ عليه إخوانه ورؤساؤه شدة شغفه واستقصائه للتفاصيل بكثرة الأسئلة والاسترشاد ، فعزى ذلك فى أول الأمر ، إلى أنه مبتدئ قليل الخبرة . ولكن مرت الأيام ، وأسئلته تكثر ، بدلا من أن تقل ، ولم يستطع إنجاز عمل ما ، من غير استشارة غيره ، من معلمى المعسكر ، حتى فى أصغر الأمور وأبسطها ، فضج الجميع من تعدد أسئلته ومضايقته . عندئذ بدأ الجميع يلاحظون أيضا ، أن سلوكه لم يزل يشبه سلوك الطفولة ، ولم يبد منه ما يدل على رغبته فى الاضطلاع بعمل ما . وقد تبين من الحديث معه سبب ذلك النقص فى نموه ، إذ كان أبواه شديدى السيطرة

---

(١) Dimock : Rediscovering the Adolescent.

على نفسه ، فقد رسما له كل تفاصيل حياته ، ولم يتركا له مجالا للتجريب ، وللاضطلاع بالمسئولية ، سواء أكان ذلك فى دراسته ومذاكرته ، أم فى اختيار أصحابه وأوقات خروجه معهم ، إلى غير ذلك . وكانت أمه ترافقه لشراء ملابسه ، حتى هذه السن ، فلم يكن بمستغرب عندئذ ، أن ارتبك ذلك الشاب ، ولم يستطع التصرف من تلقاء نفسه ، حين وجد نفسه فى ذلك المعسكر وعليه إنجاز أمور عديدة ، والتصرف فيها على مسئوليته الخاصة .

ومن أمثلة عدم الفطام أيضا ، فتاة مات والداها ، فقامت أختها بتربيتها ، وكانت أختها تعنى بها ، وتحنو عليها بدرجة شديدة ، حتى أنها لم تترك لها مجالا للاعتماد على نفسها ، بل كانت تعينها فى الملبس والمأكل . ثم كانت تشرف على علاقاتها مع أصدقائها لما كبرت ، حتى إذا ما تزوجت الأخت الصغيرة ظلت تعتمد على معونة أختها الكبرى ، وتطلب منها النصح والإرشاد ، لعجزها عن الاستقلال الفكرى ، والانفصال النفسى عن أختها ، وانتهى الأمر بأن انتقلت إلى بلد قريب ، حيث اتخذت مسكنها الزوجى ، وجعلت الأختان تتحادثان بالتليفون البعيد المدى يوميا ، كما كانتا تلتقيان مرة كل أسبوع ، وانتهى الأمر بأن فشلت حياة الأخت الصغيرة الزوجية ، لكثرة تدخل أختها الكبيرة ، ولعدم نموها النمو الطبيعى السيكولوجى الكامل .

ومن المعلوم أنه كلما زاد العالم مدنية ، أصبحت المشاكل التى تواجه الشباب أكثر صعوبة وتعقيدا . فى الأدوار الأولى للمجتمعات البشرية ، كانت مشاكل الحياة محدودة معلومة ، ولم تكن لتحتاج إلا إلى مران قليل ، وكان أهم هذه المشاكل الحرب والصيد ، وهذه كان يتعلمها الشاب بمجرد بلوغه دور المراهقة . ولكن بتطور المدنية زادت الحاجيات الإنسانية ، كما ازدادت الكماليات ، واستحوذت على نفس الإنسان ، حتى أصبحت من الضروريات . وبهذه الطريقة ازدادت ضروريات الحياة ، فازدادت مشقة الحصول عليها . وهكذا أصبحت المشاكل التى تواجه الشباب أكثر عددا ، وأصعب حلا ،

وهذا يقضى بالطبع تزويدهم بسلاح ماض من التربية القويمة ، لا من الوجهة الجسمية فقط ، بل من الوجهة النفسية والخلقية أيضا . هذه التربية لا تكون صالحة إذا لم تعدّ الفتى للدخول فى مضمار الحياة ، وهذا لا يكون إلا بتعويده الاعتماد على النفس ، والاستقلال فى الرأى ، والجلد فى مواجهة الصعاب . فكل أب أو أم يستبقى الفتى فى أحضانه أكثر مما يجب ، ويمنعه بذلك من استقلال عواطفه وانفعالاته ، يجنى عليه جناية كبيرة ، ويعرقل نموه الطبيعى ، ويجعله عاجزا عن الوقوف على قدميه إذا ما انتزع من هذه الأحضان[1] .

غير أن الكثيرين من الآباء والأمهات يقعون فى هذا الخطأ ، بدافع الحب لذاتهم ، وتفضيل مصلحتهم الذاتية على مصلحة ابنهم ، غير عالمين أن الحنو والعطف الذى يبذلونه لذلك الفتى المسكين ، إن هو إلا مخدرا وقتيا ، يجد فيه الفتى لذة وقتية ، حتى إذا ما أراد النهوض لم يستطع ، وأصبح يطالب بذلك المخدر ، فراراً من مواجهة الحياة . هذا هو مثل ذلك الفتى تماما ، فإنه إذا تعود ذلك الحنو والقول المعسول استعذبهما ، وظن أن الحياة كلها كذلك ، فإذا ماقست عليه الظروف ، لم يهب لمواجهتها ، والتغلب عليها ، بل أندهش ، وطفق شاكياً باكياً ، ينـدب حظه ، ويطلب الرجوع إلى أحضان أبويه ، ليحمياه من قسوه الحياة . هذا الفتى الذى تظهر عليه تلك الأعراض مريض نفسيا ، والمسئول عن مرضه أبواه ، أو من سهروا على تربيته ، وعلى الأخص فى دور الطفولة ، حيث يكون الطفل سهل الانقياد ، سريع التشكل ، قليل المعارضة .

قد يتساءل القارئ هنا عن الكيفية التى يمكن بها أن يتحاشى الآباء والمربون تلك العواقب الوخيمة التى ذكرناها ، والجواب على ذلك أنه من واجب هؤلاء أن يتزودوا أولا بالحقائق السيكولوجية عن نمو الفتى فى هذا

---

(١) وما ينطبق على الفتى هنا ينطبق على الفتاة أيضا .

الدور ، وأن يتيقظوا لملاحظة كل الأعراض التى تبدو على أبنائهم وبناتهم ، وأن يحاولوا تقدير المسئولية التى تقع عليهم .

وأولى الحقائق التى يجب عليهم العلم بها ، أن نمو الطفل تدريجى ، حتى إن العادات التى نتعودها نحوه تثبت ، إذا أخذت وقتا كافيا لتاصل جذورها . فإذا لم يكن الأب والأم منتبهين لتلك الحقيقة ، جاء وقت ، تصبح فيه معاملتهما وآراؤهما ، نحو طفلهما ، غير صالحة له ، اللهم إلا إذا استمرا يغيران ويبدلان فى موقفهما وآرائهما ، بتغير شخصيته وآرائه هو . فإذا لم يفعلا ذلك ، وقفا حجر عثرة فى سبيل نموه النفسى ، وفى سبيل تحرير نفسه من ربق الرابطة العائلية .

ولكن ليعلم الآباء والأمهات أن المراهقين ، مع حاجتهم إلى الحرية والاستقلال الفكرى والسيكولوجى ، يجب أن لا يمنح لهم ذلك الاستقلال طفرة ، بل يجب أن يكون تدريجيا ، متمشيا مع نموهم العقلى والنفسى ، وأن يكون ذلك الاستقلال تحت الإشراف فى أول الأمر ، حتى إذا وجد من الفتى والفتاة القدرة على الاستقلال والاعتماد على النفس حملا المسئولية قدر المستطاع .

وتشمل تلك الحرية أو الاستقلال مسائل كثيرة ، منها مثلا حرية التصرف فى المصروف الذى يعطى للفتى أو الفتاة ، أو الذى يكتسبانه ، ويجب أن تكون تلك الحرية تدريجية أيضا ، وتزداد كلما وجد الوالدان أن الناشىء لا يسىء التصرف ، إذ ما ألقى حبله على غاربه . وقد صادف المؤلف فتاة يهودية فى أمريكا ، لا يسمح لها أهلها بالتصرف فى مليم واحد من مكسبها بكد جبينها ، رغم أنها بلغت العشرين من العمر ، وكل ما تكتسبه يضعه أبوها فى البنك ، ويحتفظ بالدفتر معه ، ولا يعطيها أكثر من مصروف يدها اليومى الذى لا يكاد يكفى لشراء القليل من الحلوى ، كما كانت فى طفولتها . ومع أن تلك الفتاة كثيراً ما شكت من ضغط والديها ، ومن معاملتهم لها معاملة الطفولة ، إلا أن سلوكها كان يدل دلالة واضحة على أنها لم تصل بعد إلى درجة الفطام ، أى الاستقلال

الفكرى والسيكولوجى ، إذ كانت قليلة الثقة بنفسها ، ضعيفة الإرادة ، كثيرة التردد فى أخذ أى طريق تسلك فى المسائل التى تواجهها .

ومن الأمور التى يحتاج المراهقون للاستقلال فيها أيضا ، اختيار المعارف والأصدقاء . وذلك أمر شديد الخطورة بالنسبة للناشئين ، فيجب أن يكون الوالدان على ثقة من حسن اختيارهم لأصدقائهم ، من غير أن يشرفوا إشرافا تاما ، على كل حركاتهم وسكناتهم ، فلا فائدة من السماح لهم بالاختلاط بمن لا يوثق بهم ، ثم الهيمنة على كل صغيرة وكبيرة فى حياتهم ، والعكس أولى بأن يتبع .

ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن القليل من الآباء والمربين يعلمون ذلك ، وإذا علموا به فإن القليل منهم من يحاول تطبيقه ، إما لجهله بوجوبه ، وإما لعدم معرفته الطريق التى يجب أن يسلكها . ويجب أن لا يدهشنا هذا ، إذا علمنا أن بعض الآباء يتضجرون من كثرة التغيير والتبديل فى ملابس الفتيان فى دور المراهقة ، نظرا لنموهم الجسمانى السريع ، حتى ليخيل للناظر أن ذلك الأب لا يعلم أن الفتى لابد أن ينمو ، وكأنه إذا علم ذلك ، يحاول أن يقف فى سبيل ذلك النمو . فكثيراً مايرى الإنسان أباً يحاول أن يضغط قدم ابنه ليدخلها فى الحذاء ، بينما تلك القدم قد نمت بسرعة لم تعط الفتى المسكين فرصة لاستهلاك ذلك الحذاء ، فإذا كان هذا موقف الوالدين تجاه الفتى فى مسأله النمو الجسمانى ، وهو ظاهر واضح للعيان ، فهل نعجب إذن من موقفهما حيال النمو النفسى ؟ لقد تعود الآباء أن يلبسوا أبناءهم ثيابا وأحذية بحجم خاص ، ويعجبون إذا أتى وقت أصبح ذلك الحجم غير ملائم لهم ، وذلك العجب يرجع لأثر العادة ، فهم قد تعودوا أن يشتروا تلك الملابس بمقياس خاص وبثمن خاص ، وفى كثير من الأحيان من مكان خاص أيضا ، فإذا وجدوا أن ذلك المقياس لم يعد صالحا أبدوا اندهاشا ، ولو فى أول الأمر ، وحاولوا أن يضغطوا على أولادهم ، محاولين إرغامهم على قبولها ، حتى إذا فهموا حقيقة الموقف ، حاولوا

التغيير فى العادة التى ثبتت ، وأصبح من الصعب التغيير والتبديل فيها . كذلك فى المسائل النفسية ، نجد أن تغيير عادات الأبوين وموقفهما تجاه ابنهما الناشىء أو ابنتهما الناشئة ، من الصعوبة بمكان ، فهما قد تعودا مخاطبتهما بلهجة الازدراء أو التهكم أو السخرية ، من جهلهما وضعفهما وقلة إدراكهما لما يحيط بهما ، فما أشد اندهاشهما عند مايجدانهما غاضبين من هذه اللهجة ، محاولين نفى فكرة الجهل عنهما ، وإثبات علمهما بما يتهمان بأنهما جاهلان به . وقد يحاول البعض عقابهما على ذلك ، متهمينهما بسوء الأدب وبعدم الطاعة ، غير عالمين أن الوقت قد تبدل ، وأن فتى اليوم غير طفل الأمس ، وأن هذه الظاهرة نتيجة لنمو طبيعى ، يجب أن لانعرقل سيره أو نخمده .

إن أساس تربيـــة المراهق يوضع عادة أثناء الطفولة ، ففى ذلك الدور (دور الطفولة) ، تبدأ عادات خاصة فى التكون ، فإذا تعود الطفل الاعتماد على النفس ومواجهة الصعاب عندئذ ، استمرت معه تلك العادات فى دور المراهقة ، وأمكنه أن يقف على قدميه إذا مافارق أهله وعشيرته عند ما يكبر ، أما إذا عامله أبواه فى نعومة أظفاره كأنه ملك لهم بحنوهم الشديد عليه ، فإنه يجد صعوبة عند فراقهم فيما بعد . ويختلف الأفراد فى قدرة تغلبهم على ذلك ، نظرا لاختلاف التربية . فالملاحظ أن الكثيرين من الآباء والأمهات يستعملون ألفاظ الطفولة والتدليل مع بنيهم إلى دور متأخر ، ولا يكلفونهم بأداء حاجاتهم الشخصية ، كغسل الوجه مثلا والنوم منفردين ، ويقبلونهم قبل الذهاب إلى المدرسة ، إلى غير ذلك من علامات المحبـــة ، التى إذا استمرت طويلا كانت عاقبتها وخيمة على ذلك الرجل الصغير .

قد يسألنا البعض عن كيفية تعويد الطفل الاعتماد على النفس ، مع أنه لا يزال فى نعومة أظفاره ، قليل الخبرة بالحياة . وجوابنا على ذلك أننا لانريد أن نحرم الطفل من معونة أبويه وحنانهما ، وإنما نقصد أن نمنع عنه المعونة إذا كان فى استطاعته أن يستغنى عنها . فمثلا إذا استطاع أن يمسك الخبز

بأصابعه ، فلا داعى لأن نلقمه الخبز فى فمه ، كما تفعل بعض الأمهات . وإذا كان يستطيع أن يمسك كوبة اللبن ، فلاداعى لأن نعطيه الثدى الصناعى يمتص منه غذاءه ، وإذا كان يستطيع أن يمشى على قدميه فالواجب أن لا نكلف الخدم بحمله . نعم إنه سيغضب فى أول الأمر ويصرخ طالبا أن يعامل كما لو كان صغيرا ، ولكن إذا لم يجب إلى طلبه وأرغم على المشى ، فإنه لا يطلب أن يحمل ما دامت قدماه سليمتين . وهناك أمثلة عديدة لهذا التدليل ، وهى لا تخفى على القارئ إذا ما انتبه لملاحظتها . فهو لابد قد رأى مثلا أما لا تستطيع الخروج من المنزل إلا ومعها طفلها ، مع أنه قد يكون فى سن السادسة أو السابعة ، لأنه إذا رآها خارجة بدونه صرخ طالبا اللحاق بها ، وما دامت لا تستطيع الصبر على صراخه ، فإنه لن يأتى يوم يسمح لها بالخروج فيه من غيره ، إذ أن هذه العادة إذا تكونت صعب التخلص منها .

قد لا يتضح ضرر ذلك أثناء الطفولة ، ولكن لتعلم هؤلاء الأمهات أن هؤلاء الأطفال سيواجهون صعاباً جمة ، إذا ما اجتازوا دور المراهقة . فإن هذه السياسة المتبعة معهم لا تعودهم الاعتماد على النفس ، عند ما تضطرهم الظروف إلى ذلك . فإن الظروف التى تحتاج للاعتماد على النفس قليلا ما تصادفهم أثناء الطفولة ، لأن الأبوين فى العادة قريبان منهم ، يمدونهم بالمعونة قبل أن يحتاجوا إليها ، ولكن هل من الممكن أن يظل الأبوان بجانب الطفل طول حياته ، وأن يشتركا معه فى تذليل جميع الصعاب التى تصادفه فى معترك الحياة ؟ الجواب طبعا بالنفى . فالطفل الذى بلغ السابعة من عمره ولا يستطيع أن يلبس ملابسه ، أو يتناول الغذاء بيديه ، أو الذى يخاف النوم وحده فى الليل ، لاشك أن تربيته ناقصة ، ونموه السيكولوجى غير تام ، ولابد أن هذا النقص ستظهر عواقبه بعد المراهقة .

وإن صعوبة التخلص من عادات الطفولة والتدليل لتكون أعظم مع الأطفال الذين ليس لأبويهم غيرهم ، وكذلك مع ضعاف البنية والبنات .

وأكبر عامل فى ضعف تربية مثل هؤلاء الأطفال الذين ذكرنا أمثلتهم فى العادة هو الأم ، فهى فى العادة أشد حنوا ، وأضعف على احتمال فراق طفلها ، حتى بعد أن ينمو ويترك دور الطفولة ، وبعد أن يصبح فى غير حاجة لمساعدتها . أما الأب فيندر أن يكون سبباً فى ذلك ، نظراً لشئ من الشدة فى أخلاق الرجال . ولنحاول الآن أن نعلل ماسبق من الوجهة السيكولوجية .

من المعلوم أن أهم عمل للأم هو الإتيان بالأطفال إلى تلك الحياة ، وتربيتهم فيها ، وهى تشعر بذلك ، سواء كانت تعلمه بشكل صريح ، أو تشعر بالدافع فقط فى نفسها من غير أن تعلم له سببا . هذه هى وظيفتها الطبيعية فى الدنيا ، والغاية التى ترمى إليها . ويظهر أن بعض الأمهات يملن للاحتفاظ بوظيفتهن الطبيعية أطول مما يجب ، فيصعب عليهن أن يتركن ما يعتبرنه عملهن الطبيعى ، وغايتهن فى الحياة ، فيملن إلى التشبث بأطفالهن ، والاحتفاظ بهم وقتاً أطول من الواجب ، عملا بالدافع الغريزى ، وضعفاً منهن عن تحمل فراق أبنائهن الذين حملنهم فى بطونهن ، والذين سهرن الليالى الطوال على تربيتهم ، كالفنان الذى يصرف الوقت والجهد فى إنتاج تحفة فنية ، فيعز عليه بعد ذلك أن يبيعها بثمن بخس . هذا ما يحدث تماما للأم ، فتمسك بتلابيب أطفالها ، وترفض أن تدعهم يذهبون بعيدا عنها ، سواء علمت بالنتائج الوخيمة التى تترتب على ذلك أم لم تعلم . وهذا يكون أشد فى حالة أصغر أطفالها . وقد لوحظ أن كثيراً من الأمهات يرفضن زواج ابنتهن الصغرى خوفا من فراقها أو يشترطن بقاءها معهن حتى بعد الزواج[1] .

ونصادف فى الحياة اليومية أمثلة كثيرة للضعف السيكولوجى الناجم عن موقف الأم هذا ، إذ أنه فى الحالات القصوى ، يحدث تغييرا فى خلق الأبناء ، ويجعلهم غير كاملى النمو من الوجهة السيكولوجية ، أو كما يسمون فى العادة

---

(١) قد يعلق الآباء أيضا بأبنائهم فتنجم نفس تلك النتائج الوخيمة .

شاذين . ومن أمثلة ذلك فتى فى سن التاسعة عشرة ، كان شديد الحنين إلى أهله وعشيرته ، حتى أصبح ذلك سبباً فى تعطيل دراسته وملخص حالته ، أنه ذهب إلى المدرسة الابتدائية فى طفولته كالعادة ، فى بلدته الصغيرة التى نشأ فيها . وكان ناجحا فى عمله ، حتى أتم دراسته فى تلك المدرسة . فلما بلغ سن الرابعة عشرة ، أرسله أبوه إلى مدرسة أخرى أرقى من الأولى ، فى بلدة أخرى ، تمهيداً لإرساله بعد ذلك إلى الجامعة . ولكنه لم يستطع أن يمكث بعيدا عن عائلته أكثر من أسبوعين ، كان فى أثنائهما كثير البكاء ، وامتنع عن الطعام ، ولم يستطع الانتباه للدرس ، وألح بكل قوته فى أن يعاد إلى أهله . ولما علمت أمه بذلك صممت على استدعائه ، وأرسلته إلى مدرسة فى بلدته الأصلية ، حتى نال شهادته منها . وكانت الأم فى ذلك على خلاف مع الأب ، الذى كان يرى أن يرغم الفتى على الاستمرار فى المدرسة الأخرى ، وأن لا يلتفت إلى صراخه وعويله . وقد تجددت المشكلة ثانية ، عند ما أتم الفتى دراسته فى بلدته ، وأرسل بعيدا عنها إلى الجامعة ، وكان عندئذ فى سن الثامنة عشرة ، فساءت حاله ، واعتلت صحته ، حتى انخفض وزنه عشرة أرطال مرة واحدة ، ولم يجد لذة فى الاختلاط بأقرانه ، ولم يستطع المذاكرة ، وقضى معظم وقته فى البكاء والنحيب ، وكثيرا ما شكا إلى أهله سوء التغذية بسبب اعتلال عملية الهضم عنده . وأكثر من هذا أنه بدأ يشكو من ضعف فى قلبه ، وسرعان ماظهرت عليه أعراض المرض ، حتى اضطر الطبيب لإرساله إلى أهله ، حيث قابلته أمه بالحنو والرضى المعتاد ، وسهرت على راحته وقضاء رغبته ، بنفس الاهتمام والمعزة ، اللذين كانت تظهرهما له أثناء طفولته ، وأذاعت أنه ضعيف البنية ، لا يحتمل عناء الدراسة الجامعية . ولكن الطبيب شهد بأن الفتى فى صحة جيدة ، فأصر والده على إرساله إلى الجامعة ثانية ، غير أنه تساهل فى هذه المرة فأرسله إلى جامعة قريبة من مسقط رأسه ، فعادت الشكوى ، فكان يكتب إلى أهله يشكو من قذارة عنابر النوم ، ومن شدة الأساتذة . وأخيرا اعتراه برد

شديد، وكان عندئذ فى سن العشرين ، فرأى أبوه أن المسألة أصبحت لا تطاق ، وأن مستقبل الشاب فى خطر ، فعرضه على الطبيب النفسانى ، فدل الاختبار السيكولوجى على أن ذلك الفتى ذو ذكاء عال ، وأنه يفوق كثيرا من أقرانه فى الجامعة من حيث الذكاء ، ومعنى ذلك طبعا أن عدم قدرته على الاستمرار فى الدراسة الجامعية لم تكن ناجمة عن غباوته . ولما بحث الطبيب معاملة أهل الفتى له ، تبين أن أمه كانت شديدة الحنو عليه منذ الرضاعة ، وكثيرا ما كانت تضعه فى الفراش لأقل برد أو توعك يصيبه ، وكثيراً ما كانت تجلس بجانبه تقرأ له المجلات والروايات ، بدلا من أن تتركه يقرأ بنفسه . كما كانت شديدة التعلق به فى كل لحظة من لحظات حياته . ومن الغريب أيضا أنها استمرت تغطيه فى الفراش حتى سن التاسعة عشرة ، وكانت لا تزال تلقبه عندئذ بألفاظ التدليل التى كانت تلقبه بها عند ما كان صغيراً ، وكانت تطهى له طعاما خاصاً يوافق مزاجه . وبالاختصار كان هذا الفتى إلى اللحظة التى اضطر فيها إلى ترك حظيرته التى نشأ فيها ، مدللا منعما معتمداً كل الاعتماد على معونة أمه وعطفها الشديد . ومما هو جدير بالذكر ، أن ذلك الشاب عند ما قابل الطبيب لاختبار حالته ، كان يحمل بعض الحلوى فى يده كما يفعل الأطفال ، وبكل بساطة وسذاجة قدم للطبيب شيئا منها . ولم يكن إلى هذه اللحظة قد اكتسب درهما واحدا ، وقال إن أمه كانت دائما تعطيه مصروفه اليومى . أما من الناحية الجنسية ، فلم يأبه لأفراد الجنس الآخر ، وكان يخاف منهن ، ويكره الاجتماعات التى يختلط فيها الجنسان ، وكان قليل الثقة بنفسه ، معتقدا دائما باعتلال صحته ، وعلى الأخص بضعف قلبه .

ولقد نصح الطبيب أن يرسل ذلك الفتى إلى بلد بعيد عن مسقط رأسه ، وأن يوظف فى عمل يكتسب منه بعض النقود ، وفضل أن يكون عملا يدويا ، حتى يثبت للفتى خطأ فكرته عن ضعف قلبه ، وأن يرسل بعد ذلك إلى جامعة يختلط فيها الجنسان ، حيث يتم دراسته . ولقد قابلت الأم هذه الاقتراحات

بالسخط الشديد ، وعارضت فيها ، ولكن الأب أصر على تنفيذها ، وكانت النتيجة سارة ، إذ تغلب الفتى على ذلك الحنين المستمر إلى أهله وعشيرته ، ونجح فى النهاية .

وهاك مثلا آخر : فتاة فى سن السابعة عشرة ، كانت أيضا شديدة الحنين إلى أهلها ، وكثيرا ما هددت بالانتحار عند ما اضطرت لفراق أهلها . كانت تلك الفتاة جميلة ذكية ، غير أنها لم تحتمل فراق أهلها ، وكثيراً ما خيل إليها ، كما قالت عن نفسها ، أن الانتحار خير سبيل للنجاة من حياتها التعسة ، ومجمل تاريخ حياتها ، أنها كانت هى وأختها الأخرى ، تعيشان دائما فى أحضان أمهما ، ولم تفارقا المنزل ليلة واحدة ، حتى حان الوقت فى سن السادسة عشرة لأن ترسل إلى مدرسة فى بلدة أخرى . وكان أبواها شديدا الرغبة فى ذلك ، لأن تلك المدرسة أسسها أحد أجداد العائلة . ومع أن هذه الفتاة كانت إلى ذلك الوقت فى صحة جيدة دائما ، فإنها بدأت سلسلة أمراض لانهاية لها ، وكانت تبكى طول وقتها ، وتشكو من ضغط فى الصدر ، فلما أرسلت إلى منزل أبيها تلاشت أعراض المرض ، ولكنها ما كادت تفارقه حتى عاد البكاء وعاد المرض ، حتى اعتزم الأطباء إجراء عملية جراحية لها ، ولكن سرعان ما اختفت الأعراض وزال المرض ، عند ماعادت إلى منزل أبيها ، ولم تصبح هناك ضرورة لإجراء العماية ، فعادت إلى المدرسة ثانية ، فعاد البكاء ، وأظلمت الدنيا فى وجهها ، وأصبحت تعسة لاتستطيع المذاكرة ، وتكره الاجتماع بالفتيات الأخريات ، وتولدت عندها فكرة عدم الثقة بنفسها ، وأنها لاتصلح لشىء فى الحياة ، وأن الانتحار كان السبيل الطبيعى للخلاص منها . ولقد اشتدت الحالة العصبية لتلك الفتاة ، حتى أصبح من الضرورى أن تعود إلى بلدتها ، وأن تذهب إلى المدرسة الموجودة بها ، وأمكن التغلب على تلك الأعراض التى ذكرناها بابتعادها عن حظيرتها العائلية بالتدريج ، لادفعة واحدة ، كأن تترك عائلتها لمدة أسبوع أو أسبوعين فقط ، لتقيم فى منزل عمتها مثلا ، وهى

تعلم طبعاً أن ابتعادها هذا لن يزيد عن أسبوع أو أسبوعين . ثم بعد ذلك أرسلت لتسكن فى منزل آخر مع بعض الأصدقاء غير الأقارب ، لمدة أسبوع أو أسبوعين أيضا ، ثم بعد ذلك أرسلت لتعيش فى فندق ، حيث لا تعرف أحداً من الأصدقاء أو الأقارب هناك . وبالتدريج صارت مدة إقامتها بعيدا عن منزل أبويها تطول شيئاً فشيئاً ، حتى أمكنها بعد ذلك أن تصبر على فراق أبويها مدة لا تقل عن ثلاثة أو أربعة أشهر .

ولقد شعر أبواها بالغلطة التى ارتكباها معها فى طفولتها ، إذ كانت طول عمرها ، حتى السادسة عشرة ، تنام فى نفس الغرفة ، وفى نفس الفراش معهما . قد يظهر لأول وهلة أن ذلك لا قيمة له ، ولكن يلاحظ أن معنى ذلك تكوين عادة خاصة تتأصل جذورها فى نفس الفرد وحياته ، حتى إذا ما أراد التخلص منها ، وجد نفسه أمام مشكلة عصبية تلعب فيها الانفعالات دورا هاما ، لا يكون فى العادة لمصلحة الفرد . وهذا ما حدث تماماً عند ما أرادت تلك الفتاة أن تكسر قيود تلك العادة دفعة واحدة .

والأمثلة على هذا كثيرة ، ويكفى تدقيق النظر فيما يحيط بنا كل يوم ، لنرى الأمثلة الكثيرة لشبان وشابات مدللين مدلعين ، أو بعبارة أخرى لم يصلوا إلى درجة « الفطام » ويجدر بنا أن نذكر هنا أن المسألة قد لا تقتصر فى عواقبها على ما ذكرناه ، بل قد تقف تلك الأعراض فى سبيل تكوين الفتى أو الفتاة لمستقبلهما ، أو قد تقف فى سبيلهما إلى الزواج .

إن الأمثلة التى ذكرناها كثيرة الحصول ، ويمكن مشاهدتها لمن يدقق الملاحظة ، غير أن هناك أمثلة أخرى شاذة أشد مما ذكرناه ، ولو أنها قليلة . فمثلا شاب بلغ من تدليله أن كان يعامل معاملة الفتاة حتى سن العشرين ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أعطى اسم فتاة أيضا ، وكان ينادى به حتى ذلك السن . وسبب ذلك أن أمه قبل ولادته كانت تتوق إلى طفلة ، فلما جاء ولدا أصرت على معاملته معاملة البنات ، وأطلقت عليه اسم بنت فعلا .

حقيقة إن تلك الأمثلة الشاذة قليلة ، إلا أننا لانستطيع إنكار وجودها ، ولا نستطيع أيضا إنكار أنها تؤيد النظرية التى ذكرناها ، عن تشبث الأم وتعلقها بأبنائها وبناتها ، الذين تعتبر الاحتفاظ بهم والسهر عليهم ، عملها الطبيعى فى الحياة .

ولقد حاول بعض البحاثة معرفة ما إذا كان تعلق الفتى بأمه وتعلقها به له أساس جنسى . ويقول بعض علماء النفس إن الفتى الذى يحن إلى الحظيرة العائلية ، إنما هو فى حب معها ، وإن كانوا يقولون إن هذا الحب بطريقة لاشعورية . كما أن الفتاة التى تحن للعودة إلى منزلها ، تحب أباها بنفس المعنى كما لو كانت فى حب مع أى فتى آخر . غير أن الكثيرين من علماء النفس لايستطيعون قبول هذا الرأى على علاته ، ويميلون إلى القول بأن حب الفتى غير المفطوم ، أو الفتاة غير المفطومة ، لأبويهما ، ليس حبا جنسيا ، بل هو من قبيل حب الحيوان لمن يطعمه ويسقيه ، وهو نتيجة استمرار عادات الطفولة التى حرمت الفرد من الاعتماد على نفسه . ويؤيد ذلك أن هذا الحب والحنين لايقتصر على الأبوين فقط ، بل قد يمتد إلى الماديات ، فيحن الفتى (أو الفتاة) مثلا إلى فراشه الذى كان ينام فيه ، وكرسيه الذى كان يجلس عليه ، ومسكنه الذى كان يعيش فيه . كما أن الذكرى قد يهيجها رؤية شىء يشبه تلك الحاجيات المادية . ويظهر أن أهم تلك الماديات التى يحن إليها الفرد فى العادة ، هى الأشياء التى تشبع رغباته ، وتمهد له سبيل التنعم والراحة ، كالطعام والملبس والمسكن ، من غير أن تكون لها علاقة بالمسائل الجنسية . وما ينطبق على تلك الأشياء المادية ، ينطبق أيضا على الأبوين ، لأنهما يهيئان له سبيل الراحة ويساعدانه على قضاء رغباته ، وعلى الأخص الأم ، فهى منذ الولادة مصدر الغذاء والدفء والراحة ، فصدرها الحنون يهيء للرضيع كل مايحتاجه فى تلك الحياة ، وربما كان هذا هو السبب فى أن العلاقة تكون أكثر توطدا بين

الأم وأبنائها . ولا تقتصر العلاقة مع الأم على الأبناء الذكور فقط ، بل قد تقع البنات فى حب أمهن أيضا . ونذكر هنا أن معظم حالات الشذوذ التى تصادف الأطباء ، والناجمة عن عدم الفطام ، تكون ناشئة عن العلاقة الوطيدة بين الأم والبنت ، حيث تظل هذه العلاقة كما كانت وقت الطفولة ، وتستمر إلى وقت متأخر فى حياة البنت بعد أن تكبر .

وخلاصة القول أنه ليس من داع لأن نفرض وجود أى حب جنسى بين الابن أو البنت ووالديهما ، مادمنا نستطيع أن نفسر الحقائق التى أمامنا على أنها محبة بين الكائن الحى ومن يطعمه ويسقيه . فكثيراً ماناحظ أن الحيوانات المنزلية تعود دائما إلى صاحبها مهما بعدت عنه ، نظراً لتعودها عليه ، وامتزاج تلك العادات بالانفعالات والعواطف . ولا يمكن القول أبدا فى تلك الحالة ، أن القط أو الكلب يحب صاحبه حبا جنسيا .

ويصادف الإنسان فى الحياة كثيرين ممن لم يصلوا إلى مرتبة الفطام ، وهؤلاء تظهر عليهم ظواهر خاصة ، بها يعرف أنهم لم تتحقق لديهم الفرصة لأن يكونوا أشخاصا عاديين Normal ، أو بعبارة أخرى مفطومين . فمثلا يلاحظ على هؤلاء أنهم إذا حصلوا على وظيفة ما ، ينتظرون عطفا خاصا من رؤسائهم ، ويصبحون مصدرا للشغب فى الدوائر التى يحلون فيها ، وينتظرون من الرئيس أن يعاملهم بالتسامح والكرم والعطف الذى كان يعاملهم به آباؤهم ، فإذا لم يحصلوا على هذا العطف ، تثور نفوسهم ، ويكثرون من اغتياب الرئيس ، ويعتبرون أنفسهم شهداء وضحية حظهم المنكود . ولاشك أن هذا السلوك يؤدى إلى عدم نجاحهم فى عملهم ، ويتركهم عاطلين ، وسبب ذلك كله هو عدم فطامهم . فهم يعتبرون كل رئيس لهم ، أو كل ذى نفوذ عليهم ممثلا للأب أو الأم ، وينتظرون منه أن يعاملهم كما كان يعاملهم هؤلاء .

وليس الأمر قاصراً على الفشل فى الأعمال التى يكتسب منها الإنسان رزقه ، بل إن النتائج الوخيمة قد تعدو ذلك إلى الزواج أيضاً . فالشاب أو (الشابة) الذى لم يفطم ، ولم يتخلص من العلاقة السيكولوجية الوطيدة ، التى كانت تربطه وتقيده وتجذبه نحو أبويه ، ينتظر من زوجته أن تقوم مقام الأب أو الأم ، فإذا كان الأبوان رحيمين به ، توقع من الزوجة أن تعامله بالمثل ، فيطلب لين المعاملة والحب والعطف ، مهما كانت الظروف التى يوجد فيها الزوجان . وعلى العكس إذا كان الأبوان فى سابق العهد شديدين قويا الشكيمة ، فإنه ينتظر بعد الزواج من زوجته أن تقوم بتحمل كل مسئولية ، وأن تصرف الأمور ، وتسيطر على كل شىء من غير مشورة . فإذا لم يتحقق ذلك ، دب سوء التفاهم بينهما ، وأصبحت حياتهما غير مرضية .

ومن علامات عدم الفطام أيضاً بعد الزواج ، أن يرفض المرء ترك بيت أبويه ، وبذا يجعل حياة[1] شريكته فى الحياة ضيقة محدودة ، لعدم تمتعها بكامل حريتها فى ذلك المكان . وقد يقبل المرء أن يترك بيت أبويه ولكن يرفض ترك القرية أو المدينة التى هما بها ، أو قد يقبل الابتعاد عنهما ، ولكن يرفض أن يبتعد عنهما طويلا . وكلنا نعرف حالات من هذا القبيل ، حيث يشترط الأبوان أن يعيش ابنهما أو ابنتهما بعد الزواج معهما ، أو قد يرفض الفتى نفسه ، أو الفتاة نفسها ، أن يترك منزل أبيه . وهذه العقبات التى تقوم فى سبيل صفاء الحياة الزوجية ، كثيرا ما تمنع الزوج من النجاح فى أعماله الاقتصادية أو الاجتماعية ، ما دامت زوجته تقيده بالعيش فى بلد خاص ، أو فى منزل خاص ، قد لا يتفق مع المصالح المادية التى تهيئ أسباب الرفاهية للزوج الناشئ .

---

(١) أو شريكها فى حالة السيدات .

ومن علامات هـذه الظاهرة السيكولوجية أيضا ، وقوع الفتى أو الفتاة فى حب من هو أكبر منهما سنا بكثير ، كأن يختار الفتى زوجة له يربو سنها على سنه بكثير ، أو أن تختار الفتاة زوجاً لها يكون الفرق بينه وبينها فى السن شاسعا . وتفسير هذه الحالات أن كلا منهما فى اختياره لشريكه فى الحياة ، إنما يختار أباً[1] له يسهر على راحته ، ويهيمن عليه ، لا شريكا يعامله معاملة الند للند . وغنى عن البيان أن مثل هؤلاء الأفراد لا يكونون سعداء فى زواجهم .

لا ننكر أن الطبيعة الإنسانية بها من الغرائز والميول ما يجعلها تحن وتستطيب العطف والسيطرة من شخص آخر ، فى أوقات خاصة ، كأوقات المحن والخطوب ، أو أوقات الضعف ، حيث لا يمكن للفرد أن يجاهد ويقاوم وحده ، على قول المثل السائر (يد وحدها لا تصفق) ، فإن هـذه ظاهرة طبيعية معروفة فى جميع أفراد النوع الإنسانى ، المفطومين منهم وغير المفطومين .

وليس المقصود بالفطام انقطاع الصلة بين الأبناء والآباء انقطاعا تاما ، بل الفرق بين الشخص المفطوم وغير المفطوم أن الأول ينتظر المساعدة والعطف فى أوقات محدودة ، ومن أشخاص معدودين ، بينما الثانى ينتظر العطف فى كل زمان ومكان ، ومن أى شخص بيده السلطة ، يكون مركزه مشابها لمركز الأب ، وينتظر أيضا من غير ما سبب ظاهر ، أن يظهر ذلك الشخص المحبة والسهر على راحته من تلقاء نفسه ، فإذا لم يفعل كان موقفه نحوه كموقف الطفل نحو أبيه إذا رفض أن يجيب شيئا من رغباته .

وهنا يصح لنا أن نتساءل عن السبب ، الذى نرى من أجله وجوب فطام الشاب أو الشابة ، بدلا من اتباع أسهل الطرق ، وهى تركهما يفعلان ما يشاءان

---

(١) أو أما .

فيعتمدان على أبويهما طول حياتهما ، من غير إجبار على الاعتماد على النفس ، ومحاولة فصم عرى تلك العلاقة الوطيدة التى تربطهما بالأبوين . والجواب على ذلك ليس بالأمر الصعب ، فإن الأبوين لن يعيشا لابنهما أو ابنتهما أبد الدهر ، فقد دلت الإحصاءات الحديثة ، على أن الغالبية من الأفراد ، الذين بلغت سنهم الخامسة والثلاثين ، يكون أبواهم قد عاجلتهم الوفاة قبل ذلك السن ، فإذا لم يكن الفرد قد تعود الاعتماد على النفس ، وتعود أن يشق طريقه فى الحياة من غير معونة أبويه ، وجد نفسه فى أسطع أيام حياته ، وحيدا غير مزود بوسائل الكفاح ، كساع إلى الهيجا بغير سلاح . ويمكننا أن نتصور سوء حال مثل هذا الشاب أو الشابة ، إذا تخيلنا أحدهما وقد وجد نفسه وحيدا فى الحياة ، فى سن الخامسة والثلاثين ، أى فى السن الذى تشتد فيه المسئولية ، وينتظر منه المجتمع أن يصبح فردا عاملا منتجا . وهناك سبب آخر ، وهو أن تقييد الفتى بقيود متينة تربطه إلى أبويه ، يقف فى سبيل تقدمه . فمن المعلوم أن العالم فى تطور ، وأن المنتظر أن يفوق كل جيل الجيل السابق ، فإذا تقيد الجيل الحاضر ، وارتبط ذلك الارتباط الوثيق بالجيل السابق ، وخضع لسيطرته ونفوذه الروحى والعقلى والخلقى ، أصبحت أفكاره مشابهة لأفكاره ، وعجز عن التخلص من القديم ، والتفكير فى الجديد ، فيكون هذا سبباً فى وقوف التقدم الإنسانى . وكلنا نعرف كيف يعارض الآباء والأمهات الأزياء الحديثة مثلا ، وكيف تؤدى رغبة هؤلاء فى الاحتفاظ بالقديم إلى جدل كثير مع أبنائهم وبناتهم ، الذين يودون الحصول على ملابس تتبع تطور الزى الحديث ، وكلنا نعرف كذلك خوف الآباء على أبنائهم من المخاطرات ، وعلى الأخص المخاطرات التى تتعلق بالمخترعات الحديثة ، كركوب السيارات ، والطيارات ، أو ركوب البحار . وكم من أم أو أب وقفا فى سبيل تقدم ابنهما ، لخوفهما من ابتعاده عنهما ، وركوب متن البحار خوفاً عليه من الغرق وغيره من المخاطر .

ولاشك أن الشباب بطبيعته يعارض بكل قوته التقيد بالقديم ، ويحاول العدو نحو الجديد ، واختيار الأبحاث الحديثة ، غير مكترث بما يحف بهامن الأخطار ، ذلك دين الشباب ولن تجد لسنة الله تبديلا . وإن الشاب الذى يحاول أن يعيش عيشة أبويه عند ما كانا فى سن الشباب ، لابد وأن يقضى عليه بالفشل ، لأن الزمن يتغير ، والجنس الإنسانى يتغير ، والإنسان الذى كان يصلح للحياة منذ قرن مضى ، لا يصلح للحياة فى الأجيال الحديثة ، لأنه لم يعد لها . وكبر سنه لا يكفل له المرونة الكافية للتشكل حسب الظروف .

يتضح لنا إذن أن كل العوامل ، البيولوجية والاجتماعية والتربيبية ، قد أجمعت على جعل النجاح نصيب الشاب الذى تم فطامه ، وجعل الفشل من نصيب الذى لم يتم فطامه . ويمكن تلخيص ذلك كله بقولنا إن من أهم الأسباب التى تجعلنا نلح فى سبيل فطام الشاب ، هو جعله قادراً على مجابهة الصعاب فى مجتمع قد لا يجد فيه العطف والحنو ، الذى ينتظره من جميع أفراده .

غير أننا لدينا من الدوافع الإنسانية ، والميول الطبيعية ، ما يكفل لنا حدوث الفطام ، ويساعدنا فى المهمة التى تقع على عاتقنا ، أى فى تربية المراهق وإعداده إعدادا صالحا للحياة فيما بعد . فالطبيعة الإنسانية كفيلة بإيجاد الرغبة فى نفس الفتى للتخلص من النفوذ الأبوى . وهذا الميل يقوى ويشتد أثناء المراهقة كما قدمنا قبل الآن . وإن مهمتنا كمربين ، تتلخص فى الحقيقة فى أن لا نعترض ظهور تلك الميول والرغبات ، بمحاولتنا الضغط على الفرد الناشىء ، واقتناصه كلما هم بالفرار من الحظيرة العائلية . ولا نقصد هنا أن نترك الحرية التامة للفتى أو الفتاة ، للتخلص من السلطة الأبوية بمجرد وصوله إلى دور المراهقة ، لأنه عندئذ لم تتوفر لديه الخبرة الكافية لأن يشق طريقه منفرداً فى الحياة ، كما أن قواه العقلية والبدنية لم تصل عندئذ إلى درجة النمو الكامل ، الذى يضمن تصريف أموره على وجه الكمال . وإنما نقصد أن ذلك الفتى قد

أخذ عندئذ يدب فى نفسه شعور بوجوده كفرد له شخصية ، وذات Self مستقلة عن شخصية أبويه وذاتهما . ذلك الشعور لم يكن موجودا فى عهد الطفولة ، حيث كان اهتمام الطفل كله موجها نحو تحقيق الرغبات المادية ، من مطعم ومشرب وملبس . أما الآن فإن رغبات الفتى تعدو ذلك بكثير . وقد يفضل أن يتنازل عن الشىء الكثير من كل هذا ، فى سبيل الاحتفاظ بكرامته أو بمركزه أو بحقه أو بحريته ، وبعبارة أخرى فى سبيل الاحتفاظ بشخصيته وذاته . هذه الميول ، وهذه الرغبة ، تظهر من تلقاء نفسها فى الفتيان والفتيات عند دور المراهقة وما بعده بشكل واضح ، وإن كانت أخف حدة عند الفتيات منها عند الفتيان ، فإذا كانت ناقصة عند فرد ما ، أو ضغطنا عليه ومنعناها من الظهور ، فإن الفرد فى الحالتين يكون شاذا غير عادى ، لأن نموه السيكولوجى لم يكتمل .

ويقترون ظهور تلك الرغبات الذاتية فى العادة بنمو العقلية ، وبنمو الدوافع الجنسية ، فهذه لها دخل كبير فى اختيار الشخص لمهنته وزوجه ودينه ، وفى فكرته عن نفسه وذاته . وعلى ذلك فإن الميول التى ذكرناها لاتقوى إلا إذا أصبح الإنسان تام النمو من الوجهتين الجنسية والعقلية ، فنشاهد الفتى عندئذ تتجاذبه الدوافع والأهواء ، بعضها يجذبه فى صف أبويه ، وتعضدها العادات التى تكونت نحو الوالدين ، والبعض الآخر يجذبه نحو الحرية ، والتخلص من القيود العقلية ، أو السيكولوجية ، التى كانت ترتبط بهما .

ونكرر هنا أن التخلص من تلك القيود ليس معناه الخروج عن طاعتهما ومناصبتهما العداء ، أو ترك المكان الذى يعيشان فيه ، بل المقصود هو التحرر من سيطرتهما الفكرية والروحية ، وبعبارة أخرى أن القيود التى نقصدها قيود سيكولوجية لاقيود عادية . فليس هناك من مانع إذا كانت

الحظيرة الأبوية صالحة لمعيشة الفرد ، من أن يستمر فيها ، وإذا لم تكن صالحة يمكنه أن يعمل على رفعها أو يحاول إنشاء غيرها أحسن منها ، من غير أن يكون مقيداً باتباع الآراء التى تملى عليه ، أو أن يكون عاجزا عن ترك الحظيرة إذا مادعت الضرورة إلى ذلك .

وخير ضمان للآباء الذين يخافون على أبنائهم ، من أن يدفع بهم إلى الحياة من غير نظام ، هو أن يعودوهم توزيع جهودهم على أمور متنوعة مختلفة ، بحيث لا تكون نظرتهم فى الحياة محدودة ، وعقليتهم ضيقة ، وأن يدفعوا بهم إلى الحياة ، رويدا رويدا لا دفعة واحدة ، فيصطدموا بها . ولاشك أن ذلك يستدعى حكمة وعلما من الوالدين ، وعلى الأخص فى الأيام الحديثة التى أصبحت مشاكل الحياة فيها متعددة معقدة .

الفصل السابع

الغريزة الجنسية فى دور المراهقة

منذ أمد بعيد فى تاريخ الإنسانية إلى وقتنا هذا ، والأمور الجنسية معتبرة من المسائل الخطرة ، التى تحاط بالكتمان ، وتحفها الأسرار . وكانت ولا تزال معدودة عند الكثيرين من الأمور الوضيعة المنحطة ، التى لا يحق للشخص المحترم المثقف أن يخوض فيها أثناء الحديث . فلا عجب إذن إن لم يجرؤ الآباء والمربون على مخاطبة المراهقين فيها ، وإنارة أذهانهم عنها .

ولكن ذلك الموقف بدأ يتغير فى الأزمنة الحديثة ، وبدأ الناس يتبينون بعد خبرة الأجيال الإنسانية العديدة ، أن ذلك الجو المملوء بالغموض والإبهام ، الذى يحيط بالمراهق فيما يخص الغريزة الجنسية ، لم ينجح فى تأدية الغرض المقصود منه ، ألا وهو الاحتفاظ بأخلاق الشباب طاهرة نقية ، أو كما يسميها العرف ، بريئة من الرجس والدنس ، بل تبين لهم فوق ذلك ، أن ذلك الغموض كان له أسوأ الآثار من الوجهة الاجتماعية أولا ، ثم من الوجهتين الصحية والنفسية ثانيا .

ولقد بدأ المربون كذلك يغيرون وجهة نظرهم فى هذا الموضوع ، وبدأوا يؤمنون بأن تجاهل الدافع الجنسى ، ومحاولة تناسيه ، يؤدى إلى نفس الأضرار ، التى يؤدى إليها إهمال أى دافع غريزى آخر ، ومحاولة إرغامه على الاختفاء بعيداً عن الأنظار .

وينصح المربون بأن أحسن سياسة تتبع نحو المسائل الجنسية هى سياسة الصراحة وعدم اقترانها بالخوف أو الانفعالات القوية بل اعتباره شيئاً عادياً وحقيقة علمية كغيرها من الحقائق .

وينعى المربون موقف الآباء والمعلمين الذين تثور ثائرتهم إذا ما أثير موضوع جنسى ، أو الذين يعلوهم الحياء أو الاضطراب إذا ما أثار الأطفال حديثاً جنسيا ، لأن مثل ذلك الموقف يوحى إلى الأطفال بجو غموض وإبهام وخلسة وتستر . ويزيدون على ذلك أن الاكتفاء بكلمة أو كلمتين لا يجدى ولا ينفع ، لأن الناشئين لن يرتدعوا عن متابعة الموضوع إما سرا وإما جهراً . وليس المقصود أن يفتح الآباء والمعلمون صدورهم لذلك الموضوع كلما شاء الناشئون ، والأفضل الاعتدال واعتبار الموضوع كغيره من المواضيع الصحية ، وأن يوجه نظر الناشئين إلى أن الغرض من مناقشة ذلك ليس مجرد اللذة والاستمتاع ، وإنما تزويدهم بالمعلومات التى تمنعهم من الوقوع فى الضرر أولا ، والاستعداد للحياة الزوجية المستقبلة ثانيا ، فكما أن الأم تعلم فتاتها كيفية الطهى والحياكة قبيل زواجها ، فعليها كذلك أن تعلمها كيفية العناية بنفسها من الوجهة الجنسية وكيفية العناية بأطفالها فى المستقبل وهكذا .

وقد يظن البعض أن إثارة الكلام مع الناشئين فى المواضيع الجنسية تفتح أعينهم لها وتركز انتباههم عليها ، فيندفعون إلى الانغماس فيها ، ورأينا أن الناشئين لاشك منتبهون إليها وعيونهم مفتوحة لها بقوة الدافع الجنسى الطبيعة ، حتى ولو لم توجد أفراد من الجنس المقابل منهم ، ولكن إثارة الموضوع مع الآباء والمعلمين تعطى هؤلاء فرصة تزويدهم بالنصائح والإرشادات التى تضمن عدم انغماس الناشئين فيها عن جهل . كما أن الصراحة تعطى الآباء والمعلمين فرصة لمعرفة من يكون سهل الغواية فيحاط عندئذ بالعناية .

ولسنا متأكدين تماما من الكيفية التى نشأ بها ، فى الأزمان الغابرة ، ذلك الجو الغامض غير الطبيعى ، الذى يحيط بالمراهق منذ بدء شعوره بالمسائل الجنسية . ويقول بعض علماء الاجتماع إنه نشأ من الديانات ، ولكن يعزوه البعض الآخر إلى أسباب أخرى مختلفة ، لم يتفقوا عليها بعد . ولكننا نعزوه لأسباب أصلها اقتصادى . إذ كثيراً ما تكون الظروف الاقتصادية سبباً

فى اعتبار سلوك الشخص فى هذه الناحية تارة مرضيا ، وتارة رذيلة منكرة ، فيوصم بأحط الوصمات ، وينزل بفاعله أشد العقاب ، بينما قد يعد نفس السلوك ، فى ظروف أخرى ، عملا ساميا ، تدق له الطبول ، وتنثر له الورود والرياحين ، وتزف من أجله البشرى والتهانى .

دعنا الآن نفسر ذلك فى شىء من الإطالة : إذا فكرنا فى المعنى الذى يعطيه المجتمع لكلمتى « الخير » و « الشر » ، وبحثنا فى أصل منشأ ذلك المعنى ، تبين لنا أنه نشأ عن حاجات المجتمع ولفائدة المجتمع . فلو لم يكن فى المجتمع سوى فرد واحد ، لما كان هناك مجال لتسمية عمله خيرا أو شرا ، (إلا فيما يخصه هو نفسه) ، إذ ليس هناك من حاجة لإرغامه على تكييف سلوكه بشكل خاص (إلا فيما يختص بالأعمال التى تلحق به الضرر هو ذاته) . أما والمجتمع يتألف من أفراد كثيرين غير ذلك الفرد ، فلا بد من وجود مثل تلك الموازين أو المعايير الأخلاقية ، لتحديد سلوك كل فرد تجاه من يعيشون معه ، أو لفائدة ذلك الفرد الشخصية أولا ، ولكى يصبح فردا نافعا فى ذلك المجتمع ثانياً .

وأول شعور الفرد بتلك المعايير الخلقية ، يكون فى البيئة العائلية ، فالأبوان يحددان سلوك أفراد العائلة ، ويرغمان الصغار فى أول نشأتهم على المحافظة عليها ، فيمنعانهم من اعتداء بعضهم على بعض ، وعلى احترام الكبار ، والمحافظة على ملابسهم من الأقذار ، والنوم فى مواعيد معينة وهكذا . فينشأ الأطفال تدريجيا على اتباع تلك القواعد والتعليمات ، وينشأ فى نفوسهم أنها هى الخير ، ومخالفتها هى الشر ، فكأن الأبوين فى البيئة العائلية هما اللذان يحددان المقياس الذى تقاس به الأعمال .

أما فى المجتمع الكبير ، عدا البيئة العائلية التى يتحكم فيها الأب والأم ، فينشأ المقياس تبعاً للعرف والتقاليد والشرائع السماوية ، وهكذا تصبح هذه كلها قوانين ، عرفية كانت أو حكومية .

ولنطبق ماذكرناه الآن على الأمور الجنسية التى كنا بصددها ، ولنبحث عن كيفية تحديد المقياس الذى تقاس به وتوزن ، حتى حكم عليها بأنها منكر يجب التشديد فى أمره ، وتحاشى التحدث عنه فى كل مجتمع يحترم نفسه .

فى الأزمنة القديمة ، فى بدء المدنيـــة ، وكما هو الحال فى المجتمعات غير المتمدينة ، التى تعيش على الفطرة الأولى فى وقتنا هـذا . يتزوج الفتى والفتاة بمجرد وصولهما إلى دور المراهقة ، وبعبارة أخرى عند بدء شعورهما بالدافع الجنسى . ولم يكن هناك دون ذلك من عقبات ، لأن كلا منهما كان يستطيع الحصول على القوت فى هذه السن بنفسه ، فالفتى كان يصيد الحيوان والسمك والفتاة تجمع الخضروات والفواكه من الأشجار ، وتدبغ جلود الحيوانات المصيدة ، وتعدها للاستعمال ، كملبس أو كمسكن ، كما أنها كانت تستطيع حمل ابنها على ظهرها عند ماتصبح أما .

وبمرور الزمن وتقدم الإنسان فى المدنية ، زادت المشكلات التى تواجه الفرد المتزوج ، وأصبحت حياته أكثر تعقيداً مما كانت فى الأزمنة السالفة . فالحصول على القوت لم يعـد بتلك السهولة السابقة ، والفتى والفتاة المراهقان لايمكنهما أن يكسبا أود عائلتهما الآن مهما كانت صغيرة .

نرى إذن أن الظروف الاقتصادية المحيطة بالفرد المراهق والبالغ قد تطورت بتطور المدنيـــة ، فبعد أن كان قادراً على الاغتراف من مناهلها ، واستدرار الرزق منها ، أصبح الآن محتاجا لمران طويل وخبرة كبيرة ، قبل أن يستطيع دخول ميدانها واستدرار خيراتها .

أما الغريزة الجنسية ذاتها ، فلم تتغير بتغير تلك الظروف الاقتصادية ، ولم يتغير كذلك موعد ظهورها ولاقوتها . فالطبيعة الإنسانية باقية ، فى جوهرها ، على ماكانت عليه فى الأزمنة السالفة ، ولم تتغير بظهور المخترعات والمكتشفات الحديثة ، بل كل ماحدث هو تعديل فى مظاهر ذلك الجوهر .

نجد هنا إذن تضارباً بين الطبيعة البشرية أو الغرائز الإنسانية ، وبين الظروف الاقتصادية التى تحيط بالمراهقين ، ففى السابق كانت حاجاتهم قليلة ، والحصول على القوت سهلا ، وعلى ذلك لم يكن هناك مانع من زواجهم ، لقلة المسئولية الملقاة على عاتقهم ، كما هو الحال فى المجتمعات البشرية غير المتحضرة ، الموجودة فى أواسط إفريقية الآن ، حيث يتزوج الشخص ماشاء من الزوجات ، ويبيعهن بيع السلع . أما فى المجتمعات المتمدينة ، فقد زادت المسئولية ، وثقل العبء الملقى على عاتق كل من الزوج والزوجة ، حتى أصبح من الضرورى أن ينتظرا إلى سن متأخرة قبل الزواج ، ليكونا قد حصلا من المال والخبرة والقوة ما يكفى لمواجهة تلك المسئولية ، ولتحمل ذلك العبء الاقتصادى الثقيل .

وهكذا أصبح المراهق غير مسموح له بالزواج ، لعدم كفايته من الوجهة الاقتصادية ، وبالتالى من الوجهة الاجتماعية . أما الدافع الجنسى الذى لم يزل على حالته الأولى ، التى كانت فى الأزمنة السالفة ، كلما حاول الظهور وطلب تحقيق غايته ، نظر إليه المجتمع شذرا ، وقضى عليه بقوة الإرادة ، ووصمه بأشنع الوصمات ، حتى لاتنجم عنه الأضرار التى تنشأ من الاتصال الجنسى غير الزوجى ، سواء أكانت اجتماعية أم خلقية أم طبية .

إذن ذلك العامل الاقتصادى هو بلا شك أهم الاعتبارات ، التى جعلت المسائل الجنسية من الأمور التى لا يتحدث الناس عنها صراحة ، بل يحيطونها بجو مبهم ، يخيل للمراهق أنه مملوء بالأسرار والمخاوف . ولكن ما دامت المدنية الحديثة لم توجد حلا لمشكلتها ، فى ذلك الوقت الذى لا يسمح فيه للمراهق بالاتصال الجنسى ، فإن الدافع الجنسى يظل حائرا ثائرا ، يترقب الفرص ويتحين غفلة الرقباء ، ومن هنا زاد التشديد عليه ، وأصبح فى عداد الكبائر التى يعاقب عليها القانون العرفى والسماوى .

ولا شك أن هذا الجو يبدأ منذ الطفولة ، فيتعلم الناشىء أن يخشى الكلام عنه ، وأن لا يشير إليه إلا سرا ، فإذا زلفت منه كلمة ، قامت قيامة الحاضرين حوله ، وظهر على وجوههم الرعب ، أو الامتعاض على الأقل ، فينشأ فى نفسه شعور غامض غريب عن هذا الأمر ، حتى إذا كبر اتخذ نفس الموقف حيال هذا الدافع ، الذى يعد من أهم الدوافع التى وضعها الخالق فى الإنسان ، حتى تستمر الخليقة على سطح الأرض .

ومن المتناقضات ، أن الفرد عند ما يتزوج ، عليه أن يغير ذلك الموقف فجأة ، من غموض وإبهام ، إلى اعتراف وصراحة ، ومن كراهية وازدراء ، إلى حب واحترام ، فكأنه فى يوم وليلة عليه أن يغير ذلك الشعور الذى غرس فيه منذ نعومة أظفاره ، وأن يعتبر ذلك الدافع الذى كان فى يوم من الأيام مقترناً فى ذهنه بالدناءة والحطة والإجرام ، شعورا طيباً ، فى تنفيذه منتهى التقوى والصلاح ، وفى الخضوع له سلامة العالم ومنعه من الزوال .

واضح طبعاً مافى تلك السياسة من تناقض ، فضلا عن أنها سياسة خاطئة فى تربية النشء ، فضلا عما تنتجه من أضرار تلحق الجسم والعقل والنفس .

طبيعة الشعور الجنسى

رغم العقبات التى توضع فى سبيل وقوع الحب فى دور المراهقة بين الجنسين ، ورغم وصمه بأبشع الأسماء ، وتصويره لهما بأبشع الصور ، فإن مسألة الحب فى هذا الدور من أهم المسائل التى يجب أن ننتبه إليها معاشر المربين ، كى نعد لها عدتها ، ونعترف بها ، بدلا من أن نتجاهلها ، وننتظر حتى تظهر نتائج ذلك الإهمال الوخيمة ، فنحاول علاجها بالعقاب حين لا ينفع ذلك .

وأول خطوة فى سبيل اتخاذ العدة ، هى محاولة فهم طبيعة ذلك الدافع الجنسى ، حتى يكون موقفنا تجاهه مبنيا على العلم والتبصر ، فلا نؤدى بحياة

الفتى أو الفتاة نحو الضرر ، سواء أكان ذلك من الوجهة الاجتماعية أم الصحية أم العقلية . فإنه ولاشك من أهم الدوافع التى تؤثر فى حياة كل منهما وتملك مشاعره ، وتشغل باله وتفكيره ردحا طويلا من يومه .

دعنا الآن إذن نحلل ذلك الدافع ، ونحاول فهم طبيعته ، وكيفية ظهوره ، والأضرار الناجمة عن اعتراض سبيله ، ما دامت سعادة الفتى والفتاة متوقفة على كيفية استغلاله ومواجهته .

فى كل كائن حى ، كما فى الإنسان ، قوى أو دوافع وميول تدفعه وتؤدى به إلى بذل الجهد فى سبيل تخليد جنسه . فإذا وجد نوع من الكائنات لم يتوفر فيه ذلك الميل ، فلابد له أن ينقرض حتما يوما ما . وعلى ذلك فوجود أى نوع من الكائنات الحية فى وقت ما ، معناه أن أفراد هذا النوع تشعر بذلك الميل .

ولما بدأ النوع الإنسانى ، انقسمت أفراده إلى قسمين ذكور وإناث . ثم إن الأفراد التى عجزت من كلا القسمين عن اجتذاب أفراد الجنس الآخر ، انتهت حياتها بانتهائها ، إذ لم تترك نسلا يخلد حياتها ، فلم يبق إذن إلا الأفراد القادرة ، التى لديها الكفاءة لأن تجذب أفراد القسم الآخر ، وبعبارة أخرى الأفراد التى يتوفر لديها الدافع الجنسى .

ولقد حاول علماء النفس تحليل هذا الدافع الهام فى حياة الإنسان ، فوجدوا أنه من الصعب التمييز بين ما هو طبيعى فيه ، وما هو مكتسب من العرف والاجتماع والعادة . غير أنه رغم تلك الصعوبة ، من الممكن تمييز عنصر لم يكتسب ، ظاهر أنه من الأمور الطبيعية الأصلية فى الإنسان ، ألا وهو (الانتباه) الخاص ، الذى يوجهه الفرد أيا كان لأفراد الجنس المقابل أى الذكور نحو الإناث والإناث نحو الذكور ، إذا لم يكن هؤلاء الأفراد الذين من الجنس المقابل أكبر أو أصغر بكثير من الفرد المنتبه[1] ، وإذا لم يكن

---

(١) فى ظروف كثيرة ، نلاحظ حدوث هذا الانتباه بين أفراد ، الفرق بينهم فى السن كبير شاسع ، غير أن هذه أحوال خاصة ، وكلامنا هنا منصب على الغالب .

بهم أيضا ما يدعو للاشمئزاز والنفور .

هذا (الانتباه) يختلف قوة ووضوحاً حسب السن ، وربما كان على أشده فى دور المراهقة ، حين يكون الميل الجنسى ذا معنى خاص . فإذا تم الاجتذاب أو بعبارة أخرى التحاب البعيد من الطرفين ، تلته تصرفات أخرى ، كالاقتراب ثم التراجع ، ثم التمليس والالتصاق ، الذى يؤدى بعد محاولات شتى ملأى بالأخطاء ، إلى العملية الجنسية الخاصة ، التى تنتهى بتخليد النسل .

تلك التصرفات قبل أن تقترن بالقوانين الاجتماعية الوضعية والعادات وغيرها ، لم تكن خيرا أو شرا ، ولم يكن هناك مجال لإطلاق تلك الأسماء التى نصفها بها الآن ، كالطهر والعفاف والاستقامة والفروسية إلى غير ذلك .

ويرى بعض العلماء أن الإنسان فى مبدأ الأمر ، لم تكن لديه فكرة عن النتيجة التى تؤدى إليها تلك العملية الجنسية ، أى حدوث النسل ، فإتيانه بها لم يكن عن رغبة فى إحداث النتيجة ، بل عن رغبة فى العمل ذاته ، الذى يؤدى بالفرد إلى الارتياح من ذلك القلق وعدم الاستقرار ، الذى يتملكه قبل حدوثها ، ورغبة فى اللذة التى تصحبها .

ومع أن ذلك الدافع من أقوى الدوافع التى ركبت فى الإنسان ، فإن كبته وإضعافه وإسكانه ، أسهل من كبت كثير من القوى الأخرى ، كما أنه يسهل إذكاؤه بتغيير بسيط فى ذات المؤثر الذى يكون قد فقد خاصية إذكائه ، أو بتغيير بسيط فى حالة الفرد الداخلية . كما أن العادات التى اكتسبها الإنسان وخضع لها ، والانفعالات والدوافع الداخلية المتضاربة فى نفسه ، لها أيضا تأثير عظيم على النشاط الجنسى . فمنها مثلا الحياء ، ثم الميل إلى الوحدة والانفراد الذى هو ألد عدو للغريزة الجنسية ، إذ بينما هى تدعو للتآلف والاجتماع ، إذا به يدعو إلى النفور والتباعد .

ومما هو جدير بالذكر أن الغريزة الجنسية ، وما يتبعها من حب ، قد توجد جنباً لجنب مع الازدراء والكراهية لنفس الشخص ، وبعبارة أخرى ، إن

الغريزة الجنسية قد تتعلق بشخص يزدريه الإنسان ويحتقره أو يكرهه . ولدينا من الحياة اليومية أمثلة كثيرة ، لا تصعب ملاحظتها على من فطن لها ، فى المجتمعات التى تضم أفراداً من كلا الجنسين معاً .

وهنا نسائل أنفسنا ، إلى أى حد تخضع الدوافع الجنسية للإرادة . إن بعض مظاهر الغريزة الجنسية من نوع الأفعال المنعكسة Reflexes ، فهى إذن خارجة عن سيطرة الإرادة ، من حيث إحداثها ، ولو أن الإرادة قد تسيطر عليها من حيث إيقافها ، أو الإقلال منها . فاتساع حدقة العين مثلا فى الظلام ، وضيقها فى الضوء ، لا يمكن للارادة أن تتحكم فيه بأن تمنعه ، كما أن الانسان لا يحدثه بإرادته واختياره ، أما العطس فهو يحدث من غير تأثر بالإرادة ، ولكنها قد تستطيع إيقافه أو الإقلال منه ، فإذا اجتمع أفراد من جنسين متقابلين فى مجلس واحد ، وتوفرت بينهم عوامل الاجتذاب والهواية ، كالسن والملامح والقد وطريقة المشى والكلام إلى غير ذلك ، فإنه لابد من حدوث تلبية خاصة من جانب الأفراد ، من نوع الأفعال المنعكسة ، لا يكون للإرادة فيها دخل ، من حيث تحريكها وإيجادها ، بل تجد الجسم كله قد اتخذ موقفاً خاصا ، وتهيأ تهيؤا خاصا دفعة واحدة . هذه الحركات تؤدى فى النهاية ، وإذا لم يقم عائق ، إلى الأفعال التى ذكرناها سالفا ، ألا وهى الاقتراب من الفرد الجذاب ، والتحاب والتمليس والعناق أى الالتصاق البدنى .

ومما هو جدير بالذكر ، أن الأفعال المنعكسة ، بما فيها أفعال الجهاز التناسلى ، لا تخضع لعرف ولا لقانون ، ولا ترث تقاليد المجتمع وعاداته ، وإنما ترث الخواص البيولوجية للجنس الإنسانى ، ما دامت هذه الخواص تساعد على استمرار النوع الإنسانى . وغنى عن البيان أن موافقة الآباء والمربين ، أو اعتراضهم ، لا يجديان نفعا فى إيقاف الأفعال المنعكسة ، أو ملاشاتها ، أو تأجيلها ، فمن العبث أن يأمر أب ابنه بأن يمنع أنفه من التهيج

إذا استثارها مثير ، أو من السعال إذا أصابه برد ، مهما قبحهما لولده ، ومهما وصفهما بأبشع الأوصاف ، إذ كل ما يستطيع الفتى عمله ، هو أن يتحاشى المواقف التى تدعو إليها ، أو أن يختفى عن أعين الناظرين والسامعين إذا ماشعر بالميل نحوهما . وقد يفلح فى إيقاف العطس أو السعال مرة ، ولكنه لا يستطيع أن يمحو العطس والسعال من قائمة الدوافع التى تسيطر عليه .

غير أن هناك فرقا بين الفعلين اللذين ذكرناهما والفعل الجنسى ، فهما من الأفعال المنعكسة المحضة ، أما الفعل الجنسى فبعضه فقط من هذا النوع ، وبه عناصر أخرى غير منعكسة ، فتخضع للإرادة . وهذا هو السبب فى أن الكثيرين يظنون أن الفعل الجنسى كله يحكم بالإرادة ، غافلين بذلك عن العنصر المنعكس فيه .

ويظهر أنه مضى على الإنسان حين من الدهر لم يكن يعرف نتيجة الاجتماع الجنسى ، أى إنتاج النسل ، وأنه لم يتعلم أن يربط السبب بالمسبب ، وأن يفهم العلاقة بين هذا الاجتماع وإحداث النسل ، إلا بعد مضى زمن ليس بالقليل . إذ كانت ولادة الأطفال تعزى إلى العوامل الطبيعية ، كالأنهار والأشجار والمطر والشمس ، وأحيانا إلى أشخاص بعيدين . فيحكى فى خرافات الصين القدماء ، أن امرأة كانت واقفة أمام شجرة يقطعها بعض الناس ، فتطايرت شظية منها ودخلت فى فمها ، فإذا بها حبلى . وأن أميرة كانت تستحم فوجدت على ملابسها زهرة فإذا بها أم . وفى بعض الأحيان ، كان الإنسان الأول يقدم القرابين للشمس والأنهار والأشجار ، إذا رام الإكثار من النسل .

وكما أن الإنسان الأول فى مبدأ أمره ، لم يكن يعرف العلاقة بين الفعل الجنسى والنتيجة التى تليه ، بل اكتشف ذلك بخبرته وتجاربه على مر الزمن ، فكذلك الطفل والشاب لا يعلمان العلاقة ، ولن يعلماها ، إلا إذا أخبرهما

أحد أو قرأ عنها فى الكتب ، وإلا فعليهما أن يبقيا جاهلين حتى تدلهما عليها التجارب .

لقد سقنا تلك النبذة المختصرة ، لنوضح للآباء والمربين شيئا عن الدافع الجنسى ، من حيث منشؤه ، حتى لايقعوا فى الأخطاء التى يقع فيها الكثيرون الآن ، نتيجة لعدم علمهم بتلك الحقائق . فلا يظن أحد أن الغريزة الجنسية شر بطبعها ، وإن كبتها وعدم الإشارة إليها أمر مرغوب فيه ، يؤيده العقل ، فتلك الوصمة التى لحقت بها نجمت عن ظروف أغلبها اقتصادى كما بينا قبل الآن . كذلك لا يظن أحد أن تأنيب الفتى أو الفتاة على الشعور الجنسى يجدى نفعا ، أو يمنع بعض عوامله من الظهور ، كالمظهر المنعكس الذى ذكرناه مثلا . كما يتضح أيضا أن تعليم النشء حقائق عن الأمور الجنسية ، وإيضاحها لهم أمر مرغوب فيه كل الرغبة ، لأن ذلك هو السبيل الوحيد لعلمهم بها[١] فإذا لم يتعلموها عن طريق الآباء والمربين ، تعلموها إما بالمحاولة والخطأ ، على مافى ذلك من تعرضهم للاخطار والنتائج الوخيمة ، وإما استقوها من الكتب الوضيعة وخلان السوء ، والمغرضين الذين ينتهزون الفرصة لإفساد أخلاقهم .

أما إذا أفلحنا فى السيطرة على الفتى أو الفتاة ، فصرفناهما عن الأمور الجنسية بالضغط ، فالعاقبة قد تكون أدهى وأمر ، ذلك أن كلا منهما قد يلجأ إلى كبت انفعالاته ورغباته ، أى تناسيها وعدم السماح لها بالظهور ، فتنحدر تلك الانفعالات إلى مايسمى اصطلاحا فى علم النفس باللاشعور ، حيث تكبت كل انفعالات الإنسان التى لاتستطيع الظهور على مسرح الشعور أمام الملأ . ومن المعلوم أن تلك الانفعالات والرغبات المكبوتة ، وإن اختفت عن الأنظار ، لم تتلاش فعلا ، بل هى مستقرة فى اللاشعور ، تؤثر فى سلوك المرء تأثيرا بينا ، يكون فى الغالب شاذا ، لأنه آت من طريق ملتو ، لايقره العرف

---

(١) أنظر الفصل التالى .

ولا القانون . وليس القصد السماح باختلاط الجنسين بلا قيد ولا شرط ، فآفات الاختلاط وسيلة إذا لم يكن للناشئين من يرشدهم إلى جادة الصواب .

والكثيرون من تصرفات بنى الإنسان يعتبر من النوع الشاذ ، إذ لا يقره المنطق والعقل ، ومع أن ذلك السلوك الشاذ يبدو غريبا للناظرين ، فإنه قد لا يبدو غريبا لصاحبه ، الذى يحاول أن يقنع نفسه ومن حوله بالأسباب التى حدت به إلى ذاك السلوك ، وأن يبين لهم أن ذلك السلوك إن هو إلا نتيجة منطقية لتلك الأسباب . غير أن سيكولوجية اللاشعور قد علمتنا أن لا نصدق ذلك (التبرير) Rationalization ، وأن نبحث عن السبب الحقيقى للسلوك الشاذ فى منطقة اللاشعور ، أى بين الدوافع المنسية المكبوتة ، التى كثيرا ما يرجع تاريخها إلى أيام الطفولة . أما عن نوع هذه الخبرات المكبوتة ، فقد اختلف علماء النفس والأطباء فى تقريره ، ولكن (فرويد) الذى يعد من أشهر علماء النفس فى العصر الحاضر [١] ، وكان كذلك من أكبر المشتغلين بعلاج أمراض الشذوذ النفسى والأمراض العصبية ، يقرر أن الغريزة الجنسية هى المصدر الأكبر للأمراض النفسية ، ويقرر كذلك أنها أهم وأخطر دافع يهيمن على حياة الإنسان . وهو لا يعنى من تأثيرها الطفل أو الراشد ، بل يعتبر كلا منهما تحت تأثيرها وخاضعا لنفوذها ، وهذا هو السبب فى أن الكثيرين من علماء النفس فى أوروبا وأمريكا قد اعتبروه مبالغا متطرفا . ولكن مهما يكن من أمره فإن نظريته عن اللاشعور ، قد انحازت إليها الغالبية العظمى من علماء النفس ، وإن اختلفوا معه فى بعض التفاصيل هنا وهناك ، وأصبح له أتباع فى جميع أنحاء العالم ، يعالجون المرضى على طريقته ، ويفلحون فى شفاء البعض منها على الأقل ، مما يضطرنا إلى التسليم ، من غير ماجدل ، بأهمية الدافع الجنسى ، فى حياة الكبار ، على الأقل ، إن لم نسلم بها فى حياة الصغار .

---

(١) توفى مؤخرا .

ومغزى ذلك بالنسبة لموضوعنا واضح إذن ، فضغطنا على الفتى والفتاة ، ومنعهما من إظهار شعورهما الجنسى بطريقة ما ، مشروعة كانت أم غير مشروعة ، نتيجته وخيمة ، لأن ذلك الدافع ، كما قدمنا ، لايموت ولايتلاشى ، بل يختفى عن الأنظار فى منطقة اللاشعور ، ويؤثر هناك من طرف خفى فى سلوك المرء . فتراه يعمد إلى الفرص غير الطبيعية لإرضائه ، كالعادة السرية ، واللواط ، أو غير ذلك من الطرق الشاذة ، فلا يلبث أن تملك هذه عليه ناصيته ، ولا يحب الرجوع إلى الطريقة الطبيعية ، حين يسمح له بها ، وبذا يصبح شاذا من غير ما شك .

ونريد هنا أن نوضح للآباء والمربين ، أن اختفاء الدافع الجنسى عن الأنظار ، ليس معناه تخلصنا من المشكلة ، فإذا اعتقدنا ذلك ، كان مثلنا كمثل النعامة ، التى يطاردها الصياد حتى تنهك قواها ، فلا ترى سبيلا للتخلص من المشكلة ، إلا أن تضع رأسها فى الرمل ، فكأنها تعتقد أن زوال الصياد من أمام أعينها ، زوال له من الوجود .

الصفات التى تستهوى الشباب فى الجنس الآخر

المفروض أن الأفراد الذين ليس بهم شذوذ يميلون إلى أفراد الجنس المقابل ، إذا توفرت شروط خاصة ، وإن اختلف الأفراد فى قدرتهم على استثارة هذا الميل .

ولقد حاول علماء النفس أن يعرفوا أى العناصر فى شخصية المرء ، تؤثر فى اجتذاب الجنس المقابل ، وتستثير فيه الميل الجنسى ، فاستعملوا للوصول إلى ذلك طريقة الاستفتاء Questionaire . فدل البحث على أن جمال الجسم ، وعلى الأخص جمال الوجه ، أشد هذه العوامل استهواء ، ولو أن الأفراد يختلفون فى مقدار تأثرهم بأجزاء الجسم المختلفة . فالبعض مثلا يفضلون جمال اليدين والقدمين على جمال الوجه ، كما أن آخرين يضعون جمال القد والقوام

فى المحل الأول . وهناك صفات جسمية أخرى تستهوى البعض كالحواجب والفم . بينما آخرون يجتذبهم الهندام والملبس أكثر من جسم الشخص ذاته . ولقد ورد فى إجابات المراهقين ، عن أسباب الكراهية لأفراد الجنس المقابل وجود شبه مابين هؤلاء الأفراد وبعض الحيوانات ، فيقولون إن فلاناً (أو فلانة) يشبه القرد أو الأوز أو القط ، وهذا يكفى لديهم لبيان السبب فى استقباح منظر ذلك الفرد .

غير أن هذا لايمنع وجود بعض المراهقين الذين يفضلون صفات مختلفة فى الجنس المقابل ، ويحلونها المحل الأول . إلا أن الغالبية منهم تضع جمال الجسم فى رأس القائمة . ولقد رتبت هذه الصفات حسب الغالبية التى ترغب فيها ، فكانت النتيجة كالآتى :

(١) جمال الوجه	(٦) الأدب وآداب السلوك (إتيكيت)
(٢) الذكاء والتربية	(٧) الأخلاق الحميدة
(٣) الشخصية	(٨) الصحة
(٤) الأمانة والصراحة	(٩) الظرف
(٥) العطف	(١٠) الطموح

ويحسن أن نتحفظ فنقول إن معنى هذه الألفاظ قد يختلف من فرد لآخر . فما يعد جمالا للوجه عند فرد من الأفراد ، قد لايعد كذلك عند فرد آخر . كما أنه قد يختلف من أمة لأخرى ، ومن جيل لآخر . فمثلا نحافة القوام قد تعد المثل الأعلا عند بعض الشعوب ، وعلى الأخص الشعوب التى ينتشر بينها الرقص ، إذ يمجد الشباب فيها ، بالإضافة إلى نحافة القوام ، طوله أيضا . بينما بعض الشعوب الأخرى تفضل امتلاء الجسم . وكما أن بعض الناس يفضلون الأنف القصيرة المتسعة والوجه المستدير ، نرى آخرين يحبون الأنف الضيق الطويل ، والوجه الطويل أيضا . كذلك مايعتبر جميلا فى زمن ما ، قد لايعتبر جميلا بعده بسنوات ، بين ظهرانى نفس الأمة ، فمعيار الجمال يتغير كالأزياء .

فمثلا منذ نصف قرن تقريبا ، كانت النساء الغربيات تلبس الملابس المنفوخة التى لا تظهر شكل الجسم ، وإنما تعطى السيدة شكلا خارجيا لا علاقة له بجسمها مطلقا ، فكان الشكل العام عبارة عن أقواس ومنحنيات . أما الآن فالخطوط المستقيمة هى السائدة المرغوبة ، وكذا الملابس الضيقة الملتصقة بالجسم ، التى تظهره على حقيقته ، مما دعا إلى احتجاج من يتكلمون باسم الفضيلة والآداب العامة ، وأصبح القوام الممشوق المعتدل مفضلا على الجسم الضئيل والقد الناحل الذى كان يتغنى به قبل الآن . كما أن الشارب كان فى وقت من الأوقات من مميزات الشاب الأنيق الوجيه المستملح ، ثم زال هذا الشارب من الوجود ، ثم إذا به فى أيامنا هذه يعود إلى الظهور ثانية بأشكال مختلفة على مسارح الوجوه الأنيقة ، المهتمة بتتبع أزياء نجوم السينما . أما اللحية فتراها تختلف من أمة لأمة ، حتى فى وقتنا هذا ، فتراها كثيرة الانتشار بين الفرنسيين ، حتى الشبان منهم ، وتراها قليلة بين الأجناس السكسونية ، ولكننا نراها تبذل مجهودا ضئيلا للعودة ، بين طلبة الجامعات فى انجلترا مثلا ، فى السنوات الأخيرة . أما الفتاة ، فشبان اليوم يفضلونها نشطة ، سريعة الحركة والكلام ، مسترجلة لحد ما ، بدلا من فتاة الأمس ، الضعيفة ، البطيئة الحركة . الظاهرة الأنوثة ، الناعمة الكلام والملمس . وتيار التحول ظاهر للعيان فى مصر ، بخروج الفتيات من خدرهن إلى ميدان الحياة العامة .

من تلك الملاحظات السابقة ومن غيرها نستطيع أن نقول إن كل ما يعتبر فى وقت من الأوقات حديثا (أو مودة) ، يكون ذا تأثير خاص فى استهواء أفراد الجنس المقابل ، سواء أكان ذلك فى الملبس ، أم فى طريقة تصنيف الشعر أم فى استعمال الأصباغ وأدوات الزينة ، أم فى طريقة الكلام والسلوك ، إلى غير ذلك .

وهذا له مغزى للآباء والمربين . فإن إجبارهم أبناءهم وبناتهم على اتخاذ زى كان سائدا فى أيام شبابهم معاشر الآباء ، مهما كان جميلا ، ومهما كان

مناسبا للفضيلة والآداب ، يكون بمثابة فاصل بينهم وبين شبان وشابات اليوم لأنه غير جذاب ، ومعيار الجمال نسبى فى هذه الحالة على الأقل . فالأم التى ترغم ابنتها على اتخاذ زى كان سائدا منذ ثلاثين سنة مثلا ، تفقدها جاذبيتها لشبان اليوم ، بناء على القاعدة التى استنتجناها منذ قليل .

نستخلص مما سبق بعض النتائج ، منها أن الفتيان ، والفتيات الذين يخالطون الجنس المقابل ، ويودون أن تكون لهم الحظوة فى مجالسهم ، عليهم أن يعنوا بالملبس كعنصر من عناصر الجاذبية ، وإلا كانت النتيجة على عكس ماينتظر . ولسنا نرى أنهم فى حاجة كبيرة إلى مثل تلك النصيحة الذهبية من لدنا ، فالفتيان والفتيات أعلم بها منا ، وينساقون إلى أتباعها بدافع داخلى غريزى قبل أن يقرأوها فى الكتب أو يرشدوا إليها . وغنى عن البيان أن الكثيرات من الفتيات الأحداث ، اللاتى قبض عليهن بتهم يعاقب عليها القانون ، كان أهم دافع لهن على ارتكاب تلك الجرائم ، غرامهن باللبس والزينة ، وسعيهن بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة للحصول عليها . وربما كان هذا الغرام بالملبس والزينة أشد عند البنات منه عند الصبيان . وتعليل ذلك أن موقفهن مع الجنس الآخر سلبى ، فعليهن أن يجتذبن أنظاره بمثل تلك الحيل ، وإلا أغفلن . أما الجنس الآخر فموقفه إيجابى ، فعليه الإقدام والبحث ، وقد يقدم من طرق الإقناع والاستهواء ، ما يغنى عن جاذبية الملبس والزينة ، كالقوة الجسمية والخلقية والاجتماعية ، وكالمال وغير ذلك .

ونود هنا أن ننبه القارىء إلى أننا لسنا بصدد قاعدة خلقية ، نزفها للشباب ونود أن ينصرف إلى العناية بملبسه والاشتغال باستهواء الجنس الآخر ، وإنما نحن نقرر حقيقة نفسية ، على الآباء والمربين أن يعلموها أولا ، ثم على أساسها يضعون خطتهم الأخلاقية ، بدلا من أن تكون خطتهم على عكس الميول والدوافع النفسية القوية ، فتظل غير ذات جدوى فى نفوس الشباب ، ويكون

تطبيقها مستحيلا ، اللهم إلا بالإرغام والرهبة ، وعندئذ نقع فى مضار الكبت إذا أفلحنا فى السيطرة التامة على الشباب ، أو يلجأ هؤلاء إلى إرضاء دوافعهم من طرق خفية تحت الستار ، فيكون مثلنا كمثل النعامة التى ذكرناها .

ونوجه النظر أيضا إلى عنصر هام، له أثر كبير فى استثارة الفضول الجنسى، ألا وهو الغموض والإبهام ، فمن أهم العوامل التى تساعد على تجاذب الجنسين حب الاستطلاع والرغبة فى استجلاء ماغمض من صفات الجنس الآخر . وقد لوحظ أن كل ماهو جديد أو غريب فى الأمور الجنسية يزيدها قوة، وبالعكس الألفة تقلل من قيمتها ، وتضعف قوتها على الاستثارة . وربما كان هذا هو السبب فى تقلب أزياء السيدات بتلك السرعة المعروفة ، فالملابس القديمة لا تكاد تبلى إلا ويكون الزى الجديد قد ظهر ، ولذا فهن يحافظن بذلك على عنصر الغرابة .

وبناء على القاعدة السابقة ، نجد أن الحب الممنوع أقوى من الحب المباح، فالمحبان اللذان يحال بينهما ، يهيمان الواحد بالآخر ، والأب الذى يمنع فتاة من الزواج بفتى يميل إليها ، يزيد حبهما اشتعالا ، وخاصة إذا منعهما من أن يرى أحدهما الآخر ، فالفصل يزيد عنصر الإبهام ، ويعطى مجالا للخيال . فالمثل القائل بأن أحب شىء إلى الإنسان ما منع ، صحيح تؤيده الحقائق السيكولوجية . وخير للآباء هنا أن لايسلكوا طريق الأوتوقراطية والبطش ، فى معالجة مثل تلك الأحوال ، فإذا كان ولابد من الوقوف فى سبيل العلاقات بين الطرفين ، فعليهم أن يلجأوا إلى الإقناع ، وذلك ببيان الأسباب التى أدت بهم إلى سلوك خطتهم هذه ، وعلى قدر إفلاحهم فى هذا الإقناع ، يكون نجاحهم فى إضعاف تلك العلاقات . ولسنا بمدعين أن الإقناع سوف ينجح فى كل الحالات من غير ماشك ، وإنما نود أن يترك التحكم والبطش إلى آخر فرصة ، حيث لا يجدى الإقناع ، وعندئذ يجب أن يكون أولو الأمر على بينة من نتائج خطتهم ، ويصبحون فى موقف من يختار أهون الضررين . وهذا هو

السبب فى استعذاب المتاعب ، وتحمل المشاق عن طيب خاطر ، فى سبيل الحب ، لأن تلك العقبات لاتزيده إلا قوة ، بينما على العكس ، الحب الذى يرى كل من الفتاة والفتى أن الأبوين يدفعانهما إليه ، يكون بارداً سقيما ، ضعيف العاطفة بطىء التأثير . وكثيراً ماتكون تصرفات الآباء على عكس مايرغبون ، فقد يحدث أنهم إذا رغبوا فى زواج فتى من فتاة ، قربوا بينهما قدر المستطاع ، فيضيع عنصر الغرابة ، وتدب الألفة بينهما ، فتهدأ العاطفة . ويبعدون الفتى والفتاة اللذين لايرغبان فى زواجهما ، فيصبح كل منهما مصدرا للرغبة ، ومذكيا لحب الاستطلاع . وهنا ثانية لانريد أن نملى مايجب أن يفعله الآباء والأمهات بالضبط ، فكل حالة لها ظروفها الخاصة بها ، وإنما نكتفى بتقرير الحقيقة السيكولوجية للاسترشاد بها .

ومن الحقائق السيكولوجية الهامة ، أن الغريزة الجنسية شديدة الصلة بكل الانفعالات والغرائز والعواطف الإنسانية الأخرى . فمن تلك الغرائز غريزة حب السيطرة ، فالفتى يستعذب تحمل المسئولية لحماية فتاته ، والسهر على راحتها ، ويلذ له أن يمتدح فى هذه الناحية ، ويغضب إذا تشكك أحد فى قدرته على ذلك ، ويجرح أيما جرح إذا هزأت به فتاته ، ورمته بالنقص والضعف عن مجاراة أمثاله من الرجال .

كذلك حب التملك دافع قوى ، شديد الاتصال بالدافع الجنسى ، فالإنسان إذا أحب شخصا افترض ملكيته ، ويلذ له أن يشعر أيضا أنه ملك للشخص الآخر ، أى أن حب الملكية متبادل . ويثير الدافع الجنسى والحب عدم وثوق الشخص من ملكيته للطرف الآخر ، ولذا فإن الحب بين المتزوجين أهدأ منه بين العشاق ، نظرا لوثوق كل منهما من ملكيته لغريمه . ويظل الشك والاهتمام ، حتى يوثق رباط الألفة والاجتماع بينهما ، فيطمئن كل منهما إلى ملكيته لصاحبه ، ويتأكد من عدم ابتعاده عنه وذلك بالخطوبة أو العقد أو غير ذلك . وربما كان هذا هو السبب فى أن بعض المتزوجات من النساء

يلجأون إلى إظهار العطف على غير أزواجهن ، إذا ما خمد حب هؤلاء لهن ، وذلك بالتمدح أمامهم بصفاتهم الحميدة والإعجاب بهم . ولسنا ناصحين باتخاذ تلك الخطة ، فإنها قد تستثير الغضب بدلا من الحب ، وتؤدى إلى مالا تحمد عقباه .

غير أن الغريزة الجنسية قد تستثيرها أشياء غير المثيرات الطبيعية لها ، إذا اقترنت هذه بالمثيرات الطبيعية فى الذهن . فالمثير الطبيعى ، هو أفراد الجنس الإنسانى من النوع المقابل ، ولكن قد تستثيرها صوره ، أو أصواته إذا سمعت من غير رؤيته ، فى الراديو أو اسطوانات الحاكى مثلا ، حتى إن هذه المثيرات غير الطبيعية كثيرا ما تستخدم لاستثارة تلك الغريزة عمدا فى غياب المثير الطبيعى ، وهذا طبعا نوع من الشذوذ ، لانود أن ينحدر إليه الفتيان والفتيات . كما أن الخيال وسيلة سهلة لاستثارة الميل الجنسى ، ولذا فإن الكثيرين من البالغين والبالغات يفرطون فى استخدامه ، لدرجة تؤثر فى صحتهم وخلقهم حتى يصبح الواحد منهم فى عداد المرضى ، والمرض البدنى فى تلك الحالة أهون ضررا من المرض النفسى إذا اشتد ، فقد يتطور الأمر إلى انغماس المراهق فى عالم الخيال ، فيزداد بعده عن عالم الحقيقة ، فتتلقفه الأوهام ، وتثبط همته عن مواجهة هذا العالم المادى الحقيقى .

ومن أنواع الشذوذ الجنسى أيضا ، أن يعمد البعض إلى أفراد من نفس جنسهم ، فى غياب المثير الطبيعى ، وهو أفراد الجنس المقابل طبعا ، وذلك شائع بين المراهقين ، وغير خاف ماله من التأثير الخلقى الكبير على الطرفين ، وقد يصبح عادة يصعب استئصالها ، فيفقد المثير الطبيعى قوته ، ويصبح المثير الثانوى هو المتسلط الوحيد ، وذلك شذوذ خطر من غير ما شك . وسيأتى الكلام عن الشذوذ فى شىء من التفصيل فيما بعد .

النمو الطبيعى للغريزة الجنسية

كان المفروض سابقا ، أن الطفل لا تشوب أعماله أية صبغة جنسية ، وكان المعتقد أن أول شعوره بالدافع الجنسى ، يبدأ عند البلوغ . ولكن علماء النفس الآن قد تبين لهم خطأ هذا الفرض ، فهم يقولون إن الغريزة الجنسية تبدأ مع الطفل منذ ولادته ، ولا تزال تنمو بنموه . ولقد دلت الأبحاث السيكولوجية على أنها تبدأ فى وقت مبكر جدا ، وأنها تجب المحافظة عليها ، بتعهدها وتربيتها منذ ذلك الوقت . وليس هناك انتقال فجائى عند البلوغ ، كما يقول البعض ، وغاية ماهناك أن ذلك النمو الذى كان مستمرا طول الوقت ، يبدأ ظهوره للعيان ، ويبدأ تأثيره التدريجى فى حياة الفرد .

ويدخل الناشئون فى دور المراهقة تدريجيا فلا يمكن الإشارة إلى يوم أو أسبوع لاكتمال ذلك النمو . كما أن الأفراد يختلفون فى موعد دخولهم فيه ، واكتمال نموهم كما قدمنا فى الفصول السابقة . ويمكن اعتبار المرء كامل النمو من الوجهة الجنسية حين تتوفر لديه الكفاءة لأن يكون أبآ أو أما . ويتخذ ظهور السائل المنوى دليلا على نضوج الغريزة الجنسية لدى الذكور ، والحيض دليلا على نضوجها لدى الإناث . وهناك أعراض أخرى تدل على ذلك كظهور الشعر وتغير الصوت .

وتلك التغيرات الجسمية شديدة العلاقة بحالة الناشئين النفسية والاجتماعية فهى تدفعهم إلى ملاحظة أفراد الجنس المقابل والسرور من صحبتهم ورؤيتهم . كما أنها تؤثر فى خيالهم وإنتاجهم العقلى . فقد يغرمون بالشعر وعلى الأخص الغزل ، أو بالفن الذى يمثل جمال الجسم ، مما هو بلا شك نتيجة لاتجاه ميول الفرد نحو تلك النواحى .

ويشعر الفتيان عادة بالنخوة لبلوغهم مظاهر الرجولة ، ويفخرون برجولتهم

وقوتهم ويغضبون لامتهانها ، ويجدون لذة فى العناية بالضعيف من النساء والأطفال لأن ذلك مظهر لقوتهم ورجولتهم .

ويقترن نمو الغريزة الجنسية ونضوجها بكثرة الأسئلة التى تنشأ فى نفوس الناشئين عنها ، إذ يزيد حبهم لاستطلاع خفاياها ، وليس هذا بمستغرب ، فذلك أمر كل شىء جديد غريب ، وعلى الأخص إذا ماعلمنا بقوة الغريزة الجنسية وأهميتها فى حياة الفرد حاضرا ومستقبلا .

ومن الخطأ أن نفترض أن الطفل لايخوض فى المواضيع الجنسية قبل البلوغ ، فالأطفال يتحدثون عن أعضائهم الجنسية ويتحدثون عن الزواج ، ويعلم الكثيرون منهم الشىء الكثير عن كيفية حدوث النسل وولادة الأطفال ، ويفهمون معنى المصطلحات الشائعة ، كأسماء الأعضاء الجنسية والجماع وغير ذلك . بل إنا لنزيد عن ذلك فنقول إن نسبة ، غير قليلة من الأطفال يلعبون بالمسائل الجنسية فعلا قبل البلوغ ، لاعن رغبة جنسية حتما ، وإنما من قبيل حب استطلاع المجهول والتجريب ، فالأطفال قد ينظرون إلى أعضائهم الواحد إلى الآخر ، وقد يلعبون بها فعلا فى أوقات خلوتهم وابتعادهم عن أعين الكبار ، سواء أكانوا من جنس واحد كلهم أم من الجنسين . غير أن خبرة الأطفال قبل البلوغ بالمسائل الجنسية لاتقترن بانفعالات قوية ، ولو أنها قد تقترن بسرور طفيف ، ولا خطر منها لأنها من قبيل اللعب ، غير أنها إذا تعدت ذلك تصبح خطيرة ، لا فى حد ذاتها فى الطفولة فحسب ، بل تصبح عادة تستمر إلى ما بعد ذلك الدور . ومن أخطر مايكون اختلاط الأطفال بمن هم أكبر منهم سنا من الأطفال أو الراشدين ، فقد يغريهم هؤلاء بإتيان أعمال خبيثة يكون لها أوخم العواقب . وقد حدث مرة أن ممرضة تعودت اللعب مع طفل تتعهده ، وجعلت تلعب بأعضائه الجنسية ، حتى انتهى الأمر بإصابته بمرض جنسى كان بها . وعلى سبيل الإيضاح نورد المثال الآتى أيضا .

تعلم طفل العادة السرية منذ سن السادسة ، علمها له طفل آخر أكبر منه سنا ، وبعد بضع سنوات كان يزاولها حوالى خمس مرات أو ست فى الأسبوع ، فبدأ يسوده القلق والهم من آثارها ، واستولى عليه الاضطراب ، وعلى الأخص أنه استمر فيها خلال سنوات المراهقة ، ورغم محاولته التغلب عليها لم يفلح ، واستمر فيها حتى سن الخامسة والعشرين ، ولو أن عدد المرات قل عندئذ .

ليس ذلك المثال وحيداً فى بابه ، وليس إلا واحداً من آلاف الأطفال الذين يتعلمون تلك العادة من إخوانهم ، وليس من شك فى أن الشبان الذين يزاولون الاستمناء أو العادة السرية عددهم كبير ، إذ دلت الأبحاث التى أجريت فى أمريكا على انتشارها وطول عهد مزاولتها ، وحبذا لو كانت لدينا أبحاث تبين لنا مدى انتشارها فى مصر وبلاد الشرق . ولكن اعتقادنا أنها لا تقل عن أمريكا نظرا لتقاليدنا التى تقيد اختلاط الجنسين .

ويتميز دور المراهقة باتجاه الاهتمام نحو أفراد الجنس المقابل ، ولم يكن الأمر كذلك قبل ذلك الوقت ، فهذا هو الطريق الطبيعى لتلك الغريزة ، الذى تصل به ميول الفرد الفسيولوجية والسيكولوجية إلى غايتها الطبيعية التى أعدت لها ، والذى به تستقيم صحة الفرد وعقليته . فهذا الاتجاه ضرورى لسلامته الصحية والنفسية والعقلية . غير أن الشباب يجد صعوبة فى الوصول إلى تلك الغاية ، نظرا للعقبات الاجتماعية والدينية ، التى تتمثل فى الآباء والمربين ورجال الدين ، وفى القانون والتقاليد والعرف .

أما الدين والتقاليد والعرف والقانون ، فتعارض فى الوصول إليها إلا من الطريق المشروع ، ألا وهو الزواج . وولاة الأمر والظروف الاجتماعية والتقاليد والعرف كذلك تعارض فى الزواج المبكر قبل أن يصل الفتى إلى مرتبة الرجال . ومعارضتهم هذه تقوم فى جوهرها على أسس اقتصادية ، وإن لم تكن تلك الأسس ظاهرة واضحة لهم بطريقة مباشرة . فالفتى المراهق ،

كما قدمنا ، لم يصل بعد إلى درجة الاستقرار من الوجهة الاقتصادية ، وذلك يعوقه عن القيام بواجبات رب الأسرة ، وعلى الأخص فى حالة إنتاج النسل . ولكن الموانع الاقتصادية ليست الموانع الوحيدة طبعاً ، فهناك موانع أخرى ، وإن تكن أقل أهمية من الموانع الاقتصادية ، فضلا عن أن الكثير منها يمكن إرجاعه إلى الأساس الاقتصادى . فالفتى الناشىء لم يكون له مركزاً فى الهيئة الاجتماعية ، وأهله لا يودون أن ينصرف بعد عن السمو نحو المركز الذى يصبو إليه ، أو الذى يتمنونه هم له . كما أن خبرته فى الحياة لم تكتمل بعد ، وعلى الأخص فى أيام المدنية الحديثة ، التى تزيد فيها مطالب الحياة من الفرد ، فتطلب منه كفايات مرتفعة المستوى ، من الوجهة العقلية والخلقية والعلمية ، تلك الكفايات التى لا يصل إليها إلا بعد مران طويل ، سواء أكان فى المدارس والجامعات ، أم فى معترك الحياة العملية والعلمية والاجتماعية .

من أجل هذا كله ، يتضافر ولاة أمره على إخماد ميوله الجنسية ، ومنعها من الظهور فى وقت هى أحق ما تكون فيه بالنمو إلى غاية كمالها ، نموا مستقيما لا اعوجاج ولا تحايل فيه .

وفى السنين التى تسبق البلوغ ، لا تكون ميول الطفل موجهة بشكل واضح نحو أفراد الجنس المقابل ، ولا تكون الناحية الجنسية ظاهرة الاهمية فى حياته (١) . فميله نحو الالتصاق البدنى غير محدود ، وغير متركز فى منطقة خاصة ، وعواطفه تتجه نحو الجنسين على حد سواء . أما السنين التى تلى بدء البلوغ ، فإن عواطفه تبدأ تدريجياً فى الاتجاه نحو الجنس المقابل ، وهذا خير وقت يستطيع الفرد فيه أن يعود نفسه موقفاً طبيعياً صحيحاً ، بعيداً عن الشذوذ ، تجاه الجنس الآخر . فإذا فشل الفرد فى ذلك ، تأصل الشذوذ من

---

(١) وإن يكن هناك بعض علماء النفس ، مثل فرويد النمساوى ، وفلوجل الانكليزى ، الذين يقولون إن الغريزة الجنسية هى المحور الذى تدور عليه حياة الطفل والراشد

نفسه ، وتأثرت حياته فى مستقبل الأيام لحدما ، كبيرا كان أم صغيرا . إذ أن هذه الميول إذا اعترض نموها الطبيعى فى وقت من الأوقات ، وعلى الأخص فى تلك السنوات ، يندر أن تعود فيما بعد إلى شكلها الطبيعى ، بل لا بد وأن يعتورها شىء ولو قليل من الشذوذ ، يستلزم التخلص منه تربية خاصة ، وتكوين عادات خاصة من جديد ، تسبب للمرء آلاما نفسية وجسمية ، كان فى غنى عنها لو سمح لها بأن تتخذ منفذاً طبيعياً لها ، فى وقتها المناسب . وليس هذا بمستغرب ، ما دام عقل المرء وإرادته فى كفاح مع ميوله وأهوائه ومطالبه الفسيولوجية الضرورية ، إذ أن ذلك الكفاح ، فضلا عما به من ألم نفسى ، يستنفد جزءا كبيرا من الطاقة العصبية . وهو إذا اشتد سبب انفصالا فى الشخصية ، إذ أن الجزء من النفس الذى يسبب لها هذه الآلام ، يكبت ، ويحاول الإنسان فصله منها ، ولكنه لا يستطيع إلا فصله من ميدان الشعور ، فيظل فى اللاشعور فعالا مؤثراً تأثيراً خفيا ، يكون بالطبع شاذا ، وعندئذ يصبح الفرد فى عداد المرضى من الوجهة النفسية ، وهكذا يظل شاذا مريض النفس ، غير صالح طبعا للحياة الاجتماعية مع غيره من الأصحاء

ومن الأمور التى تعتور النمو الصحيح للغريزة الجنسية ، الضغط الشديد على نفسية الناشئين وتصرفاتهم ، وجهلهم بأسباب الدافع الجنسى ونتائجه ، والخوف الشديد الذى قد يقترن به فى نفس بعض الناشئين ، وعلى الأخص البنات ، أو الشغف الشديد به وشدة الشوق إلى استطلاعه

ونشير هنا إلى أن شغف الناشئين وشوقهم إلى استطلاع الأمور الجنسية ، يؤدى بهم إلى تصيد المعلومات عنها ، بالسؤال أو القراءة أو استراق السمع والنظر ، أو إلى الإتيان بالفعل الجنسى ذاته إذا سنحت الفرصة ، ولو من قبيل العلم بالشىء وإطفاء الفضول . وليس العقاب أو التأنيب أفضل طريق لحماية المرء من العواقب الوخيمة ، وإنما يجب على الآباء والمربين أن يعلموا أن ذلك الشوق والفضول أمر طبيعى ، لاينجو منه أى شخص سليم الجسم ، وأنه ليس عارا

وإنما العار يأتى من اصطلاح الهيئة الاجتماعية . وخير من تأنيب الناشئين وكفهم عن الخوض فى هذه المسائل، مناقشة بعضها معهم، والتفاهم معهم على مايليق الكلام فيه وما لايليق .

وكثيراً مايعترض الأبوان النمو الطبيعى ، ويؤثران على حالة الطفل العقلية تأثيرا بالغاً بطرق شتى ، منها مثلا علاقاتهما الواحد مع الآخر . فالطفل الذى ينشأ فى سط عائلى يسوده الشجار والتشاحن ، ويخيم عليه الشقاء ، يضطرب نموه ، وتشد انفعالاته وعواطفه ، وهذا يؤثر بدوره فى علاقته المستقبلة مع الجنس المقابل ، لأنه أثناء حياته فى ذلك الوسط التعيس ، لابد وأن يتخذ لنفسه موقفا خاصا تجاه كل فرد من أفراد العائلة ، ذكوراً كانوا أم إناثا ، تبعا لموقفهم هم نحوه ، وهذا يؤثر فى عواطفه الموجهة نحوهم . وهذه المواقف المقترنة بالحب والكراهية والفزع والخوف إلى غير ذلك ، سوف تحدث فى حياته المستقبلة مواقف تشبهها ، ولذا فإنها تستثير ذكراها ، مع مايقترن بها من انفعالات وعواطف ، وتلك العواطف والانفعالات القديمة تحدد سلوك الفرد فى المواقف الجديدة بطريقة لاشعورية .

وليس من شك فى أن نمو الناحية الجنسية ، يستلزم وجود مايثيرها ، ألا وهو أفراد من الجنس المقابل . وليس من شك فى أننا معاشر الشرقيين ، فى أوساطنا لاتسمح باختلاط الجنسين ، ولا نقره خوفا من النتائج الوخيمة التى تنجم عنه ، والتى لايمكن تجاهلها لشدة خطرها على النسل وعلى الأخلاق والدين . فالمبدأ الذى قام عليه موقفنا تجاه الاختلاط مبدأ سليم ، وعلى قادة الاجتماع ، إيجاد الحل الذى يوفق بين ذلك المبدأ والحقائق السيكولوجية ، التى أثبتها العلم ، حتى نوفق بين مصلحة الفرد الصحية والنفسية وبين مصلحته الاجتماعية . ولكن مهما يكن هذا من الوجهة الخلقية ، فالحقيقة السيكولوجية موجودة لاتتغير ، وهى أن الكثيرين من شبابنا ، الذين لم يتيسر لهم سبيل الاختلاط المشروع ، يعتور أخلاقهم نوع من الشذوذ ، يظهر بأشكال شتى

فى معاملاتهم وسلوكهم الاجتماعى . وأظهر هـذه الأشكال استنفاد جزء كبير من الطاقة العصبية ، التى كان يصح أن تنصرف إلى النواحى المنتجة لخيرهم وخير البـلاد . وهذا يفسر لحد كبير ، انصراف الشبان فى مصر ، عن الأعمال التى تحتاج جهداً وابتكارا وتفكيرا بالليل والنهار ، ذلك لأن تفكيرهم وطاقتهم العصبية مستنفدة فى نواح أخرى .

ولا نريد أن نعفى هؤلاء الذين أعطو أنفسهم الحرية غير المشروعة أيضا، فهؤلاء وإن سلموا من أنواع الشذوذ السابقة ، أو بعضها ، يقعون فى غيرها ، فإن علمهم بأن اصطحابهم هـذا غير مشروع ، له تأثير أيضا على سلوكهم . فاضطرارهم إلى الاختفاء دائمـا عن أعين الهيئة الاجتماعية ، واختلاطهم بمن ليسو على شاكلتهم من الفتيات . واضطرارهم إلى اغتنام الفرص أينما سنحت وحينما تسنح ، كل هذا لابد وأن يكون له تأثير فى سلوك هؤلاء الشـبان من الوجهة الخلقية والسيكولوجية . وكنا نود أن نطيل الشرح والتفصيل فى أمراض شبابنا الاجتماعية ، لولا ضيق المقام ، ونرجو أن تسنح لنا الفرص فى المستقبل فنفرد لهـا بابا أو مقالا خاصا .

وإن الأفراد الذين يؤجلون زواجهم أمدا طويلا ، لحين سنوح الفرصة الاقتصادية ، يمهدون السبيل لتولد الآراء والميول المضرة بالصحة . فأقل مافى الأمر أن ترتفع قيمة النساء فى نظرهم ، إلى حـد غير طبيعى ، فينظرون إليهن كأنهن ملائكة من السماء ، أومعبودات مقدسة ، لاترنو إليهن الأعين إلا بكل احترام وتقديس ، وأنهن ماخلقن إلا للعبادة والتبجيل . وليس بخاف مافى ذلك من ضرر ، فإن تولد مثل تلك المعتقدات عند الفتى ، والاسترسال فيها ، لابد أن يقف فى سبيل نشوء أية علاقة جنسية طبيعية فى المستقبل ، بينه وبين الجنس الآخر . وكذلك فى حالة البنت ، نجد أن الآباء والأمهات ، ليضمنوا كف نظرها وتفكيرها فى الرجال ، يحاولون تشويه سمعتهم وتصويرهم على غير حقيقتهم ، فيصورونهم بأنهم مصـدر خطر على سمعتها وعفتها وطهارتها ،

وأنهم ليس حولهم سوى الخطر ، والقضاء على مستقبلها . وغنى عن البيان أن الفتاة تتقبل ذلك من غير مناقشة أو تمحيص ، فيلقى فى روعها حب الابتعاد عنهم ، وتكون لنفسها صورة مشوهة عنهم ، قد تؤثر فى سلوكها معهم ، لا قبل الزواج فقط ، بل طول حياتها ، وبذا تقف حجر عثرة فى سبيل قيام الحياة الزوجية السعيدة .

ولقد ذكرنا فى فصل (فطام الشباب) أن الفتى والفتاة اللذين لا يستطيع أحدهما التخلص من القيود الوجدانية أو الانفعالية ، التى تربطه بأبويه ، يكون عرضة لأن تقف هذه القيود حائلا مانعا فى سبيل اقترانه بالجنس الآخر ، وتكون النتيجة إما أنه يخفق فى اقترانه بالجنس الآخر ، وإما أن يصر على أن تعيش زوجه معه فى بيت والديه ، وهذا أيضا قد يعتبر علامة من علامات النقص فى النمو الجسمى ، إذ أن النمو الطبيعى يقتضى أن يوجه المرء كل الإخلاص والمحبة نحو زوجه ، وأن لا يقسما بين الزوج والأبوين .

ويقترح علماء النفس اتباع طريقة (الإعلاء) للتخلص من ضغط الدافع الجنسى وآثاره لحين توفر الفرصة المشروعة . والإعلاء معناه رفع الدافع الغريزى عن مستواه إلى مستوى يعتبره العرف أعلى وأرقى . ويكون ذلك بتوجيه ميول المرء وآماله نحو أغراض علمية أو فنية أو اجتماعية تشغل ذهنه وتصرفه عن مضايقات الدافع الجنسى ، كالاشتغال بالفن أو الأبحاث العلمية أو الاشتراك فى الأعمال الخيرية وتكريس نفس المرء ووقته لمساعدة الفقراء إلى غير ذلك على حسب ميول المرء واستعداداته وظروفه . غير أن بعض علماء النفس يرون أن الإعلاء ليس علاجا ناجعا للمشكلة الجنسية ، وأنه من المستحيل صرف ذهن المرء عنها صرفا تاما ، وعلى الأخص أننا نعيش فى عالم تكثر به مثيرات تلك الغريزة .

ولكنهم يسلمون بأن الإعلاء قد يكون علاجا جزئيا لا علاجا تاما .

وكثيرا مايكون خضوع المرء للتأثيرات الجنسية أمراً خارجا عن إرادته فكثيراً مايحدث أن يجد الفتيان أعضاءهم منتصبة حتى قبل البلوغ على غير إرادتهم ، كما أن الانتصاب أمر عادى فى الصباح لمجرد امتلاء المثانة لا لتهيج جنسى ، كما أن بعض الناس يحدث لهم الانتصاب أثناء الأسفار الطويلة بالسيارة مثلا .

والأحلام كذلك أمر آخر خارج عن إرادتنا ، ويحدث فيها التهيج الجنسى كأنه حقيقة واقعة . وهى أمر طبيعى لا جرم ولا عار فيه ، ويجب أن يفهمه الناشئون على حقيقته .

وهناك غير ما تقدم ظروف تؤدى إلى التهيج الجنسى ، وقد تكون غير مقصودة ، كالضغط الذى يقع على الأعضاء الجنسية أثناء النوم مثلا ، أو بعض أصناف معينة من الطعام أو ركوب الدراجات أو المشروبات الروحية .

وقد يتيسر الإعلاء لفرد من الأفراد بمشقة أقل من فرد آخر تبعا لطرق تربية كل والوسائل التى تعينه على تهذيب النفس وتنظيم الميول . فالناشىء الذى يكون له أبوان يفهمان أهمية التربية الجنسية يكون له عضد عظيم فى مواجهة مشاكل الحياة الجنسية . كما أن العائلة المنتظمة التى لا يسودها التهتك أو إدمان الخمر ، تكون سياجا للأطفال والفتيان الذين ينشأون فيها . أما الفتيان الذين ينشأون فى عائلة يسودها النزاع والإهمال ، فيكون حظهم تعسا لقلة من يهتم بأمرهم من جهة ، ولانفتاح الطريق أمامهم للاختلاط بخلان السوء ، فضلا عن أن الانغماس فى الملاهى وإدمان الشراب لايساعد على إعلاء ميول الفتى الجنسية ، فإن الاعلاء يحتاج إلى حياة منظمة ، وعزيمة قوية ، وحسن نظام فى الطعام والشراب والنوم والنظافة والراحة إلى غير ذلك .

فالغريزة الجنسية وثيقة الاتصال بغرائز المرء الأخرى وأعضائه التناسلية وغير التناسلية . وإدمان الشراب من الأمور التى تجعل الاشراف على الميول الجنسية صعبا . كما أن تجمع الأقذار حول الأعضاء الجنسية يؤدى إلى تهيجها

مما قد يؤدى بدوره إلى الرغبة فى الاستمناء أو الاختلاط الجنسى . هذا وقد يكون للملابس أثر فى استثارة الغريزة الجنسية . ولذا يستحسن أن لا تضغط الملابس على الأعضاء الجنسية أو تؤدى إلى الاحتكاك الكثير بضيقها مثلا .

ويحسن بالناشئين الذين يودون الهيمنة على الغريزة الجنسية بالإعلاء تحاشى الظروف والأشياء المهيجة ، والتى توجه الانتباه إلى الأمور الجنسية كالصور المخلة بالآداب وسينما التهتك والرقص والمخدرات إلى غير ذلك .

الحب فى دور البلوغ(١)

منذ الطفولة يلاحظ شىء ولو يسير ، من الرغبة بين الجنسين ، ولو أن هذه الرغبة تكوى فى العادة خالية من أية صبغة جنسية ظاهرة للعيان . فكثيرا ما يرى أن بعض الأطفال الصغار يحاولون إظهار براعتهم وتفوقهم فى الجرى مثلا ، أمام بعض البنات ، كما أن هؤلاء قد يحاولن اجتذاب التفاتهم بطرق شتى ، كالضحك بصوت عال ، أو الإتيان بحركات مضحكة وهكذا ، غير أن هذه المحاولات ليست ذات قيمة حقيقية ، ولا تشغل بال أحدهما بصفة جدية ، إلا بعد البلوغ ، عند ما تأنف البنات من اللعب بالعرائس مثلا ، ويأنف الأولاد من ملابس الطفولة ، ويبدأون فى حلاقة لحاهم . عندئذ يحتمل نشوء الحب بين الجنسين . ولو أن كيفية إظهار ذلك الحب تختلف من عصر لعصر ومن أمة لأمة .

الفرق بين الأفراد المختلفين فى الدافع الجنسى

مادام البحاثة لم يستطيعوا قياس الدوافع الجنسية بعد ، فمن الصعب أن نحكم إلى أى حد تختلف فرد عن آخر ، من حيث قوة رغبته فى الاختلاط الجنسى ومن حيث تغير هذه القوة مع السن ، ومن حيث قوتها عند الذكور والإناث

(١) Courtship

إلا أننا نرى من الملاحظة العادية ، أنه من السهل إدراك أن البعض لديهم هذا الدافع ضعيف جدا ، وهؤلاء قليلون بالنسبة لمجموع الجنس الإنسانى ، بينما آخرون لديهم ذلك الدافع قوى لدرجة شاذة ، وهؤلاء أيضا قليلون ، وبين هذين النقيضين توجد البقية ، وهم الغالبية العظمى من الأفراد ، ومع أنهم لا تتوفر لديهم كلهم تلك الرغبة بدرجة واحدة ، فإنا نستطيع أن نقول إنهم كلهم لديهم على الأقل ما يكفى لاستمرار النوع الإنسانى ، وإلا لتلاشى الإنسان من عهد بعيد .

وقد يتساءل البعض أى الجنسين أشد رغبة فى الاختلاط الجنسى ، وعما إذا كان شعور كل منهما يختلف فى النوع عن شعور الجنس الآخر . والجواب على ذلك صعب ، مادمنا نعتمد على الملاحظة العادية ، فإن الظروف التى يعيش فيها أفراد كل جنس ، تختلف تبعا للظروف الاجتماعية والاقتصادية . فالفتيان مثلا ظروفهم الاجتماعية ، وتقاليدهم التى يخضعون لها ، تختلف عن تلك التى تخضع لها الفتيات مثلا ، ولذا فمن الصعب أن توازن بين الدافعين أو الرغبتين خالصتين ، من غير تأثير تلك الظروف والتقاليد . ثم إن الوقت الذى يمضى قبل ظهور الدافع الجنسى بشكله القوى فى دور المراهقة ، تكون فيه تربية الصبيان مختلفة عن تربية البنات ، وهذا طبعا له تأثير فى سلوك كل منهما بعد ظهوره .

أحوال الشذوذ

ذكرنا من قبل أنه فى السنين الأولى من حياة الطفل يكون الدافع الجنسى غير محدود الغرض ، وضعيفا فى القوة ، فإذا أقيم بينه وبين تحقيق غرضه حائل ، فإنه من السهل أن يتحول عن طريقه الأصلى ، ويتخذ له مجرى غير طبيعى ، فإن الفرد لا يستريح حتى يظفر ذلك الدافع بغرضه الذى خلق من

أجله فيأخذ فى طرق جميع الأبواب الممكنة ، وكثيرا ما يحاول محاولات عمياء ، لا تؤدى إلى الغرض المقصود ، حتى يهتدى إلى طريقة تبعث على الارتياح ، وعندئذ يميل إلى تكرارها حتى تصبح عادة ثانية .

غير أنه توجد طرق كثيرة لإرضاء الميل الجنسى ، غير الطريق الطبيعى ولو أنها قد تقرب منه من حيث الارتياح الجثمانى الناتج . فهذه الطرق قد يعمد إليها الفرد فى أثناء محاولاته التى ذكرناها ، فى حالة عدم توفر الطريق الطبيعى وهنا ينشأ الشذوذ فى خلق الفرد وتصرفاته لسببين ، أولهما أن الطريق غير الطبيعى لا يؤدى إلى الارتياح التام ، وثانيهما أن الطريق غير الطبيعى لا يحقق الغرض المقصود من ذلك الميـــل . وهذا يوضح لنا تمام الوضوح كيفية نشوء طرق الاتصال الجنسى الشاذة وغيرها ، مما يؤدى إلى إفساد طبيعة المرء وتكوين عادات غير صالحة ، تكون عقبة كأداء فى سبيل عودة المرء إلى الطريق الطبيعى الصحى . فمثلا إذا لم يجد المرء من أفراد الجنس الآخر من يساعده على إرضاء ذلك الميل ، فإنه قد يعمد إلى أفراد من نوعه هو نفسه إذا توفر نوع شبه بينهم وبين الجنس الآخر ، وهذا ما يعمد إليه الكثيرون من المراهقين الذين لا يجدون سبيلا للاختلاط بالجنس الآخر ، نظرا لحداثة عهدهم بذلك الدافع ، ولقلة خبرتهم فى الحياة ، ولسهولة غوايتهم ، ولجهلهم بالنتائج الخطرة التى تترتب على عملهم ، من الوجهة النفسية والصحية والاجتماعية والدينية . ومما تجب ملاحظته هنا ، أن البغضاء التى قد يبثها أب جاهل فى روع ابنه للفتيات ، رغبة منه فى المحافظة على أخلاقه ، قد تحول نظره عنهن نهائيا ، وتضع سدا حائلا بينه وبينهن طول حياته ، ولكن ما دام الدافع الجنسى الطبيعى موجودا ، فإنه قد يعمد عندئذ إلى أفراد من نوعه ، لأن هؤلاء لم يقم بينه وبينهم حائل من البغضاء كالذى ذكرناه . وما يقال عن الذكور يقال كذلك عن الإناث وهذا هو السبب فى أنه كثيرا ما يتصل

شخصان من جنس واحد ببعضهما اتصالا شاذا ، وتنشأ بينهما بذلك علاقة مستديمة لوقت ما .

كذلك فى أحوال شاذة قد تكون محبة والديه شديدة حائلا دون نمو الميل الجنسى ، واتجاهه فى الطريق الطبيعى ، أى نحو أفراد الجنس الآخر ، ويظل كذلك ما دام الفرد لم يتخلص من ربق تلك المحبة . كذلك قد تحدث للمرء صدمة عصبية عنيفة تتصل بالمسائل الجنسية فتخيفه منها ، أو تبغضه فيها ، وبذا يتحول ذلك الميل من الطريق الطبيعى إلى طريق شاذ ، وهذا ما قصدناه عند ما قلنا قبل الآن ، إن تصوير النساء كملائكة من السماء ، والرجال كأشرار معتدين ، يؤدى إلى ضرر عظيم .

نستخلص الآن عندئذ مما سبق ثلاث نتائج هامة : —

الأولى : ضرورة تحرير الفتى أو الفتاة من حب الأب أو الأم ، والاحتياط من أن يكون هذا الحب شديدا ، بدرجة تعوق النمو الطبيعى للميول الجنسية .

الثانية : ضرورة إيجاد الفرصة للمحادثة والتفاهم بين الفتيان والفتيان ، بحيث يكون سنهم وسنهن متقاربين[1] وأن يكون ذلك فى ظروف ملائمة .

الثالثة : وجوب تزويد الفتى المراهق ، وكذلك الأطفال قبل حلول دور المراهقة ، بالمعلومات اللازمة التى تساعدهم على اتباع الطريقة المثلى لنموهم الصحى والنفسى من الوجهة الجنسية ، وتمنعهم من الوقوع فى الأخطاء التى ذكرناها .

والآن وقد أدت بنا الأبحاث السابقة إلى تلك النتائج ، نرى أنفسنا أمام مشكلة أخرى ، ألا وهى العواقب التى تنجم من إباحة اختلاط أفراد الجنسين فإن تمهيد الفرصة لاجتماعهما ، ولو أنه يمنع وقوع الشذوذ فيما بعد ، ويؤدى إلى نمو الميل الجنسى نموا طبيعيا ، إلا أنه يخاف أن يؤدى إلى نتائج أسوأ عاقبة من تلك التى تحاشيناها . فإباحة الاختلاط الحر من غير قيد ولا شرط ،

(١) على أن يحتاط أولو الأمر من أن يؤدي ذلك إلى نتائج غير مرغوب فيها خلقيا .

يهزم النظام الاجتماعى القائم ، ويعتبر ثورة على الدين والأخلاق ، وهما من أهم ماتجب المحافظة عليه فى تربية المراهقين . إذن نجد أنفسنا بين نارين ، فهل من سبيل للخروج منهما من غير أن نتعرض لإحداهما ؟ . يلوح لنا أن خير طريق نتبعها هى التبكير بالزواج على قدر الإمكان ، ففيه تلاف للأضرار التى تنجم من كبت الدافع الجنسى ، وفيه تلاف كذلك للأضرار التى تنجم من الخروج على العرف ، والقانون الاجتماعى ، ولكن هل تساعد الظروف الاقتصادية على هذا الحل ؟ . هذا مانحار فى الإجابة عنه ، ونتركه لظروف كل فرد على حدة ، على أن لايكون التبكير قبل نهاية دور المراهقة ، أى قبل أن يصل نمو المراهق والمراهقة إلى تمامه سواء أكان ذلك من الوجهة الجسمية أم العقلية . ويلوح لنا أن الضرورة ماسة لذلك عند البنات أكثر من الصبيان نظرا لاضطلاعهن بمهمة الحمل ، التى تتطلب منهن اكتمال الأعضاء التناسلية ، وتحملهن مشقة لايستهان بها ، فضلا عما تتطلبه من عناية بالنسل والسهر على راحته بالليل والنهار ، وذلك مجهود لاشك مضن للأمهات .

ويلوح لنا أن عادة التبكير بالزواج ، الناشئة بين أهل الريف ، قد أخذت تجد تعضيدا لها من وجهة الصحة العقلية ، على أن لايغالى فيها ، فيبكر بزواج الأطفال عند أول شعور لهم بالدافع الجنسى ، ولو أن خطر ذلك أقل على القرويات ، لقوة بدنهن ، ولتعودهن المشاق ، كما أن الفتيان من أهل الريف يكتسبون أودهم فى سن مبكرة ، لأن مهنتهم لا تتطلب إعدادا طويلا ، ولذا فهم يأمنون الجانب الاقتصادى . وتلك بلا شك إحدى المواضع التى فشلت فيها المدنية ، واضطرت لأن تحبذ العادات القديمة ، التى حاولت الاستهزاء بها ، والخروج عليها ، حتى إذا جاءت بينة الأبحاث الحديثة أظهرت خطر تلك السخرية ، وبينت الوهدة التى ينساق إليها العالم المتمدين من تماديه فى تأخير سن الزواج أولا ، ثم خروجه على القوانين الخلقية والعرف القديم ثانيا . فالمعروف أن نسبة الأمراض العصبية والشذوذ

الخلق بين أهل المدن ، أكبر منها بين أهل الريف ، وبين ظهرانى الأمم ، المتمدينة أكثر منها بين الأمم التى على الفطرة . كما أن الخروج على التقاليد والعرف ، واستباحة الاختلاط غير المشروع ، فضلا عن الأضرار النفسية التى ذكرناها سابقا ، تزيد فى انتشار الأمراض التناسلية ، وهذه بدورها تؤثر فى حالة الفرد النفسية والعقلية ، كما تؤثر فى جسمه ، وتأثيرها قد يستمر مع النسل بالوراثة ، وهكذا تنخر فى عظام الأمة ، إلى أن تؤدى بها إلى الانحطاط . ولولا اشتداد العلم فى مكافحة تلك الأمراض من الوجهة الطبية لكانت الحالة أسوأ مما هى عليه الآن بكثير .

وهناك ظاهرة كثيرة الانتشار فى المدارس التى لا يجتمع فيها الجنسان ، وهى حب غير محدود ، يتجه نحو فرد من أفراد نفس الجنس ، وقد يصل الأمر إلى الغيرة على ذلك الشخص ، والخوف عليه من الاتصال بأى شخص آخر . وقد يكون هذا الحب غـــير جنسى فى طبيعته ، أى أنه لا يرمى فى غايته إلى الاتصال الجنسى ، حتى إنه يشك فيما إذا كان هذا الحب متصلا بالدافع الجنسى ، إذ أن أقصى غايته قد لا تتعدى فى معظم الأحوال ، مجرد التقبيل وتوجيه عبارات المعزة ، وربما كان السبب فى ذلك كله أنه فى ذلك الدور ، الذى لم تكتمل فيه خبرة المراهق أو المراهقة ، والذى تضرب فيه التقاليد حصارا قويا حولهما ، يكون الميل الجنسى حائرا غير محدود ، فيتعلق بأقرب فرد تتوفر فيه صفات الجنس الآخر الذى لا تساعد الظروف على الاتصال به.

وهذه الظاهرة شديدة الانتشار فى المدارس الثانوية ، وعلى الأخص مدارس البنات ، ومن مظاهرها هيام الفتاة بمعلمة أو فتاة أخرى أكبر منها سنا ، تمتاز فى العادة بالتفوق فى السلطة ، أو القوة ، أو الجمال ، أو النفوذ فى المدرسة ، أو بكل تلك الصفات معا ، على شرط أن تكون تلك الفتاة الصغيرة موضع عطف ورعاية منها ، وإلا فإن ذلك الميل لا يلبث أن يتجه نحو واحدة أخرى ، أو ينقلب إلى كره وحقد وغيرة إذا لم يجد إلى القلب سبيلا .

وقد ينشأ هذا العطف الشديد بين فتاتين ، فتعيشان لبعضهما ، وتفكر الواحدة فى الأخرى طول وقتها ، وتتصورها فى أحلام اليقظة ، التى تسود المراهقين والمراهقات ، وتشغل وقتا لا يستهان به من حياتهما وهذه الظاهرة تشاهد على الأخص فى المدارس التى لا يجتمع فيها الجنسان ، أى التى تكون للبنات خاصة ، أو للذكور خاصة[1] ، كما قدمنا ، وتقل فى المدارس التى يجتمع فيها الجنسان ، إذ فى تلك الحالة تتجه الميول والعواطف نحو أفراد الجنس المقابل .

وليس هناك من ينكر أن نشوء الحب ، بأى شكل كان فى دور المراهقة ، يضع الآباء والمربين أمام مشكلة يصعب عليهم حلها . ولكننا نجد من الوجهة السيكولوجية ، أن الحب الذى ينشأ بين أفراد الجنس الواحد ، أو بين أفراد من سنين متباينين هو المشكلة ، لأنه غير طبيعى ، بينما الحب الذى ينشأ بين أفراد من جنسين مختلفين طبيعى من الوجهة السيكولوجية ، والمشكلة تنشأ من الظروف الاقتصادية والاجتماعية والدينية .

وقد شوهد أن ذلك النوع من الحب الشاذ الذى ذكرناه ، يأتى عليه وقت يتلاشى فيه ، وتتجه ميول الفرد بعد ذلك إلى مجراها الطبيعى الأصلى ، أى نحو أفراد الجنس الآخر ، هذا إذا كان الشخص الذى هو موضوع الحب حكيما رزينا ، خاليا من الأغراض السيئة ، إذ يمكنه فى تلك الحالة أن يتحاشى تشجيع هذا النوع الفاسد من الحب وعدم استغلاله لمصلحته .

هذا النوع من الحب كثيرا ما يوجه نحو المعلمات من الفتيات اللاتى بالمدرسة ، وقد يؤدى انتشاره إلى فساد خلق المدرسة بأجمعها ، وقد يتفشى الأمر فى بعض الأحيان لدرجة تضطر أولياء الأمور إلى الاستغناء عن المدرسة ، أو نقلها . أما عن العلاج فليس هناك من سبيل لقاعدة عامة تنطبق على جميع الحالات ، بل كل حالة تحتاج إلى علاج خاص ، تبعا للظروف التى تحيط بها . غير أننا يمكننا أن نقول بوجه عام إن خير سياسة تتبع هى البعد

---

(١) ولكنها أكثر وضوحا فى مدارس البنات .

عن التخيلات والأوهام ، وعدم إعطاء مجال للعاطفة ، فمثلا إذا أتت الفتاة بهدية لحبيبتها ، سواء أكانت تلميذة أم مدرسة ، فقد يكون من الحكمة أن تتقبلها وتوزعها على الجميع إذا كان ذلك ممكنا ، كصندوق من الحلوى مثلا ، أو أن تضعها فى الفصل لاستعمال المدرسة بوجه عام إذا كانت باقة من الزهور ، وبعبارة أخرى تتجاهل وجود العاطفة ، وتعتبر الهدية موجهة إلى المجموعة كلها لا إلى شخصها . هذا الموقف العملى يأتى فى العادة بنتيجة مرضية ، إلا أنه فى الحالات الشديدة ليس هناك من علاج سوى فصل الطرفين عن بعضهما لمدة طويلة ، وعندئذ تبلى العاطفة رويدا رويدا .

وكثيرا ما يشفى الفرد من ذلك الحب بإيجاد المثير الطبيعى للميول الجنسية وعاطفة الحب ، ألا وهو أفراد من الجنس المقابل ، بشرط ألا يزيدوا كثيرا أو يقلوا كثيرا فى العمر .

وقد يختلط هذا النوع من الحب بالصداقة العادية . غير أنه يلاحظ أن الصداقة فى العادة لا تحدوها تأثرات وجدانية شديدة من الطرفين ، كما أن الأصدقاء فى العادة يكونون من أعمار متقاربة ، ويحتفظ كل منهما باستقلاله ، ولا يحصل لأحدهما اضطراب أو انفعال إذا ابتعد عنه الآخر . كذلك الصداقة لا تحدوها الغيرة ، فقد يتصادق شخص مع آخر له عشرات من الأصدقاء الآخرين ، ويتوفر بين الجميع معنى الصداقة والإخلاص ، من غير أن يحاول أحدهم الاستئثار بالصديق لنفسه دون الجميع ، بينما ذلك النوع الفاسد من الحب ينشأ عادة بين شخصين اثنين ولا يحتمل ثالثاً لهما .

وهناك أنواع أخرى من الشذوذ تأتى عن طريق الترابط ، فمثلا إذا اقترن شىء ما ، جماداً كان أو فكرة أو كلمة ، فى ذهن الفرد بلذة جنسية ، ولو لم يكن من مثيرات تلك اللذة ، نجد أنه بعد تكرار الاقتران بينهما عدة مرات ، يقوم ذلك الشىء مقام المثير الأصلى لها ، ثم لا يلبث أن يكتشف الفرد تلك العلاقة فلا يتأخر عن أن يعمد إلى ذلك الشىء لاستثارة تلك اللذة نظراً لاقترانه بها ،

إذا ما غاب أو تعذر الحصول على المثير الأصلى ، ألا وهو فرد من أفراد الجنس المقابل .

وبهذه الطريقة نشأت العادة السرية ، إذ أن الفتى قد يكتشف عن طريق الصدفة ، فى أول الأمر ، أن اللعب بأعضائه التناسلية يثير فى نفسه ارتياحا ، فيقترن فى ذهنه هذا العمل بالارتياح الناشىء منه ، فإذا ما تعذر عليه فى يوم ما الحصول على المثير الأصلى ، عمد إلى تلك العملية . ومن أمثلة المثيرات التى من هذا القبيل الصور المخلة بالآداب . والخطر ينشأ عادة من ثبوت تلك العادة وتغلغلها فى نفس الفتى وهو صغير ، فيصعب عليه التخلص منها وهو كبير ، وعندئذ يجد كل من العالم السيكولوجى والمربى نفسهما حائرين أمام تلك العادة ، التى تأصلت واتخذت مكانا منيعاً فى نفس الفتى ، والتى لابد للتخلص منها من علاج طويل مرير ، إذ أن ذلك العلاج يقتضى حل العقدة التى تكونت ، واستعادة المواقف التى تكونت فيها ، ومحاولة إرجاع السلوك إلى المجارى الطبيعية ، التى انحرفت عنها فى أول الأمر ، وهذه من أشق المهمات فى العلاج ، فضلا عن أنها كثيرا ما تفشل وتعجز عن استئصال تلك العادة .

وخير من ذلك الاحتياط لمنع نشوئها فى أول الأمر ، تبعاً للقوانين التى ذكرناها ، وهذا لا يتوفر إلا إذا كان الآباء على علم بها ، فضلا عن ضرورة استعمالهم للحكمة والكياسة فى تربية الفتى الناشىء .

ويجمل بنا قبل اختتام ذلك الفصل ، أن نورد بضعة أمثلة لحالات نمو بعض الأفراد ، نستدل منها على النمو الجنسى الطبيعى ، والنمو الشاذ ، حتى تتضح المبادىء التى أوردناها .

الحالة الأولى ، لشاب سنه ست وعشرون سنة ، نرمز إليه بالحرف (و) . كان عند بحث حالته نزيل السجن فى أمريكا ، لجريمة الاتصال الجنسى الشاذ . وكان أبوه عندئذ فى الخمسين من عمره ، وأمه فى الخامسة والأربعين .

وكان أبوه شديداً حاد الطبع ، يخافه أولاده ، ولكنه كان سكيرا كثير الإدمان . أما الأم فكانت عصبية شديدة الانفعالات . أما الشاب ذاته فدون المتوسط فى الوزن والطول ، ضعيف البنية ، صوته ناعم ، ومشيته بها تخنث .

وكانت أمه تقول له فى صغره ، إنها كانت تود لو رزقت ببنت بدلا عنه ، إلا أنها ، مع ذلك ، كانت تحبه وتعطف عليه كثيرا ، فتوثقت المحبة بينه وبينها ، ولاسيما أن والده كان شديدا عليه .

ولم يستطع فى طفولته أن يفهم الرجال ، وكان يشعر بالراحة فى مجلس النساء والبنات ، فكان يمضى أغلب وقته فى اللعب مع البنات ، وكثيرا ما كان يشتغل بالتطريز والحياكة . وكان يشعر بالحياء الشديد فى وجود الصبيان ، ولم يجرؤ على السباحة معهم ، إذ كان يعلوه الحياء عند خلع ملابسه أمامهم ، ولقد التحق هذا الشاب ، عدة مرات بمخيمات لقطع الأخشاب فى الغابات ، رغبة منه فى (الاسترجال) ولكنه كان لا يزال وقت البحث متخنثاً . ومع أنه فى طفولته كان يلبس ملابس البنين ، إلا أنه لم يكن يتردد فى لبس ملابس البنات عند سنوح الفرصة .

وقد قال إنه كان يتلذذ كثيرا لمشاهدة الرجال الأقوياء وأبطال الرياضة البدنية ، ولكنه لم يجد ، يوماً ما ، لذة جنسية فى مصاحبة الإناث ، مع أنه كان يرتاح إلى مجتمعاتهم وحديثهم .

وكانت أول مرة أتى فيها فعلا جنسيا ، فى سن الثامنة ، وكان اتصالا شاذا مع ذكر آخر ، اتخذ هو الدور السلبى فيه ، وقد حكم عليه بالسجن للاتصال الجنسى الشاذ[١] .

الحالة الثانية[٢] لفتاة فى سن السابعة عشرة ، نرمز إليها بالحرف (س) ، كان أبوها طباخا ، هجر أسرته حين كان عمر البنت ستة أشهر ، فتزوجت أمها

(١و٢) Terman & Mills: Sex & Personality

من فلاح . ولا تحب هـذه الفتاة أمها ، رغم عطف أمها عليها ورغبتها فى أن تراها سعيدة . وكانت تلك الفتاة فى طفولتها تلعب أغلب وقتها مع الصبيان ، ولم تذكر أنها لعبت بالعرائس أكثر من مرة واحدة فى حياتها . وقالت إنها تغرم بالألعاب الرياضية ، كالتنس ، وكرة السلة . وكانت فى المدرسة زعيمة إحدى الفرق الرياضية .

وكانت فى المدرســـة تتزعم البنات دائماً ، وقد قالت إنها كانت تحس بشعور جنسى غريب حين كانت البنات تكتبن اسمها على سيقانهن . وقالت أيضا إنها كانت تتضايق من صحبة الصبيان ، لأنها كانت قائمة على عـلاقات جنسية ، ولذا لم تصاحبهم كثيرا ، وقالت كذلك إنها لما كبرت ودت لو كانت ولدا .

وقد هربت تلك الفتاة من بيتها ، فقبض عليها ، ثم أفرج عنها ، ووضعت تحت المراقبة ، فهربت ، حتى قبض عليها بتهمة إتيان فعل جنسى شاذ ، ثم أفرج عنها مرة ثانية ، ووضعت تحت مراقبة أمها ، فهربت ، ولكنها قبض عليها مرة أخرى ، ووضعت فى الإصلاحية .

ويدل تاريخ حياتها على أنها فى علاقاتها الجنسية ، مع البنات ، تلعب الدور الإيجابى . كما أنها كانت مغرمة بالألعاب الرياضية ، والأعمال اليدوية العنيفة ، والمجازفات وركوب الأخطار .

الحالة الثالثة[1] لسيدة متزوجة نرمز إليها بالحرف (ت) بلغ عمرها وقت إجراء البحث سبعا وعشرين سنة . وكانت قد تزوجت فى سن الثالثة والعشرين من رجل فى نفس السن . وكان لها ، وقت إجراء البحث ، طفل يبلغ عمره ستة أشهر . وكانت تستعمل الوسائل الصناعية لتقييد النسل . أما حياتها مع زوجها فكانت سعيدة ، وصحتها جيدة على وجه الإجمال .

---

(١) Davis Fodon: Sex Development

وقد ذكرت هذه السيدة ، أنها بدأت العادة السرية ، فى سن الثالثة عشرة ، بالاشتراك مع فتاة أخرى ، فى نفس السن ، بمعدل مرة أو مرتين فى الأسبوع ، فى أول الأمر ، ثم أخذ عدد المرات يقل ، حتى خطبت صاحبتها ، فأخذت تزاولها على حدة ، حتى بعد زواجها ، إلى ولادة طفلها ، وكانت تزاولها بوجه خاص ، عند ما كانت تساورها الكآبة . ولكنها كانت تندم وتأسف بعد إتيانها ، غير أن لذتها منها كانت دائما تفوق لذة الجماع الحقيقى . ولكنها أخيرا انصرفت عن إتيانها ، مكتفية بعلاقاتها الجنسية الزوجية .

نرى فى تلك الحالات المذكورة ، أمثلة للشذوذ الذى يعتور الغريزة الجنسية . ومما يجدر ذكره فى هذه المناسبة ، أن الطرق السلبية ، أى الزجر والنهى ، لا تفيد إلا قليلا فى مثل هذه الظروف . والواجب اتباع طرق إيجابية أى محاولة توجيه المرء نحو المثير الطبيعى ، فذلك أنجع من النهى عن المثير غير الطبيعى .

الفصل الثامن

التربية الجنسية

يفرق الآباء والمعلمون، عادة، بين مايعتقدونه عن الأمور الجنسية، وبين مايجب أن يعتقده الطفل. فهم يعرفون الشيء الكثير عنها، ويضنون، ولو بالقليل منه على الطفل، مع أنه إذا كان سيصل فى يوم من الأيام، إلى مرتبة الرجولة، فإنه لابد حاصل على تلك المعلومات، بنفس الطريقة التى حصل بها أبواه ومعلموه. على أن موقف الآباء والمعلمين هذا، ليس صادراً عن عقيدة عما يجب أن يعرفه الطفل، وما لايجب أن يعرفه، وإنما هم فى الحقيقة يرزحون فى أفكارهم ومعتقداتهم تحت ضغط التقاليد، التى نشأوا عليها، والتى لاتستطيع عقولهم ونفوسهم أن تتحرر من ربقها. أما حججهم فليست إلا وسيلة لتبرير موقفهم، وإقناع أنفسهم بأنهم يتبعون ماهو صالح. وكثيراً مايتخذ الإنسان له رأيا أو عقيدة تحت تأثير مؤثرات خاصة، ثم يسعى لتبريرها أمام نفسه، وأمام غيره، ليظهر بمظهر منطقى معقول. هذه هى الطريقة التى تحصل بها معظم تقاليدنا، وعاداتنا الاجتماعية والفكرية والدينية، لأننا ننشأ فى وسطها ونتقبلها، إما عن طريق العادة، أو عن طريق الايحاء، ونحن صغار، قبل أن نستطيع أن ننقدها أو نتبين الغث فيها من السمين، حتى إذا وقفنا موقف الجدل والمناقشة، تلمسنا الأعذار والبراهين، وكلنا يعرف تمام المعرفة أن تلك الأعذار والبراهين لاحقة لاسابقة لتقبلنا تلك الآراء التى ندين بها.

كذلك فى المسائل الجنسية، نشأنا واعتدنا أن نكتمها، وأن لانتكلم فيها صراحة، وإذا فعلنا شعرنا فى نفسنا باحتقار، أو بشعور انتهاك لحرمة التقاليد

والاحترام الواجب علينا لأنفسنا ، ولكننا لو سألنا أنفسنا صراحة عن السبب فى موقفنا هذا ، لحرنا فى أول الأمر ، ثم جعلنا نتلمس الأسباب نبرر بها موقفنا . هذا هو السبب الذى من جله يرى الكثيرون عيباً وعاراً فى التكلم مع الأطفال ، فى بعض المسائل الجنسية . ويفضلون أن يروا الأضرار الناتجة من ذلك الصمت والتكتم ، تفتك بأطفالهم وشبانهم ، وأن يروهم يستقون معلوماتهم من الكتب الرخيصة ، وإخوانهم من الشباب ، أو من الكبار ذوى الأغراض الفاسدة ، على أن يفاتحوهم فى أمر من الأمور التى عودتهم التقاليد أن يتحاشوها يعتبروها سراً مكتوماً ، إلى أن تبيح لهم الفرصة اجتلاء غامضها . إن الشبان ، وعلى الأخص فى دور المراهقة ، تتفشى بينهم كثير من العادات الخلقية الضارة ، كالعادة السرية وغيرها . وكثير من الآباء يعلمون ذلك حق العلم ، ويرون وجوب اتخاذ خطوات لمنع الفتيان من التدهور ، ولكنهم لايجسرون على مخاطبتهم ، ولايجدون من أنفسهم الشجاعة على كسر حرمة التقاليد ، فيتركونهم فريسة لتلك العادات الضارة أو للأمراض التناسلية ، التى يصابون بها من جراء جهلهم بها وبطبيعتها .

إن ذلك الشعور بأن هناك عاراً يقترن بالمسائل الجنسية ، ليس إلا وليد خيالنا وتقاليدنا ، فهو منا ويتحكم فينا ومضر بنا وبأطفالنا ، وليست هناك أية ضرورة حقيقية تمنعنا من أن نتخلص منه ، ومن أضراره التى يحملها بين طياته . إن الأصل فى اتخاذ ذلك الموقف حيال المسائل الجنسية ، لم يكن إلا رادعا للنشء عن أن يوجهوا أفكارهم نحوها ، فى وقت هم أحوج مايكونون فيه إلى الاهتمام بمسائل كثيرة أخرى . ولكن ثبت لدى الكثيرين منا أن هذا التكتم لايؤدى إلى الغرض المطلوب ، فهو لايمنع الأطفال والفتيان والفتيات من الخوض فيه ، أو الاهتمام به . وإن من يظن أن الأطفال الآن ، سواء بالمدارس الابتدائية والثانوية أم بالمصانع ، أو الخدم ، أو غيرهم ، لايعرفون شيئاً عن تلك المسائل ، أو لايخوضون فيها مع بعضهم ، يخدع نفسه . بل إن

النهى عن الكلام فيها ليس له سوى نتيجة محققة ، وهى امتناع هؤلاء من الكلام فيها مع الكبار من أهلهم أو معلميهم ، وبدلا من أن يوجهوا إليهم أسئلتهم مباشرة فإنهم يلجأون إلى الكتب الرخيصة ، أو إلى الأطفال أمثالهم أو إلى الخدم الذين بمنازلهم أو إلى غيرهم من الكبار الذين يتطوعون للإجابة عن أسئلتهم وإطفاء ظمأ حب الاستطلاع عندهم . أى أننا لم نمنع التيار ولم نوقفه ، بل بوقوفنا فى سبيله جعلناه يفيض ويطغى على غير مجراه الطبيعى ، وكان الأولى بنا أن نتركه يجرى فى مجراه الطبيعى ، ونتعهده بالرقابة والعناية تحت أعيننا ، حتى لايحصل منه ضرر إذا أفلت من إرشادنا ورقابتنا .

على أن الامتناع عن إجابة الأطفال عن أسئلتهم ، يشعرهم بأن هناك سراً يحاول آباؤهم أو أمهاتهم كتمانه عنهم ، فيزيدهم هذا رغبة فى الاستطلاع ، وأحب شىء إلى الإنسان ما منع . كما أن رفض إجابتهم إلى مايطلبون يترك فى نفوسهم أثراً ولو طفيفاً من البغضاء ، نظراً لشدة رغبتهم فى الاستطلاع ، وعلى الأخص إذا رفض طلبهم فى شىء من العنف محاولة إسكاتهم والتخلص من ثرثرتهم .

كما أن الكذب عليهم للتخلص من المأزق له أثر خلقى سيىء ، إذ يعطيهم نموذجا للكذب ، فيستخفون بكل النصائح التى تعطى لهم عن فضيلة الصدق بعد ذلك ، ماداموا يرون آباءهم ومعلميهم ، وهم المثل الأعلى لديهم ، يضربون لهم المثل فى الكذب . هذا فضلا عن أنهم سيجدون الحقيقة عاجلا أو آجلا فكأننا لم نستفد من الكذب سوى الإضرار بهم خلقياً ، وسوى هدم النصائح التى نسديها إليهم .

يعارض كثير من الآباء التربية الجنسية على أساس أنها تتلف أخلاق أبنائهم وبناتهم ، وتوجه أنظارهم إلى أشياء لم تكن تخطر لهم على بال قبل أن يفاتحوهم فيها . غير أن الأبحاث قد دلت على أنه ما من طفل إلا ولديه بعض المعلومات عن الأمور الجنسية ، وعلى الأخص عند ما يبلغ دور المراهقة

وما بعدها ، وكثيرا ما يتعلم أشياء عن الأمور الجنسية قبل ذلك ، إذ قد لوحظ ، أنه حتى قبل السادسة من العمر ، يبدأ الطفل فى توجيه أسئلة ، إن لم تنتم إلى المسائل الجنسية مباشرة ، فهى ذات علاقة بها بطريق غير مباشر . إذن لامناص من أن تصل تلك المعلومات إلى عقل الطفل مهما كان المصدر الذى تستقى منه

وإذا كان الآباء يودون أن يعودوا أبناءهم ضبط النفس ، والعادات الحسنة ، والسلوك المحمود ، فخير لهم أن يزودوهم بالمعلومات الصحيحة المستمدة من علم النفس وعلم الصحة ، بدلا من التخويف والترهيب والتهديد ، ووصف أعمالهم ودوافعهم الجنسية بأنها إثم منكر وشر ، إذ أن هذه فى الغالب لاتحدث التأثير المطلوب إلا فى أول الأمر ، ثم لاتلبث آثار الإرهاب والخوف أن تزول ، ويظل الطفل غير مقتنع بالأسباب التى تدعو إلى سلوك طريق معين . ولكن إذا زودناه بالمعلومات اللازمة ، أمكنه أن يستفيد منها فى ضبط نفسه ، وكبح جماح ميوله الجنسية ، وسلوك الطريق الذى لايؤدى به فى النهاية إلى الضرر ، سواء أكان من الوجهة الطبية ، أم النفسية ، أم الخلقية أم الاقتصادية . حقيقة إن تلقين المعلومات فى المسائل الخلقية كثيرا مايكون قليل النفع ، وإن غرس العادات الصحية أجدى وأنفع فى توجيه سلوك المرء ، غير أننا يجب أن لا ننسى أن غرس تلك العادات يجب أن يسبقه اقتناع المرء بضرورة ذلك الغرس ، حتى يفتح لها صدره ، وحتى تستطيع التغلغل فى نفسه ، والتأثير فى سلوكه . فمثلا يمكننا أن نقنع الفتى بأن انغماسه فى المسائل الجنسية وهو صغير يؤثر فى مركزه الاقتصادى وهو كبير ، وأنه خير له أن ينصرف إلى المذاكرة والدرس والتحصيل ، أو إلى الاجتهاد فى عمله ، حتى يجنى لنفسه مركزاً ثابتاً ، وبعدئذ يستطيع أن يتزوج ويكون أسرة سعيدة .

وفى مثل تلك الحالات التى نريد أن نصرف فيها فرداً عن غرض أمامه يبغى تحقيقه ، يجب علينا أن نزوده بمجال آخر يشغل باله وتفكيره . ومن أهم

تلك المحاولات الألعاب الرياضية ، التى لها آثار حميدة فى تربية الشبان ، من حيث أنها تشغلهم عن التفكير فى الأمور الجنسية ، وتعطيهم مجالا لصرف ماديهم من طاقة أو نشاط ، فضلا عن تأثيرها الصالح فى أجسامهم ، وذلك أفضل بكثير من الإكثار من النهى ، فهو قليل الفائدة فى مثل تلك الأحوال[1] .

أما إذا أردنا أن ننقذ الناشئين من العلاقات الجنسية غير المشروعة ، فقد يكفيهم أن نشرح لهم شيئا عن الأمراض التناسلية ، وأن نزودهم بإحصاءات تبين سعة انتشارها ، ثم نبين لهم ضررها فى صحة المرء وخلقه ، فضلا عن أنها قد تحول بين المرء والزواج ، أو تجعل الحياة الزوجية تعسة ، وبذا تجعله يفقد أمله الأسمى فى الحياة من أجل لذة وقتية .

بهذه الطريقة يمكننا أن نوجد التوازن فى نفس الناشئين بين القوة الدافعة للغريزة الجنسية ، وبين مصلحتهم الاقتصادية والصحية ، وكذلك بين رغبتهم الوقتية ، وأملهم البعيد

تلك الطريقة التى ذكرناها ، أى طريقة جعل التربية الجنسية على أساس الإقناع ، وعلى أساس التزويد بالمعلومات الصحيحة ، وعلى أساس غرس العادات الحسنة ، تفضل الطريقة الأخرى ، طريقة الإرهاب والوعيد ، فى أنها لا تصور الغريزة الجنسية بذلك الشكل المنحط الدنىء المعروف ، ولا تقرن الجنس المقابل بتلك المخاوف والأوصاف المزرية ، التى يلجأ إليها الآباء فى كثير من الأحيان لنهى أبنائهم وبناتهم عن الاتصال فى ظروف لا تكون مناسبة بعد . إذ ليس من المعقول أن يقتنع الفتى أو الفتاة بأن الدافع الجنسى شر ووبال ، بينما هما يريان والديهما قد خضعا لأحكامه ، من غير أن تحل بهما النقمة والهلاك المزعوم . ثم إذا فرض جدلا وأفلحنا بكثرة الإرهاب والتخويف ، فى أن تحل الغريزة الجنسية ذلك المحل الفاسد من نفس المراهق أو المراهقة ، وليس هذا بالأمر السهل فهو لا يحدث إلا فى أحوال الشذوذ ،

---

(١) راجع ماقلناه عن الإعلاء فى الفصل السابق .

فإن لذلك أضراراً جسيمة أيضاً ، لأن تلك الفكرة قد تقف سداً حائلا منيعا بينهما وبين أفراد الجنس الآخر ، إذا ما أتى الوقت المناسب لاجتماعهما المشروع ، كالزواج مثلا . فلن نضمن فى مثل تلك الحالات أن الكراهية ، التى بذلنا قصارى جهدنا فى أن تتغلغل فى نفسهما ، سوف تزول بكلمة واحدة فى مزايا الزواج ، ومحاسن الجنس الآخر . إن معنى تغلغل تلك الكراهية فى نفس الفتى أو الفتاة ، هو اقتران الجنس الآخر ، وكل مايتعلق به ، بانفعال الخوف . وإذا كنا قد أفلحنا فى جعل الصلة بين ذلك الجنس الآخر وذلك الانفعال متينة ، خرجت المسألة من حيز الإقناع بالحجة ، إلى حيز اللاشعور حيث لاحجة ولا إقناع ، وإنما دوافع خفية لانعرف مصدرها ، تكون جزءاً لايتجزأ من نفس الفرد ، وتصبح عقداً لاتجدى كلمة أو محاضرة فى محوها ، لأنها أخذت سنين عديدة فى نموها وتمكنها من نفس الفرد . فهل من المستطاع أن ذلك الكره والخوف من الجنس المقابل ، الذى افترضنا نجاحنا فى غرسه ، وتعهدناه من الصغر ، ينقلب فجأة إلى حب وهيام ؟ طبعاً لا ، وهذا مانقصده من قولنا إن التخويف والإرهاب قد يقف سدا حائلا منيعا بين الفتى أو الفتاة والسعادة الزوجية .

وفى كثير من الأحيان قد يؤدى هذان الموقفان المتضاربان إلى اضطرابات عصبية ، كما ينبئنا الأطباء الذين يعهد إليهم علاج تلك الاضطرابات

أما الآباء الذين يفضلون الصمت على الخوض فى المشكلة ، فهم يتبعون سياسة الإهمال وترك الأمور على عواهنها ، وانتظار نتائجها ، من غير أن يحركوا ساكنا لتحويل مجراها .

ورغبة فى طمأنة من يعارضون التربية الجنسية ، نقول إنها لا يقصد منها مجرد الخوض فى المسائل الجنسية وترديد قصص عنها ، وإنما دراستها دراسة علمية مبنية على الأبحاث التى وصل إليها الأطباء وعلماء النفس والاجتماع . وإذا كنا ندرس شيئا فى المدارس عن الصحة والأمراض التى تنتاب العيون

أو الرأس أو القلب، أو عن البلهارسيا والانكلستوما، فلم لاندرس شيئا عن الأمراض التناسلية أيضا؟ ألسنا معرضين لها كغيرها من الأمراض؟ ثم أليس من المعقول أن دراستها تفيدنا فى إتقائها؟ ليست من شك فى أن الكثيرين من المراهقين لا يعلمون عنها شيئا وإن بعضهم قد يغشون بيوت الفساد غير عالمين بالأمراض التى تنتظرهم هنالك. إن الكثيرين من الشبان الذين يصابون بالأمراض التناسلية ليصرفون وقتا طويلا لا يعلمون ما أصابهم فبعضهم يظن أن ماأصابهم برد لا يلبث أن يزول، وآخرون يحاولون علاج أنفسهم بأدوية يصفها لهم إخوانهم، ويفضلون الصمت على الإباحة لأهلهم أو للطبيب ولكن الشبان الذين يكونون قد درسوا تلك الأمراض لا يلبثون أن يتخذوا الخطوات الصحيحة عند ما يشكون فى أمر إصابتهم بعرض أنفسهم على الطبيب. ولقد علمت أن بعض الشبان يحاولون الاحتياط من الأمراض التناسلية باستعمال محاليل كيماوية لم صفها الطبيب، فتصيبهم منها التهابات شديدة تستدعى العلاج أيضا. وما كان أغناهم عن كل هذا لو أتيحت لهم الفرصة لمعرفة طرق الوقاية الصحيحة.

وقد انقسمت الآراء فى صدد الطريقة التى توصل بها المعلومات الجنسية إلى ذهن الطفل أو الفتى، فمنها مايقول بوجوب عمل مقدمة يمكن بوساطتها تقريب الموضوع إلى ذهن الناشىء، والتلميح فى الفرص المناسبة بما يراد، وبعبارة أخرى إيصال المعلومات إلى الذهن بطريقة غير مباشرة، كأن يشرح الفرق بين المذكر والمؤنث فى النبات أولا، ثم فى الحيوانات المختلفة، ثم طريقة التذكير فى كل من النبات والحيوان، حتى إذا جاءت مناسبة لشىء يخص الإنسان أشير إليها من طرف خفى أولا، ولا يلجأ إلى الطريقة المباشرة إلا بعد مقدمات طويلة.

أما الرأى الآخر فيقول إن الالتجاء إلى تلك المقدمات ليس إلا جبنا، نتيجة التكتم والشعور بالعار الذى ألصقناه بتلك المسائل، واعتبارها موضوعا

دنيئا لا يجب الخوض فيه . ويرى أنصار هذا الرأى ، ومنهم برتراند رسل Bertrand Russell الفيلسوف الإنكليزى ، أن هـذه الأمور لا تحتاج إلى مقدمة ، بل يجب أن نعلم النشء رأسا من غير لف أو تحايل ، ويقول إن الأبوين إذا لم يجدا فى نفسهما الشجاعة الكافية للقيام بتلك المهمة ، فعليهما أن يعهدا بها إلى شخص آخر يكون أقل خوفا وخضوعا للتقاليد العمياء ، ويكون ثقلها أقل ضغطا على عقيلته . وهو لا يرى فى تلك الصراحة ضرراً ، لأن الأطفال الصغار قبل سن المراهقة لا يرون فى الأمور الجنسية شيئا غير عادى يميزها عن غيرها من الحقائق الفسيولوجية . ثم إن الأطفال إذا شبوا على تلك الصراحة قبل البلوغ ، سهل تعليمهم بعده ، إذ يكونون قد تعودوا الكلام عن الأمور الجنسية من غير شعور بالإثم أو العار .

وقد أجمعت جمهرة المربين على ضرورة جعل المعلومات التى يزود بها الطفل عن الأمور الجنسية واضحة محدودة جلية ، وأن لا يترك منها شىء غامضا غير مفهوم . فالأعضاء الجنسية مثلا ، يجب أن يفهم الناشىء أن نموها شىء طبيعى ، وأن يزال قلقه وخوفه من رؤيته للتطورات التى تحدث بها وعلى الأخص عند حلول البلوغ . إذ أن الكثيرين من تلك التطورات كوجود المنى أو الحيض ، كثيراً مايثير فى نفس الناشىء قلقا ، ويخلق هموما تساوره بضعة أيام إلى أن يزال قلقه بطريقة ما . ولكن تلك الهموم تزداد إذا لم يجد من يصارحه القول ويهدىء من روعه ، وعلى الأخص بين العائلات المحافظة . وأسماء تلك الأعضاء ووظائفها ، يحسن أن تشرح فى شىء من البساطة والاختصار ، مع تحاشى الإفاضة فى الوصف والزيادة عن الحد الضرورى ، فلا بأس مثلا من بيان أثرها فى تخليد النوع ، من غير تعليق زائد عن الحاجة . على أن تلك المعلومات يجب أن تعطى بشكل حقائق علمية . مجردة عن أى انفعال يصحبها ، سروراً كان أو اشمئزازاً ، وبغير أن تحاط بجو مسمم من الإبهام والكتمان ، بل تعطى بنفس الصوت والأسلوب والصيغة

التى تعطى بها الحقائق العلمية الأخرى . وكذلك أسئلة الطفل يجب أن تجاب بنفس الصيغة وبنفس الطريقة . ومن المستحسن عندئذ أن تكون الإجابة على قدر السؤال لا أكثر ولا أقل ، بحيث تكفى لإطفاء رغبة الطفل فى حب الاستطلاع ولا تزيد عن ذلك .

وإن الأبوين الحكيمين ليستطيعان أن يزودا أبناءهما وبناتهما بالمعلومات اللازمة ، بطريقة ملائمة ، من غير أن تنجم عنها أضرار ما ، وذلك بانتهاز الفرص الملائمة لبث ما يريدان . فيستطيع أحدهما حسب الظروف أن يتكلم عن الأعضاء الجنسية وإفرازاتها ، إذا ما حضرت المناسبة ، إذ أن تلك الإفرازات تكون مصدر قلق للفتيان والفتيات فى أول عهد البلوغ ، لأنها جديدة عليهم ، فبعضهم يظنها نتيجة أمراض ، والبعض يخجل من التلوث بها ، ولا يجرؤ على مفاتحة أحد من عائلته عنها فى الصباح ، وقد يحاول البعض عدم النوم رغبة فى مقاومتها أثناء الليل ، ويحتقر نفسه لوجودها ، ويتستر عليها . ولكن لو أخبره أحد أنها شىء طبيعى ، وأفهمه أن ذلك هو بدء ظهورها ، لخفت آلامه وأحزانه . ولكن ما دام الآباء والأمهات يتخذون ذلك الموقف الصامت نحوها ، فستظل تلك السنة جارية إلى أن يتغير الموقف . ونرى أن الأفضل مواجهة الموقف فى شىء ولو قليل من الصراحة والتفكير المستقيم ، فلذلك فوائد كثيرة . فمن الوجهة الطبية الصحية ، نستطيع أن نعين الفتى والفتاة على العناية بصحتهما وأعضائهما عند حدوث تلك التغيرات ، وعلى الأخص فى حالة الفتيات اللاتى قد يكون الحيض لديهن مصحوباً بآلام مبرحة . أما من الوجهة النفسية ، فإزالة القلق والخوف لا شك يقضى على كثير من آلام الناشىء ، ويعفيه من صرف الطاقة فى هذه الناحية ، فضلا عن أن اقتران المسائل الجنسية فى أول عهده بنموها بالخوف ، قد يسبب له عقدا نفسية تلازمه بقية حياته . وإن مصارحة الناشئين تعطينا فرصة لإفادتهم عما يختص بالأحكام الدينية المتعلقة بتلك الأعضاء والإفرازات ، كالطهارة والغسل

والصلاة والصوم إلى غير ذلك . ولا يتطرقن إلى ذهننا أن الفتى أو الفتاة إذا لم يجدا الناصح المرشد فى أبويهما ومعلميهما ، سيسكتان على قلقهما وحيرتهما ، بل لابد أن يدفعهما خوفهما إلى استشارة أصحابهما الذين يستطيعون أن يصارحوهما أكثر من مصارحة أبويهما . ولن نستطيع أن نجزم بأن هؤلاء سيزودونهما بالمعلومات الصحيحة دائما . ولقد رأيت فتية يحض بعضهم بعضا على الإقلال من الطعام ، وتحاشى ألوان خاصة منه ، رغبة فى الإقلال من تلك الافرازات والتخلص مما يصاحبها من التلوث واحتقار النفس . كذلك رأيت فتى إذا ما شعر بشىء منها أثناء الليل بقى بقية ليله متيقظا ، لا يقرب الكرى أجفانه ، يفكر فيما أصابه ، ويخاف طلوع الصبح عندما تكتشف فعلته . وآخر إذا أتاه شىء منها قام لفوره أثناء الليل البهيم ، منتهزا نوم أهل المنزل وغفلة الرقباء ، فى ليالى الشتاء الباردة يغتسل منها بالماء البارد ، ولا يخفى ما فى ذلك من الضرر البالغ بصحته . فواجب الأبوين إزاء هؤلاء الفتيان أن يطرقوا تلك المواضيع فى شىء من اللطف والصراحة البسيطة ، وأن يفهماهم أن تلك الأمور تحصل لهم ولكل الفتيان والفتيات ، كما يجب أن يقضى على فكرة الإقلال من الطعام ، وإلا اعتلت صحتهم فى وقت هم أحوج ما يكونون فيه لجودة التغذية ، نظرا للنمو السريع الذى يحتاج بلا شك غذاء وافيا صالحا .

وقد يفهم البعض أن موعد البدء فى التربية الجنسية يكون عند ظهور البلوغ ، بدعوى أن الطفل قبل ذلك لا يفهم شيئا عن المسائل الجنسية ، ولكن يرى المربون وعلماء النفس ضرورة البدء فيها قبل ذلك الوقت بكثير ، ويقول بعضهم إن البدء يجب أن يكون عند أول سؤال للطفل فى هذا الموضوع ، وذلك يأتى بالطبع فى الطفولة المبكرة . وهو لا يزال يسأل حتى يحصل على كمية لا بأس بها من المعلومات الخاصة بذلك الموضوع ، إذا لم يصدم ويقابل مقابلة عنيفة ، وعلى الأخص إذا أجيبت أسئلته بصراحة وأمانة علمية . ومما هو جدير بالذكر ، أن تفكير الطفل فى المسائل الجنسية بسيط ، لا يختلط به

شيء من الحياء ، أو الامتعاض ، أو الخبث والتحايل ، أو الشوق الشديد الذى يصحب أسئلة البالغين والراشدين ، نظرا لعـــدم شعوره عندئذ بانفعالات جنسية قوية ، ولذا فإنه يتقبل الحقائق الجنسية بنفس الروح التى يتقبل بها كل الحقائق العلمية الأخرى . وهذه الروح تجعل مهمة الآباء الذين يريدون تزويده بهذه المعلومات أسهل مما لو انتظروا إلى دور البلوغ . فمثلا نظرة الطفل إلى جسد عار تـكون فى العادة نظرة عادية بريئة ، فإذا تعود رؤية ذلك ، لم تنشأ لديه الرغبة فى حب الاستطلاع الشديد إذا ما حل دور البلوغ . أما إذا حرم منه فى الصغر ، فإنه ينشأ شديد الرغبة فى الاستطلاع ، ولا يزال يتلمس الفرص الخفية خلال ثقب الباب ، أو من خفايا النوافذ ، يرقب الجيران ، أو يشترى المجلات والـكتب والصور الساقطة للاطلاع على تركيب جسم الجنس المقابل . ولذا فإن بعض علماء النفس لا يرون فصل الأطفال الصغار أثناء الاستحمام مثلا ، لأن ذلك لا يتيسر بحال من الأحوال بعد سنى الطفولة المبكرة فى ذلك الجو الهادىء البرىء . ويقول بعضهـم إن ذلك يؤخر ظهور الشعور بالميل الجنسى نوعا ما ، ويقطع السبيل على الفضول الذى يشتد عادة إذا ما منع الفرد عن شىء ما ، نظرا لأن التعود على رؤية جسم الجنس المقابل يضعف الشعور بوجود شىء غريب ، بينما الخفاء والتستر ، على العكس يثيران الرغبة فى تفهم ذلك الشىء الغريب .

ولـكن الظروف الاجتماعية التى يعيش فيها الجيل الإنسانى منذ أمد بعيد ، تجعل تلك الأمور التى ذكرناها صعبة التحقيق ، وإن سلمنا بها نظريا ، فلابد لنا من وضع سياسة حكيمة عند التطبيق ، على الأقل فى فترة الانتقال ، التى لابد أن تـكون طويلة المدى ، إذا ما اعتزمنا تحقيقها واقتنعنا بضرورة ذلك ، نظرا للتقاليد القديمة التى تهيمن على سلوكنا ، والتى نشأنا عليها ، ونشأ أسلافنا كذلك بها على كواهلهم ، وأصبحت جزءا من عقولهم وعقولنا ، كما أصبح الشذوذ الجنسى جزءا لا يتجزأ من حياتنا . وهو قد لا يبدو واضحا للعيان

لقلتـــه ، أو لوجود عوامل أخرى تضاده ، أو لأن البعض ، أو بالأحرى الكثيرين ، فى هذه الأيام ، لايحترمون التقاليد والأخلاق إلا ظاهرا ، بينما هم فى الحقيقة يبيحون لأنفسهم إرضاء الميول الجنسية إرضاء لا مراء فيـــه . ولاشك أن ظروف المدنية الحديثة قد مهدت السبل لذلك أيما تمهيد . ولكن الشذوذ قد يشتد حتى يظهر للعيان ، ويصبح واضحاً ملاحظاً . وقد لا يتمثل الشـــذوذ الجنسى فى الناحية الجنسية فقط ، بل كثيرا ما يؤثر فى النواحى الاجتماعية من السلوك ، وينتشر حتى يغشى كل النواحى الأخرى . فإن الكفاح الذى ينشأ بين الدوافع المختلفة للانسان وبين إرادته وما يتبعها من القوانين العرفية والخلقية ، لابد مستنفذ جزءا لا يستهان به من الطاقة العصبية ، ونتيجة ذلك لا تقتصر على ناحية واحدة فقط . ولاشك أن أحوال الشذوذ ، الناشئة أصـلا من أمور جنسية (وإن خفى عنا مصدرها) أكثر انتشارا فى الأمم المتمدينة عنها فى المجتمعات الأولية البسيطة ، أى بين الهمج ، حيث لاتصادف الطبيعة البشرية مثل ذلك الضغط والكبح . ولذا يكون الحمل الملقى على الأعصاب والإرادة أقل مما بين الأمم المتمدينة . ومثل ذلك يقال أيضا عن أجسامهم وأجسامنا ، فأجسامهم لا ضغط عليها ولا حرج ، فهى عارية معرضة للشمس والهواء ، ولا يقف فى سبيل نموها عائق تقليدى أو قانونى ، فالزنجى يجلس أينما شاء ، على الأرض أو على أوراق الشجر ، ولا يطوق عنقه بملابس ضيقة بينما نحن معاشر المتمدينين ، إذا تعبنا فى الطريق مثلا ، لا نستطيع الجلوس على قارعة الطريق ، ولا بد لنا من انتظار الكرسى ، بل والبحث عن مكان مناسب للجلوس فيه ، مهما أنهكنا التعب . وإذا لفحنا الحر ، لم نستطع أن نطرق بابا من الأبواب طلبا لقدح ماء ، بل نجبر أنفسنا على الانتظار حتى نصل منازلنا ، أو حتى نصل إلى مقهى عام ، حيث نروى ظمأنا بالطريقة التى يقرها عرفنا وتقاليدنا . ومهما يكن الحر شديدا ، فإنا لا نستطيع أن نخرج فى الطرقات عرايا ، أو نرتدى ثيابا من القطن ، إذا كان ذلك مخالفا لما يرتديه

من هم فى مستوانا الاجتماعى وهكذا . فكما أنا نتحمل ضغط التقاليد على جسومنا ، فنحن نتحمله على نفوسنا أيضا ، وكما أن جسومنا قد أبدت أثر ذلك فى قلة نموها ، وانكماشها على مر الدهور ، فكذلك نفوسنا تبدى أثر ذلك الكبت والكبح من حيث لا نشعر . وكما أنا ليس منا من بلغ غاية الكمال من الوجهة الجسمية ، فليس منا من هو كامل تماما لا تشوبه شائبة من الوجهة النفسية .

ولقد كان انتشار الشذوذ بين الأطفال والفتيان فى أنحاء العالم المتمدين ، سواء أكان هذا ناشئا عن أمور جنسية أم عن غيرها ، وتقدم نظريات علم النفس أيضا ، سببين هامين لنشوء الكثير من العيادات السيكولوجية ، التى بدأت فى الأول كمجهود أفراد ، ثم جعلت الحكومات تأخذ بيدها ، عند ما رأت أهميتها ، فعملت على الإكثار منها . وأول ما نشأت فى أمريكا سنة ١٩٠٩ فى مدينة شيكاجو ، ومن ثم أخذت تنتشر إلى انجلترا ، حيث توجد عدة عيادات فى لندن وبعض المدن الأخرى . مثل برمنجهام وجلاسجو وإدنبره ، وكذلك فى فرنسا وسويسرا وغيرهما من الممالك الأوروبية . وإن طريقة تنظيم تلك العيادات لتدل على كيفية نشوء الاضطرابات والشذوذ الذى يصيب النشء ، فبكل عيادة طبيب نفسانى ، وأحد علماء النفس ، وباحثة اجتماعية ، وإخصائيون آخرون فى التربية ، والتدريب ، واللعب ، إلى غير ذلك ، وقد يجمع الشخص الأول فى نفسه الطب البدنى والعلاج النفسى ، وإلا فلا بد من وجود طبيب أخصائى . ويدرس الطبيب النفسانى نفسية المريض . وغرائزه وانفعالاته ووجداناته ووجهته فى الحياة . أما الإخصائى فى علم النفس ، فيدرس قدرة المريض العقلية ، ومواهبه الخاصة والعامة ، كالذكاء والتذكر والتخيل . أما العضو الثالث ، ويكون فى العادة سيدة ، تسمى الباحثة الاجتماعية فوظيفتها بحث البيئة التى يعيش فيها المريض ، وتستطيع أن تتصل بأبيه وأمه وجيرانه وأقرانه ، وتسألهم عن تاريخ حياته منذ الولادة ، حتى تستطيع

أن تعرف تاريخ حياة المرض ، ومصدره ، والظروف التى ولد فيها المريض ، والتى ربى فيها ، وطبعا تحاول معرفة أخلاق كل من الأب والأم وعلاقاتهما الواحد مع الآخر ، إلى غير ذلك مما له تأثير على نشأة الطفل وحياته الحاضرة والمستقبلة . أما الإخصائيون الآخرون ، فقد يقومون بتدريب لسانه على النطق ، إن كان ممن تعودوا اللجلجة أو التهتهة أو الفأفأة أو التلعثم ، وبملاحظة لعبه ، تارة وهو منفرد ، وتارة وهو مجتمع بأمثاله ، إذ اللعب مسرح تظهر فيه الميول والدوافع بشكل طبيعى ، أوقريب منه ، ولذا يعول عليه الأطباء كثيرا فى اكتشاف مصدر الشذوذ ، كما أنهم يستخدمونه كوسيلة للعلاج . ولا نريد أن نطيل فى وصف كيفية العلاج ، وإنما أردنا بتلك النبذة المختصرة عن عمل العيادات السيكولوجية ، أن نبين من عملها أن الشذوذ قد ينشأ عن أسباب طبية وفسيولوجية ، أو من أسباب نفسية ، تنشأ من البيئة المحيطة بالطفل ، وما بها من أوامر ونواهى ، وكفاح بين رغبات الفرد ورغبات أقرانه .

وإن ازدياد الإقبال على تلك العيادات يوما بعد يوم ، لدرجة اضطرارها لإغلاق أبوابها دون الكثيرين ، يدلنا دلالة واضحة على وجود نسبة كبيرة بين النشء ، ممن يعتورهم الشذوذ من غير أن يعلموا ، أو من غير أن يشعروا بالحاجة لعرض أنفسهم على الطبيب .

وقد يخشى بعض الآباء أن الطفل إذا خوطب وعومل بصراحة فى صدد الأمور الجنسية ، قد لا يعرف الظروف المناسبة للكلام فيها ، فقد يتحدث فيها إلى أغراب أو ضيوف ، من غير أن يرى فى ذلك غضاضة أو عيبا ، ولا شك أن تقاليدنا وظروفنا الاجتماعية تضطرنا لأن ننظر إلى تلك المسائل بشىء من التحفظ والاحتياط . غير أن تلك المخاوف يمكن التغلب عليها بإفهام الطفل أن تلك المواضيع من المسائل العائلية الخاصة ، التى هى ملك للأسرة أو للفرد ، كغيرها من أسرار العائلة ومسائلها الخاصة ، التى يجب أن لا تفشى للأغراب ، كالمسائل المالية والعلاقة بين أفراد الأسرة وغير ذلك .

وهنا قد يتبادر للقارىء أن يسأل عما إذا كان الصبيان والبنات يزودون بنفس المعلومات ، من غير اختلاف بينهما . وللإجابة على ذلك نقول : إن الرأى الذى كان سائدا فى السنين الماضية ، أن الصبيان يجب أن يزودوا بمعلومات أكثر من تلك التى تزود بها البنات ، والاعتقاد بأن البنات أطهر وأبسط من الصبيان ، قد دل البحث والملاحظة الدقيقة على خطئهما ، وأثبت خطل الاعتقاد ، الذى كان البعض يرى بناء عليه ، أنه لا مانع من أن يدرس الصبيان شيئا عن الأعضاء التناسلية عند النساء والرجال على حد سواء ، أما البنات فيكفيهن أن يعلمن ما يختص بالنساء فقط . وغنى عن البيان أن فتيات اليوم فى العالم المتمدين لا تنقصهن القدرة ، أو الرغبة أو الحاجة إلى تفهم تشريح تلك الأعضاء عند الجنسين على السواء ، وأنهن إذا لم يزودن بها صراحة ، فلن يقصر جهدهن عن الحصول عليها من طرق أخرى . وعندنا أنه إذا كان ثمة داع للتفرقة بينهما ، فالأولى أن يعطى البنات قسطا أوفر من تلك المعلومات ، لأنهن يقع على كاهلهن العبء الأكبر من الحياة الزوجية ، ولأن الحمل يقتضى دراية بالطرق الصحية ، كما أن تربية الأطفال تحتاج إلى مثل تلك الدراية . وإن أجدر الناس بتلقينهم تلك المعلومات بالتالى هو الأم بلا شك .

ويمكن تلخيص المسائل الهامة ، التى يحتاج الناشئون إلى النصح والإرشاد فيها ، فى النقط الآتية :

أولا — العناية بصحة الفرد الجنسية ، ويدخل تحت ذلك كل ما يختص بالفرد ، ويؤثر فى صحته وعقله . فيجب على المراهقين معرفة الحقائق الخاصة بالتغيرات الجسمية والعقلية والوجدانية ، التى تنتابهم قبيل المراهقة . كما يجب عليهم دراسة شىء عن العادة السرية وأثرها وأسبابها . ومن المفيد أن يعرف البنات شيئا عن كيفية العناية بأنفسهن وقت الحيض ، إلى غير ذلك .

ثانياً — الاحتياط للمسائل الجنسية الاجتماعية ، وهى التى لا تخص الفرد وحده ، كالأمراض التناسلية ، والعلاقات الجنسية الزوجية ، والعلاقات غير

المشروعة ، والعلاقات الشاذة وأثرها الضار فى صحة المرء ونفسه .

ثالثاً — النتائج الناجمة من الاختلاط الجنسى ، كالحمل وغيره ، ويجب تزويد النشء بما يجب عمله عند حدوث النسل ، فى غير الزواج ، بدلا من التكتم والاستسلام إلى الوصفات المنزلية ، ومدعى الطب وغيرهم .

رابعاً — السلوك المحمود فى المسائل الجنسية حتى يكون موقف الناشئين حسناً غير شاذ . كما يشمل ذلك تعويدهم السلوك المحمود ، نحو الجنس المقابل ودراسة موضوع العلاقات الجنسية ، وموقف الدين والقانون نحوها ، ثم دراستها من الوجهات الطبية والنفسية والاجتماعية .

خامساً — الزواج ، والعوامل التى تؤدى إلى نجاحه وفشله .

هذا عن الأغراض التى نرمى إليها من التربية الجنسية . ومنها نرى أنها لاتدور حول إثارة الغريزة ولفت نظر الناشئين إليها ، مما يترتب عليه اشتغالهم بها ، وإنما هى تربية للعناية بها ، كبقية المسائل الصحية والنفسية والاجتماعية .

وليس من شك فى أن تفهم تشريح الأعضاء التناسلية ، يساعد فى فهم وظائفها ، ويساعد على العناية بها ، ودرء أخطارها ، وتحاشى الأمراض التى تصيبها ، وبغير تلك الدراسة تكون فكرة النشء عنها خيالية محضة ، بعيدة عن الحقيقة كل البعد . كما أن الذين يخافونها ولا يعرفون شيئاً عنها ، تتضاربهم الهواجس ذات اليمين وذات الشمال على غير هدى من العلم والحقائق ، وليس من داع لأن نؤكد للقارىء أن الكثيرين ممن يقعون فى شراك تلك الأمراض لم تكن عندهم فكرة عنها قبل الوقوع فيها ، وأنهم لوكانوا على علم بطرق الوقاية منها لما وقعوا فيها ، أو على الأقل لأسعفوا أنفسهم بالعلاج قبل استفحال الأمر وإزمانها معهم . نعم إن الكثيرين ممن تصيبهم على دراية بها قبل وقوعهم فيها ، ولكن هؤلاء عليهم أن يتحملوا مسئولية عدم الإكتراث بعلمهم ، فغلطتهم ليست ناشئة من الجهل ، وليست جناية من لم يزودهم بالمعلومات ، ولكنها جناية إرادتهم عليهم ، إذ تخاذلت أمام أهوائهم ،

وتركتهم يركبون متن الشطط ، فحق عليهم القول ، وجنوا ثمار ما صنعوا .

ومن الفرص المناسبة للتربية الجنسية ، وتزويد النشء بالمعلومات اللازمة تلك التى تسنح أثناء دراسة علم الصحة والبيولوجيا والتاريخ الطبيعى ، إذ من المفيد معرفة شىء عن تشريح النبات والحيوان بما فيه الإنسان ، وكيفية تكاثر كل من النبات والحيوان من غير إعطاء لون خاص للمسائل الجنسية ، أو إعارتها أهمية خاصة تمتاز بها عن غيرها من الحقائق ، بل يجب أن تعتبر كأنها حقائق علمية محضة . ومن المواضيع الجديرة بالدراسة أيضاً موضوع الوراثة فى كل من النبات والحيوان ، فهى تفيد فى تفهم انتقال المميزات الجسيمة والسيكولوجية من الآباء إلى الأبناء ، وقد تكون مرشداً حسناً لمن يفكرون فى انتقاء أزواج أو زوجات المستقبل ، فمن المفيد أن يعرف النشء شيئا عن أثر التزاوج بين الأقارب ، وأثره بين الأغراب ، كما يعطى فكرة عن أثر التزوج من ضعاف العقول أو المرضى ، إذ أن الذكاء من الصفات التى تورث أيضا ، وتنتقل من الآباء إلى الأبناء ، ومن الصفات السيكولوجية التى تورث أيضا العمى اللونى ، وهو عدم مقدرة الشخص على رؤية أنواع خاصة من الألوان ، فقد لوحظ أنه لو تزوج رجل مصاب به امرأة ذات نظر طبيعى فإن البنات اللاتى يولدن لهما ، لا يكن مصابات به ، ولكن إذا تزوجت إحداهن رجلا ذا نظر طبيعى ، فإن أولادهما الذكور قد يصابون به . هذا المثل يبين لنا وجود أنظمة وقوانين خاصة تسير عليها الوراثة ، ولا شك أن معرفة النشء بها تفيده أيما فائدة .

وقبل أن نختم كلامنا فى هذا الموضوع نقول : إن الغريزة الجنسية أكبر مصدر للاضطرابات العصبية والشذوذ الخلقى ، بل يوجد أطباء نفسيون يعتقدون أنها ليست أكبر مصدر فحسب ، بل هى المصدر الوحيد لكل الاضطرابات العصبية والتى تصيب النوع الانسانى ، نظراً للانفعالات القوية المتصلة بها من خوف وحب وكراهية ، وما يتبعها من كبت أو تنفيس ، ومن

هؤلاء الطبيب النمساوى سجمند فرويد ، الذى اصبح لنظريته شأن هام فى علاج تلك الاضطرابات . غير أن الكثير من علماء النفس والأطباء النفسيين يرون أن رأيه به شيء من التطرف ، ولكنهم مع هذا لاينكرون أن كثيراً من تلك الاضطرابات ناشيء من محاولة قمع تلك القوة التى وراء الغريزة الجنسية ، ونتيجة سوء التصرف فى بعض المواقف ، وليس غرضنا من ذكر كل ما مضى إلا إنارة الأذهان ، فالوقاية خير من العلاج .

ونلخص ما ذكرناه فى ذلك الفصل فى القواعد الثلاث الآتية :

القاعدة الأولى — وهى ضرورة تزويد النشء بالمعلومات الصحيحة ، فيما يختص بالأمور الجنسية ، ونقول إن المعلومات وحدها لا تكفى ، إلا فى بعض الأحوال القليلة ، فالفتى قد يعلم الحقيقة ، ويعلم الضرر الذى ينجم من اتخاذ خطة خاصة ، أو تعود عادة سيئة ، ولكن إرادته تخونه أحيانا . ولذا يجب تدريب تلك الإرادة ، وتوجيه سلوكه توجيها فعليا إيجابيا ، فلا نكتفى بالنهى ، بل يجب إعطاء النموذج الصحيح ، ووضع الخطة التى يجب أن تتبع عمليا بشكل واضح ، وهذا يكون بمساعدة هؤلاء الفتية على ترتيب وقت فراغهم بشكل يبعدهم عن مصادر الخطر ، وفى الوقت نفسه يضمن لهم حياة صحيحة كما أن زيادة المعارض الصحية ورؤية مابها من نماذج طبية للأمراض المختلفة ، كثيراً ما يكون كفيلا بإيجاد روح الكره لما نخاف عليهم منه .

القاعدة الثانية — توجيه الشعور الجنسى نحو المثير الطبيعى الصحيح ، والمحافظة عليه من أن يتجه نحو المثيرات الثانوية ، ومن أن يعتوره الشذوذ .

القاعدة الثالثة — ضرورة الإقلاع عن سياسة الإقناع بالتخويف والإرهاب ، وبث الكراهية لأفراد الجنس الآخر ، وكثيراً ما يحدث ذلك فى حالة البنات ، فإن الأم رغبة منها فى الحرص على ابنتها ، ولكى تنبهها للأضرار التى تنجم عن اتصالها بأفراد الجنس الآخر ، قد لاتلجأ إلى الإقناع ، بل تصورهم كأنهم ذئاب يريدون السطو عليها فى أول فرصة ، كما

أنها تصور مقصدهم منها تصويراً سيئا ، ولاشك أن ذلك ليس فى صالحها ، فيجب تحاشى بث العداء بين الجنسين .

ونورد هنا اتماما للفائدة ولمعونة المعلمين الذين يودون تطبيق مبادىء هذا الكتاب ملخصا لدراسة فى التربية الجنسية [١] يصح أن تعطى فى المدارس الثانوية [٢] :

١ — الأسرة وأهميتها فى حياتنا :

(ا) أهمية الأسرة فى التقدم الإنسانى .

(ب) الآراء المختلفة لأعضاء الأسرة .

(حـ) معايير السلوك فى العصور المختلفة وضرورة التمشى مع الآباء .

(ء) العادات المختلفة فيما يختص بالزواج .

(هـ) أثر الوراثة .

(و) اختيار الأصدقاء من البنين والبنات .

٢ — العلاقات بين البنين والبنات :

(ا) أهمية التقاليد .

(ب) الجاذبية بين الجنسين والحب .

(حـ) المشاكل الشخصية كالعادة السرية والاتصال الجنسى غير المشروع والتخلص من الحبل .

٣ — النمو والخلف :

(ا) النمو إلى الرجولة .

١) الفروق الفردية .

٢) التغييرات الجسمية .

٣) متى تظهر هذه التغيرات .

---

(١) Sex Education in High Schools Baker

(٢) اقتطفنا هذه الدراسة مع شىء من التصرف .

(ب) العناية الصحية فى دور المراهقة :

١) من الوجهة الجسمية والعقلية والاجتماعية والسيكولوجية

(حـ) العناية بالفتاة أثناء الحيض .

١) دورة المحيض .

٢) تصحيح الآراء السائدة عن الحيض .

٤ — ايجاد النسل .

(ا) عمل الأعضاء الجنسية والغدد الجنسية .

(ب) تكون المنى والبيض .

(حـ) التلقيح .

(ء) نمو الجنين والعناية به .

٥ — الولادة .

(ا) التغيرات التى تحدث عند الولادة .

(ب) الصحة بعد الولادة .

الفصل التاسع

الجمع بين الجنسين فى المدارس

ما من موضوع فى التربية تضاربت فيه الآراء كما فى ذلك الموضوع ، إذ نجد كثيرا من الآراء القيمة فى كلا الصفين ، فالآراء التى تحبذ الجمع بينهما تقوم على أسس سيكولوجية واجتماعية ، بينما الثانية تقوم على أسس التقاليد والنظم الاجتماعية ، ولنلخص تلك الآراء فيما يلى :

إن من يرون فصل الجنسين عن بعضهما فى المدارس ، يقولون إن الجمع بينهما قد يؤدى إلى مالا تحمد عقباه ، من الوقوع فى شرك الحب ، والاختلاط الجنسى . فإن الفتيان والفتيات إذا ما التقوا فى الفصل والملعب وحفلات المدرسة ، لا يمكن منعهم من التحادث طبعاً . كذلك لا يمكن منعهم من إعجاب الواحد بالآخر ، سواء أكان ذلك من الوجهة الجسمية ، أم الخلقية . وذلك قد يؤدى إلى الحب والهيام . فإذا ما وصل الأمر إلى تلك الدرجة ، أخذ كل من الطرفين يتحين الفرص للخلوة بالآخر ، تلك الخلوة التى قد لا يشوبها أى غرض جنسى خطر فى أول الأمر . ولكن الخطر يأتى فيما بعد عند ما تجمح بهما الغريزة الجنسية ، فلا يجدان من حداثة سنهما ، وقلة خبرتهما ، كابحا لجماحها ، فضلا عن أن شدة عواطفهما وانفعالاتهما الجنسية ، وغير الجنسية ، لا تكون نصيرا لهما فى ذلك الموقف . أمام تلك الاحتمالات لا نستطيع طبعا أن نجزم بسلامة العاقبة . ومهما كان من شأن بعض المراهقين الذين قد يتغلبون على انفعالاتهم ، ويدارون الأمر بحكمة وإرادة قوية ، فإنه لابد من وجود البعض ، مهما كانوا قلائل ، ممن تخور عزائمهم ، ولو مرة من المرات ، فيحدث مالا تحمد عقباه .

وأشد تلك النتائج خطرا وجود النسل طبعا ، إذ يزيد فى خطر الموقف

أن كلا من الفتى والفتاة ، على قدرتهما واستعدادهما للانتاج من الوجهة الفسيولوجية ، قاصر عن العناية بالنسل ، من الوجهة الاقتصادية والاجتماعية كما قدمنا . فهما لا يستطيعان تحمل المسئولية ، والقيام بأعباء الحياة العائلية ، لأنهما عديما الكسب ، وخبرتهما فى الحياة قليلة ، فهما لا يزالان فى دور التعليم . كما أن الفتاة لا تكون قادرة بعد على تحمل متاعب الحمل ، فضلا عن مشاق تربية الأطفال ، والسهر على راحتهم ليلا ونهارا ، وعلى الأخص فى الطبقات المتوسطة والفقيرة ، التى لا تستطيع أن تستأجر من الخدم والمراضع ، من يتحمل البعض على الأقل من تلك المشاق ، كما أن خبرتها فى المسائل المنزلية تكون قليلة ، لانصرافها إلى الدراسة عندئذ .

هذه تكون أخطر نتيجة بلا شك ، لأنها تمس الناحيتين العملية والاقتصادية ، ولا يغيبن عن ذهننا أيضا الناحيتان الدينية والخلقية . فالدين حرم الاتصال الجنسى ، إلا بالطريقة التى يقرها ، وهى الزواج . وليس من ينكر أن ذلك أفضل للانسانية من ترك الاتصال على عواهنه فوضى لا يربطه رابط . كذلك من الوجهة الخلقية ، فشعور كل من الفتى والفتاة بأنهما قد اقترفا إثما ، وخرجا على العرف والدين ، يؤثر فى نفسهما تأثيراً بالغا ، يكون حظ الفتاة منه أشد من الفتى ، فشعورها بالعار يحط من ثقتها بنفسها ، ويذلها ويحرمها من عطف المجتمع والعائلة ، وتصبح أنظار الرامقين كأنهما شواظ من نار ، فتنشأ فى أزهر أيام حياتها ، وفى ريعان شبابها ، طريدة ، كاسفة البال ، فضلا عن العار الذى يلازم صغيرها طول حياته أيضا . وهكذا تدخل الفتاة معترك الحياة ، وعلى كاهلها طفل لا أب له يعوله ، أو يعترف به ، أو ينسب إليه ، فيظل أمامها رمزا للعدوان الذى ارتكبه ذلك الفتى الحدث ، وللزلة التى زلتها إرادتها فلم تغتفر لها .

ويبلغ عدد الأطفال الذين يولدون لأمهات غير متزوجات فى الولايات المتحدة حوالى خمسة عشر أو عشرين ألفا فى العام ، ويشمل ذلك الرقم حوالى

ألفى أم يتراوح عمرهن بين العاشرة والخامسة عشرة . ولو أن ذلك الرقم ليس قاصرا على تلميذات المدارس فقط، إلا أنه يبين ماتؤدى إليه إباحة الاختلاط الجنسى، سواء فى المدارس أم غيرها فإن إباحة اختلاط الجنسين فى المدارس ستؤدى حتما إلى نشوء الصداقة بينهما وإلى الاختلاط فى غير أوقات الدراسة وتلك حجة قوية بلا شك لأنصار الفصل بينهما .

ولنفرض أن الأمر لم يصل إلى ذلك الحد ، فلم ينتج النسل فإن الخطر الخلقى يظل قائما ، فالفتى الذى يتصل بالفتيات أول أمره ، قديستعذب الأمر فلا يقتصر على واحدة يبادلها الحب ، بل قد يجاوزها إلى أخرى . وليس فى علم النفس ما يقول إن الحب ، مهما كان خالصا ، إذا تعلق بفرد واحد لا يتعداه إلى فرد آخر . فمن المعقول أن يحب الفرد عدة أفراد ، سواء أكان ذلك فى وقت واحد ، أم الواحد بعد الآخر ، وعندئذ ينشأ الاستخفاف بالحب ، وتنشا عادة الغرام ، فيصبح شيئا آليا لا يصدر عن عاطفة صادقة ، أو دافع سوى الدافع الجنسى ، فيصبح الفتى لا يبغى شيئا سوى الوجود فى حضرة الفتيات ، ويظل شاعرا بالسرور ما دام كذلك . وهب أنه اكتفى بهذا القدر من الصداقة ، من غير أن يرغب فى تعديه ، فإن الفكرة الأساسية لا تكون متجهة نحو الاحتفاظ بذلك الفرد دون سواه . وذلك ما هو حاصل فعلا بين الأمم الأوروبية التى تبيح الاختلاط بشكل صريح ، فإن الكثيرين من الرجال والنساء ، والفتيان والفتيات ، يتصاحبون ويتمارون ويتراقصون من غير أن تكون لدى أحدهم أو إحداهن نية الاحتفاظ بصاحبته أو بصاحبها ، والمفهوم والمتعارف عليه بين كل زوج هو الاستمتاع بالوجود معا . لا نقول إن كل زوج شأنه كذلك ، ولا نريد أن نقول إن ذلك شأن الغالبية ، ولكن الكثيرين من غير شك يفعلون ذلك ، ولسنا نريد أن نحكم على ذلك النظام الاجتماعى بالسوء أو أن نحبذه ، ولكننا نقول إنه يؤدى إلى الاستخفاف بالجنس المقابل ، ذلك الاستخفاف الذى ينجم من التعود على صحبته ،

والاستمتاع به ، ومن كثرة الوقوع فى الحب ، والخروج منه ، والذى قد يؤثر فى الحياة الزوجية فيما بعد ، ويؤخر الإقبال عليها تأخيرا ليس بالقليل . وذلك أيضا مشاهد فى البلدان الأوروبية والأمريكية والتى على شاكلتها ، إذ أن سن الزواج عندهم أعلا بكثير مما عند الأمم الشرقية ، التى على النقيض من ذلك ، تغالى فى التبكير به ، فتزوج المراهقين والمراهقات فى سن العاشرة أو الحادية عشرة كما فى مصر ، أو قبل ذلك ، كما فى الهند مثلا ، حيث يظهر البلوغ فى سن مبكر .

كذلك يقول أنصار فصل الجنسين إن اجتماع الشبان والشابات فى المدارس ، قد يشغلهم عن دروسهم ، وعلى الأخص من يقع منهم فى حب من لا يحبه ولا يستجيب له ، أو العكس ، فنكون بذلك قد أوجدنا للفتى أو الفتاة شاغلا ، ما كان أغناهما عنه ، فى وقتهما أحق ما يكونان فيه بتوجيه عنايتهما واهتمامهما نحو دروسهما وصحتهما .

كذلك الدين لا ينهى عن الاتصال الجنسى غير المشروع فحسب ، بل ينهى أيضا عن النظر إلى محاسن الجنس الآخر عمدا ، ويأمر بالغض من النظر المقصود منه الاستمتاع . وليس لدينا ما يؤكد لنا أن الفتيان لن يخالفوا ذلك الأمر ، إذا جمع بينهم فى فصل واحد ، فذلك يحتاج إلى عزيمة مستمرة ونخاف أن يكون مثلنا كمثل من ينطبق عليه قول القائل :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

هذا عن الفصل بين الجنسين ، ولكننا نجد فى الكفة الأخرى اعتبارات قوية يدعم بها أنصار الجمع آراءهم ، ويناصرها الكثيرون من علماء النفس . فهم يردون على الاعتراضات السابقة بقولهم إن المدارس التى يختلط فيها الجنسان ، يكون الخطر فيها أقل مما هو متوقع ، لأنهما يتعودان رؤية بعضهما فلا يكون لأحد الجنسين تأثير غريب على الجنس الآخر ، ذلك التأثير الذى نراه باديا فى الأوساط التى لم تتعود الاختلاط ، عند ما تختلط لأول مرة ،

لأن الفصل يثير الرغبة فى الاستطلاع ، ويجعل كلا من الفتى والفتاة يعيش فى جو خيالى ، فيتصور كل منهما الآخر على غير حقيقته . وكلما ازدادت الرغبة الجنسية ازداد الاستملاح والتغزل ، وتخيل الجنس الآخر على غير حقيقته . وربما كان هذا ما حدا بالعرب فى مختلف بقاعهم التى نزلوا فيها إلى العناية بالغزل ، والمبالغة فى وصف المحبوب ، وشعرهم ملىء بذلك مما يكاد لا يجارى من وجهة الخيال والمبالغة فى التشبيه . وإن أدبهم ومجونهم ، من شعر ونثر ، ليظهر بأجلى وضوح ، المنزلة التى حـــل فيها النساء من خيال الرجال ، فقد وصفوهن وصفا خياليا بعيدا عن الحقيقة كل البعد ، فتارة يشبهوهن بالملائكة وأخرى بما لذ وطاب من أنواع المأكل والمشرب ، أو بأشعة الشمس ، أو بنجوم السماء ، حتى ليخيل للقارىء أنهن لسن من البشر . بينما نجد الأدب الغربى ، مع وجود الخيال والتشبيه والمبالغة فيه أيضا ، أقرب إلى الحقيقة والوصف الدقيق الملموس فى الغزل . والمشاهد أن إقبال الشبان على الأمور الجنسية فى الأمم الشرقية ، التى لا تبيح الاختلاط صراحة ، أشد منه فى الأمم التى لا تقيم العقبات فى سبيله ، ولا نريد أن نقول إن الميل الجنسى أقوى ، ولكنه يشغل ردحا أطول من وقتهم ، ويستنفذ جزءا أكبر من تفكيرهم ، وطاقتهم العقلية والعصبية ، حتى إن البعض لينهمك فيها ، لحد قد يفسد عليه حياته ، ويشغله عن أعماله . وإن خبرتنا الخاصة بالجامعات الأوروبية لتؤيد تلك الحقيقة التى نحن بصددها ، فهذه تغذيها مدارس من نوعين ، بعضها يختلط فيه الجنسان ، والبعض الآخر خاص بجنس واحد . حتى إذا أتى الصنفان إلى الجامعة ، اختلطا طبعا من غير تمييز ، فلاحظنا كما لاحظ غيرنا ، أن الفتيان والفتيات الذين أتوا من مدارس مختلطة ، يكونون أكثر رزانة واعتـــدالا فى سلوكهم مع الجنس الآخر ، فقد يكتفى الواحد منهم من بين الجمع الحاشد من الطلبة والطالبات ، بصديق أو صديقين من الجنس الآخر ، ممن تكون الصداقة قد بدأت معهم فى المدارس الثانوية . أما الذين أتوا من مدارس

من جنس واحد ، فيشاهد إقبالهم الشديد على الجنس الآخر ، والتعرف بأفراد كثيرين وعلى الأخص فى أول عهدهم بالجامعة ، وتدينهك بعضهم فى تلك الناحية بدرجة يتعذر معها استمرارهم فى الدراسة . وهذا ماحصل فى بعض الحالات فعلا ، فتراهم لا يفوتهم أى اجتماع يضم الجنسين ، وعلى الأخص مجتمعات السرور واللهو والرقص ، بحجة إقبالهم وتشجيعهم للحياة الاجتماعية بالجامعة . وفى كثير من الأحيان نرى انضمامهم لجمعية من الجمعيات ، لا بدافع الإقبال على العلم ، بل لوجود فرد خاص ، مرغوب فيه من محبذى تلك الجمعية ، ومن المواظبين على اجتماعاتها ، ولو أن هذا قد يكون أحياناً مفيداً لكلا الطرفين . فإقبالهما على المحاضرات العامة ، والاجتماعات العلمية ، يفيدهما من طريق غير مباشر ، كما يحدث أن اثنين يلازمان المكتبة سويا ، لأنها المكان الوحيد الذى يستطيعان أن يجلسا فيه جنبا إلى جنب ، من غير اعتراض . ويحدث أحيانا أن يكتفى كل منهما بالجلوس إلى جانب الآخر ، من غير أن يقطع عليه متابعته لعمله ، راضيا بكلمة أو ملاحظة قصيرة من آن لآخر . كما لايخفى ما قد يقدمه أحدهما للآخر من المعونة ، فى المواضيع التى يصعب عليه فهمها ، أو بحثها مستقلا ، وفائدة ذلك طبعا لا تنكر .

ويميل كثير من الأطباء الذين مارسوا علاج الاضطرابات العصبية والشذوذ الخلقى ، وكذلك الكثيرون من علماء الاجتماع ، إلى تعضيد الجمع بين الجنسين ، وإعطائهم فرصة التعارف ، فيقول أحدهم فى هذا الصدد « إن من حق الفتيان والفتيات أن يتعلموا جنبا لجنب ، فإن الفتيان إذا نشأوا لا يعرفون سوى الفتيان ، والفتيات لا يعرفن سوى الفتيات ، كان من الصعب تربية كل منهما تربية خلقية سليمة من الشوائب » .

ويقول آخر : « هناك كثير من الجدل حول الجمع بين الجنسين فى التعليم ، ولكن من حسن حظ الحياة العائلية ، أن الغالبية متجهة الآن نحو الجمع بينهما ..... فالرغبة الجنسية شىء طبيعى عادى فى دور المراهقة ، فلا الجمع

بينهما ينشئها من العدم ، ولا الفصل يميتها ويمحوها من الوجود . فهى تظهر لأنها من خواص ذلك الدور . وليس لدى الهيئة الاجتماعية لعلاجها طريقة أفضل من إيجاد الفرصة للتعارف بينهما ، فى ظروف طبيعية لايحفها الشك ، ألا وهى البيئة المدرسية . فالمدرسة التى تجمع بينهما بيئة طبيعية ، أما التى تفصل بينهما فليست كذلك » .

ويؤيد الكثيرون من علماء النفس والأطباء النفسيون ضرورة الجمع بينهما باعتبارات سيكولوجية ، سبق أن ذكرنا معظمها فى مكان آخر من هذا الكتاب (راجع الفصل السابق عن الغريزة الجنسية ، وما كتبناه عن أحلام اليقظة ، وعن أحوال الشذوذ) .

أما الاعتراض الذى يزفه أنصار الفصل ، بقولهم إن قوى الجنسين العقلية ليست متساوية ، ولذا لايجوز الجمع بينهما فى فصل واحد ، وتعليمهما بطريقة واحدة ، فمردود عليه بالحقائق السيكولوجية التى أوردناها فى فصل الفروق العقلية بين الجنسين ، والتى تدل على أن الجنسين متساويان فى متوسط الذكاء العام . وعلى ذلك فهذه النقطة تعضد رأى الجمع بينهما .

ولكن لاننس أن الجنسين وإن كانا متساويين من حيث متوسط الذكاء العام ، فإنهما يختلفان من حيث القدرات الخاصة ، فتجد الذكور يتفوقون فى بعض تلك القدرات ، ويتفوق الإناث فى البعض الآخر . فمثلا تدل الاختبارات العقلية على تفوق الإناث فى جميع أنواع التذكر ، وعلى الأخص عند مايكون الحفظ بطريقة آلية ، أى بدون التفكير فى معنى مايحفظ . كذلك يتفوقون فى التصور imagery ، فصورهم العقلية تكون فى العادة أوضح من صور الذكور . غير أن هؤلاء يفوقونهن فى تذكر المسموعات أحسن من المرئيات . كما يفوقونهن فى التخيل ، وعلى الأخص التخيل الإبداعى ، أى الذى يقتضى الابتكار والاختراع .

ولذا نجد أن النساء أصلح للأعمال التى تحتاج إلى عادة مستمرة ، وإلى صبر وطول أناة ، وإلى الإحاطة بنواحى العمل المختلفة وأطرافه الشاردة ، ولكن الأعمال التى تحتاج إلى ابتكار واختراع ، وإلى إجراء أبحاث ، فإن الذكور يكتسحون الميدان فيها .

أما فى المواد الدراسية ، فالبنات يفقن الصبيان فى المواد الأدبية ، كالمطالعة والهجاء والإنشاء وما شابه ذلك ، بينما يفوقهن الصبيان فى الرياضيات . غير أن العمليات الرياضية التى تحتاج إلى مجهود آلى من غير تفكير متجدد ، تعطى فرصة للبنات لإظهار التفوق ، كبعض الأعمال الحسابية الآلية ، والتى تعتمد على جداول محفوظة عن ظهر قلب . وفى الجغرافيا يتفوق الصبيان ، ولكن البنات يتفوقن فى التاريخ .

ومن المفيد هنا أن نقتطف شيئاً من تقرير اللجنة الاستشارية لوزارة المعارف الانجليزية ، التى طلب منها فى سنة ١٩٢٠ أن تضع تقريرا عن موضوع التفرقة بين الجنسين ، من حيث البرامج فى المدارس الثانوية ، فكتبت تقول : « لم نستطع بعد البحث أن نجد فروقاً بين الجنسين ، يعتمد عليها فى بناء سياسة تعليمية خاصة . نعم صادفنا أقوالا ساذجة عامة ، يشتم منها وجود فروق بين الجنسين ، ولكننا لم نقتنع بشىء منها . وقد أكد لنا الشهود الذين استشرناهم فى الأمر ، أن الصبى يختلف عن الصبى ، والبنت تختلف عن البنت ، أكثر من اختلاف الصبيان فى مجموعهم عن البنات فى مجموعهن . وكلما أيد شاهد تفوق الصبيان فى ناحية من النواحى عادله شاهد آخر بتفوق البنات فى تلك الناحية أيضاً . وليس من السهل أن يمتنع المرء عن التحيز لأحد الجنسين ، غير أنه مادامت الأبحاث النفسية قائمة فى الوقت الحاضر على قدم وساق ، ومادامت الإحصائيات لا تزال تترى ، الواحدة بعد الأخرى ، فقد يأتى وقت نستطيع فيه أن نجزم بحقيقة ملموسة ثابتة . أما فى الوقت الحاضر فليس من الحكمة أن

نفترض وجود فروق أو تساو بينهما ، بل يجب أن نترك المسرح حرا لظهور كل منهما » .

ومهما يكن من أمر اختلاف الجنسين فى القدرات الجسمية أو العقلية . فليس المفروض أن يدرس كلاهما نفس المواد . فالفرق بين الجنسين ليس قاصرا على قدرتهما الحاضرة بل يجب على المدرسة أن تنظر إلى مستقبل كل منهما ، أى إلى الأعمال التى سيقوم بها كل من الجنسين بعد ترك المدرسة . فالبنات يهمهن تعلم الطهى والحياكة والغسيل والعناية بالأطفال وغير ذلك من المسائل التى تستدعى الأعمال المنزلية العناية بها . ولكن ليس معنى ذلك أن تهمل الرياضيات أو الكيمياء أو اللغات أو غيرها . فهذه معلومات عامة يحتجن إليها فى حياتهن سواء فى المنزل أم فى غيره . ويجب أن لا ننسى أن البنات منهن من سيستمررن فى الحياة العملية العامة كالطب والتدريس والتمريض وغير ذلك . ولذا يكون الاعداد المهنى ذا أهمية كبيرة لهن . وعليهن حينئذ العناية بالعلوم التى تؤهلهن لمهنهن . ومن الناحية الأخرى نجد أن المواد المنزلية التى ذكرناها لا تقتصر أهميتها على البنات . فالكثيرون من الرجال يحتاجون إليها سواء فى حياتهم الخاصة أم فى أسفارهم ، ولذا تعنى الكشافة بتعاليم الفتيان الطهى وغير ذلك .

وتلك الاعتبارات السابقة لها محلها سواء أكان الجنسان فى مدرسة واحدة أم منفصلين . فمنهاج البنين لابد وأن يختلف عن منهاج البنات فى أشياء معينة ، كما أنه لابد وأن يتحد معه فى أشياء أخرى ، ولا يغير الموقف اجتماع الجنسين أو انفصالهما .

وفى هذا الصدد يقول جيمس ايرل رسل James Earl Russell عميد كلية المعلمين بجامعة كولمبيا بنيويورك .

(من البله أن نقول إن الجمع بين الجنسين فى المدارس معناه إعطاء نفس المنهاج لكل منهما . فلقد مضى زمن طويل منذ أن كان المنهاج

عقيما خاويا إلى ذلك الحد . وهب أننا أعطينا البنين والبنات نفس الدروس ، فليس من المحتم أن يصلوا جميعا إلى نفس النتيجة أو الفائدة ، فليس هناك تلميذان يستجيبان استجابة واحدة سواء أكان ذلك عقليا أم روحيا) .

ويقول الدكتور رسل أيضا :

(يجب أن تمهد الفرصة لكل من البنات والبنين ليجنوا من ثمار التعليم ما يفيدهم فى حياتهم ، وهذا هو السبب فى أن الكثير من المدارس قد أدخلت التعليم المهنى ضمن برامجها . ولقد مضت الأيام التى كانت فيها مدارسنا الثانوية صورة مصغرة لكلياتنا الجامعية ، وهذه لم تعد لشىء سوى خدمة الكنيسة والحكومة . فكانت بذلك معاهد أرستقراطية لخدمة البعض الذين كان فى استطاعتهم دفع نفقاتها . ولكن ما دامت المدارس الثانوية الحالية يصرف عليها من خزينة الدولة ، فالجمهور الذى يتحمل نفقاتها يهمه أمر البنين والبنات على السواء ، فأصبح الجمع بين الجنسين أمراً ساريا فيها) .

ونورد هنا أيضاً رأى الأستاذ رسل عن التفرقة بين منهاجى البنين والبنات.

(نظراً لأن ٨٠٪ على الأقل من البنات سيتزوجن ويقررن فى بيوتهن ، فإن المدرسة الثانوية عليها مسئولية تزويدهن بالعلوم الخاصة التى يحتجن إليها ، حتى أنه ليس ثمة مدرسة ثانوية لا يشمل منهاجها المواد المنزلية اليوم . وسيستمر هذا الاتجاه حتى يصبح منهاج المدارس الثانوية الذى يعطى للبنات اللاتى لا يعتزمن الالتحاق بالجامعة شديد الاختلاف عن ذلك الذى يعطى للاتى يعتزمن الاستمرار فى دراستهن) .

يتحدث الأستاذ رسل عن الحالة فى أمريكا ، ونرى أن ماقاله فى هذه العبارة شديد الانطباق على مصر والشرق ، بل نحن أحوج من أمريكا إلى إعطاء برنامج خاص للبنات نظرا لقلة من يسرن فى دراستهن إلى النهاية وكثرة اللاتى يتزوجن قبل الالتحاق بالجامعة .

ولننظر الآن للموضوع من وجهة أخرى ، فقد ذكرنا عند الكلام عن الفروق الجسمية بين الجنسين ، أنهما يختلفان فى القوة البدنية ، وفى قوة احتمال أعصاب كل منهما للجهود والاضطرابات ، وفى سرعة تأثر كل منهما بالتعب . ويلوح لنا أن فى تلك الفروق عضدا لأنصار التفرقة بينهما ، إذ أن الحكمة تقضى بأن لا يكلفا بنفس الأعمال ، إذا كانا مختلفين فى القوة البدنية ، وفى قدرة احتمال أعصابهما للجهد والتعب . فمثلا لا يجوز تكليفهما بحضور دروس من طول واحد ، أو بعمل مجهد من نوع واحد . كما أن معاملة المدرسين والإدارة المدرسية لكل من الجنسين لابد وأن تتنوع مادامت أعصاب كل من الجنسين تختلف فى احتمالها وفى تأثرها . فالبنات أسرع تأثرا ، وعلى ذلك فهن فى حاجة إلى أنواع خاصة من التأديب ، وعلى الأخص عند توقيع العقاب ، أو منح الثواب .

وإزاء تلك الاعتبارات ، نجد أنصار الجمع يسلمون بالنتيجتين الآتيتين ، وإن كانوا لا يسلمون بوجوب الفصل كلية وهما :

أولا — أن يفصل بينهما فى الألعاب والتمرينات البدنية فصلا تاما ، بمجرد ظهور الفروق الجسمية بينهما ، وبعبارة أخرى بعد انتهاء المرحلة الابتدائية مباشرة . فليس من الإنصاف عندئذ إجبار البنات على الانخراط مع البنين فى ألعابهم الخشنة ، وألعاب القوى ، فهن ضعيفات من تلك الناحية ، فضلا عن أنهن لا يحتملن الألعاب التى تستلزم جهداً متواصلا ، لسرعة تأثرهن بالتعب ، وإلا تعرض قلبهن للضرر .

كما أنه ليس من الإنصاف إجبار البنين على مجاراة البنات فى ألعابهن الهادئة الناعمة ، أو السريعة الرشيقة ، وحرمانهم من ألعابهم التى تمرن عضلاتهم وتهيئهم للمستقبل الذى ينتظرهم ، والذى لاشك يتطلب منهم قوة جسمية عالية ، فضلا عن السرور الذى يجدونه فى مزاولة مثل تلك الألعاب .

غير أن أنصار الجمع ، وإن قبلوا ما سبق على أسس طبية ، يرفضون كل الرفض أن يسلموا بالفصل فى الألعاب والرياضة على أسس اجتماعية ، كأن يقال إنه ليس من اللائق اجتماع الجنسين فى ملاعب المدرسة ، للريبة فى سلوكهما ، أو لخروج ذلك على التقاليد والآداب . ولذلك لا يرون مانعا ما من اجتماعهما فى الملاعب لشهود حفلات رياضية ، يقوم بها أحد الجنسين ، أو أن يلاعب الصبيان البنات فى لعبة التنس ، أو أن يشتركوا فى الرقص[1] ، ويقولون إن اجتماع الجنسين فى الملاعب ، وفى النشاط المدرسى خارج أوقات الدراسة ، يساعد على زيادة التعاون ، فهو لذلك مرغوب فيه كل الرغبة ، ويندبون سوء الحظ الذى جعلهما مضطرين للانفصال فى الألعاب الرياضية ، فيحرما من التعاون فى تلك الناحية أيضا . ولقد حاول بعضهم تنظيم ألعاب مشتركة ، يستطيع الجنسان القيام بها معا . حتى سن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة . غير أن تلك المحاولة فشلت ، إذ سرعان ما رجحت كفة الصبيان ، الذين أخذهم الحماس ، فاخشوشنوا فى لعبهم ، ونسوا زميلاتهم الناعمات ، ولذا أهملوا تلك المحاولة ، ولو أن البعض الآخر لا يزال مصرا على الاستمرار فيها .

ولنلخص المناقشة السابقة فيما يلى : إن المدرسة التى تجمع بين الجنسين تمهد لكل منهما فرصا ثمينة للتعاون ، ولذا فإنه من الخطل حرمانهما منها ، ولكن مادامت طبيعة كل منهما تحتم الانفصال فى بعض الظروف ، فليكن الفصل فى تلك الظروف الخاصة فقط ، حتى لا تنتج نتائج وخيمة ، من الإصرار على جمعهما فى كل مظاهر الحياة المدرسية .

ثانيا — لما كانت البنات أسرع تأثرا من الوجهة العصبية ، وأقل احتمالا للتعب ، فلا داعى لتكليفهن بنفس الأعمال التى تطلب من البنين . كما أنه يجب أن يعطين وقتا أطول لتحاشى الإجهاد . ولقد أخذ ولاة الأمور بهذا الرأى

---

(١) المقصود هنا الرقص التوقيعى .

فى انجلترا ، ودعمته اللجنة الاستشارية الانجليزية التى بحثت التعليم الثانوى ، فقررت وجوب تأخر البنات سنة عن البنين فى التقدم لامتحان الدراسة الثانوية أو بعبارة أخرى أن الفتى الذى بلغ من العمر ١٦ سنة يعادل من الوجهة الدراسية ، الفتاة التى بلغت من العمر ١٧ سنة .

والبعض ينقضون الاعتبارات السابقة من أصلها ، فيقولون إن ماقيل عن تعرض الفتيات للإجهاد العصبى ، وسرعة التأثر بالتعب ، مبالغ فيه كثيراً . ويقولون هب أنها ليس مبالغا فيها ، فإن النتائج الوخيمة المزعومة يمكن تحاشيها لا بفصل الجنسين كلية ، بل بجعل نظام الدراسة مرناً ، يسمح للضعفاء من الذكور والإناث بالسير حسب سرعتهم الخاصة بهم ، من غير إجهاد لهم .

غير أننا نرد على هذا الاعتراض ، بأن تلك المرونة إذا كانت لتوافق طبائع الضعفاء من كلا الجنسين ، فإنها يجب أن تكون مرونة واسعة النطاق ، تكاد لسعتها تحتم وجود مايشبه نظامين داخل المدرسة الواحدة . وهذا لاشك يزيد فى مشاكل الإدارة المدرسية .

ويقول أنصار الجمع ، إن المدرسة المختلطة توفر فى تكاليف البناء ، فبناء مدرسة واحدة أقل تكاليفا من بناء مدرستين ، فضلا عن أنه يوفر فى مرتبات النظار والمدرسين والكتبة والخدم . فإذا فرضنا أن بلدة من بلاد الريف فى مصر مثلا ، ليس بها من البنين وحدهم ، أو البنات وحدهن ، ما يكفى لشغل مدرسة ثانوية قائمة بذاتها ، فإن الجمع بينهما يكفل ملء تلك المدرسة ، ويوفر تكاليف بناء مدرستين ، أو حرمان أحد الجنسين من وجود مدرسة فى تلك البلدة ، ويوفر مؤونة السفر إلى بلدة أخرى توجد بها مدرسة ثانوية . أما مشكلة احتياج البنات إلى مواد دراسية خاصة ، كأشغال الإبرة والتدبير المنزلى فيمكن التغلب عليها بفصل الجنسين فى بعض الحصص ، حيث يدرس كل من الجنسين مواده الخاصة ، ثم يجتمعان فى المواد التى لا تستدعى التفرقة ، كاللغات والرياضيات والتاريخ والجغرافيا .

ولكننا وإن تغلبنا على تلك العقبة الصغيرة . لا بد أن نسلم بان إدارة مدرسة يجتمع فيها الجنسان ، أصعب من إدارة مدرسة بها جنس واحد . فكما يجتمع فيها تلاميذ من جنسين مختلفين ، يجتمع فيها كذلك معلمون ومعلمات من جنسين مختلفين ، ولكل منهما معاملة خاصة من الناظر أو الإدارة. كذلك لا بد من عمل ترتيبات خاصة لكل من المعلمين والمعلمات فى حجر الجلوس ، وترتيب الحصص ، وفى الاجتماعات والحفلات المدرسية . كما يلزم لكل من التلاميذ والتلميذات أيضا حجر خاصة ، غير حجرة الدراسة ، كحجر الاستراحة ، والنظافة ، والمذاكرة ، وكل ذلك يجعل المراقبة الدائمة والإشراف التام على كل صغيرة وكبيرة من ألزم المستلزمات . كذلك عمل الجدول ، وتخصيص حصص به للطبخ والكى والغسل وأشغال الإبرة والأشغال اليدوية وفلاحة البساتين وأشغال المعادن والخشب ومعامل الكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعى ، وترتيب حصص خاصة لكل من الجنسين فى الملاعب أيضا ، كل ذلك لا شك يشغل جزءا كبيرا من وقت الناظر أو الناظرة ، ولا ننس أيضا ضرورة مقابلة أولياء أمور التلاميذ والتلميذات ، وهم فى تلك الحالة من الجنسين أيضا ، وهما يأتيان للمناقشة فى أمور أبنائهم وبناتهم الخاصة والعامة .

غير أننا نرى رغم الصعوبات المذكورة ، أن تلك المدارس تسير فى كل من انجلترا وأمريكا سيرا حثيثا ، وتنجح فى مقابلة كل تلك الصعوبات بشكل يدعو إلى الإعجاب ، وتخرج فتيانا وفتيات ناجحين وناجحات فى الحياة . ولا ننسى أن بعض تلك الصعوبات الناشئة من الفروق الجنسية قد تكون أحيانا مصدر معونة . فالحفلات المدرسية التى يشترك فى إقامتها الجنسان ، أنجح من التى يقيمها جنس واحد . فتعاون البنين والبنات فى تلك الحفلات ، لا شك له قيمة ، فالبنات مثلا يستطيعون إعداد المشروبات والمأكولات ، وإعداد الموائد وتنسيقها ، وصف الأزهار ، وإعداد الملابس للحفلات التمثيلية وحياكة الستر إلى غير ذلك . بينما البنون يقيمون أخشاب المسرح ، ويقطعون

الأخشاب اللازمة لأعمال الكشافة ، ويخططون ملعب المدرسة وينظفونه ، ويصفون الكراسى ، ويضعون المصابيح الكهربائية ، ويستقبلون المدعوين . ويمكن للجنسين أن يشتركا فى التمثيل ، أو فى فرقة الموسيقى وهكذا .

ولا شك أن الحياة المدرسية التى يكون هذا شأنها ، تكون أقرب إلى الحياة الطبيعية خارج المدرسة ، حيث يعيش الجنسان جنبا لجنب .

ومهما تكن نتيجة الموازنة بين حجج الفريقين ، نجد أنفسنا أمام نتيجة لاجدل فيها ، ولايعارض فيها أنصار الرأيين ، ألا وهى أن الجمع بين الجنسين فى المدارس الابتدائية والأولية أمر مرغوب فيه ، حيث لم يبلغ الطفل المراهقة بعد ، فلا خوف من اجتماع الجنسين حينئذ ، إذ أن نظرة كل منهما للآخر تكون بريئة ، خالية من كل فكرة جنسية أو ميل شديد ، ويتخذ الطفل عندئذ أصدقاء من الجنسين على حد سواء من غير تفرقة أو تحيز . ومع خلو ذلك النظام من الضرر ، نجد أن له الفوائد التى يذكرها أنصار الجمع ، والتى أوردناها سالفا ، والتى من أهمها عدم جعل الجنسين غريبين عن بعضهما ، وتمحو ذلك الغموض القائم فى ذهن كل منهما . وليس أدل على سلامة نية الأطفال وصفاء سريرتهم ، فيما يختص بالأمور الجنسية من أنهم بعد أن يروا رواية سينمائية مثلا ، كثيرا ما يتحدثون عن القبلات والحب والحياة الزوجية ، من غير أن تعلوهم حمرة الخجل ، أو يرتابوا فيما يقولون ، كأنها حقائق عادية . وما أشد دهشتهم عند ما تنظر إليهم أمهم أو مربيتهم تلك النظرة الفاسية ، التى تسكتهم وتعقد لسانهم ، فتقطع سلسلة حديثهم ، من غير أن يفهموا لذلك من سبب ، اللهم إلا أن الخوض فى ذلك عيب ، ولا يظفرون بأكثر من ذلك ، فيظل هذا الغموض قائما فى أذهانهم حتى تكبر سنهم ، ويبدأون فى فهم اصطلاح المجتمع على كتمان كل ما يتعلق بالأمور الجنسية ، ولكن هيهات بعد فوات الوقت ، إذ تكون الأمور الجنسية قد اقترنت فى أذهانهم بالغموض والخفاء والعار والاحتقار .

الفصل العاشر

المدرسة الثانوية

المبادىء التى تقوم عليها تربية المراهق وتعليمه

كما أن دورى المراهقة والبلوغ يتميزان عن دور الطفولة بمميزات تجعلهما مرحلة خاصة فى حياة الإنسان ، فكذلك المدرسة الثانوية التى يعهد إليها تربية الفتيان والفتيات فى دور المراهقة ، يجب أن تختلف لحد ما عن المدرسة الابتدائية ، التى يعهد إليها تربية الأطفال . وكما أن النمو الجسمى والعقلى والوجدانى يكون تدريجيا ، فكذلك الانتقال من المدرسة الابتدائية إلى الثانوية يجب أن يكون تدريجيا . فالمواد التى تدرس بالسنة الأولى من المدرسة الثانوية، يجب أن لا تكون أصعب بكثير مما يدرس فى نهاية المرحلة الابتدائية ، والمعاملة كذلك يجب أن تقرب مما كان متبعا فى نهاية تلك المرحلة ، حتى لا يصطدم الناشىء فجأة بمعاملة مختلفة ، قد يظهر له أنها خالية من العطف ، مع أن نفس المعاملة قد تظهر عادية لتلميذ السنة الرابعة أو الخامسة الثانوية ، الذى كبر وأصبح على قاب قوسين من مرحلة الرجولة . وكنا نود أن يلاحظ ذلك التدرج أيضا فى كثير من النواحى الأخرى من المدرسة الثانوية ، كطول الحصص وغيرها ، لولا أنه تقوم دون ذلك عقبات فى النظام العام للمدرسة ، بمعنى أننا لو جعلنا طول الحصص فى السنتين الأولى والثانية يختلف عنه فى السنوات الثالثة والرابعة والخامسة ، لارتبك جدول الدراسة ، وعلى الأخص إذا كان بعض معلمى المدرسة سيشترك فى التدريس للفرق كلها . كذلك فترات الراحة تصبح متداخلة فى بعض الفرق ، مع الحصص فى الفرق الأخرى ، بمعنى أنه فى الوقت الذى تتريض فيه بعض الفرق ، تكون الأخرى مستمعة للدرس ؛ ولا

يخفى مافى ذلك من شوشرة على الدراسة ، فضلاعن أن وجود نظامين فى مدرسة واحدة يجعل مهمة ناظر المدرسة شاقة ، تكاد تكون مستحيلة فى المدارس الكبيرة الحجم .

ومهما كان من أمر التدرج ، فإن المدرسة الثانوية مادامت قد عهد إليها بتربية المراهقين ، فيجب أن تكون ملائمة لتلك الميزات التى ذكرناها سابقا فى مكان آخر من هذا الكتاب .

إلا أن الملاحظ أن المدارس الثانوية ، لافى مصر فحسب بل فى كثير من بلدان العالم المتمدين ، كانجلترا وفرنسا مثلا ، لم يراع حتى الآن فى نظامها ميول الفتيان وطبيعتهم ، بل نراها وكأنها جامعة صغيرة ، همها كله موجه نحو المواد والدراسات العقلية ، التى تشبه كثيرا الدراسة الجامعية ، ولا تختلف عنها إلا فى قلة الكمية . إن ذلك النظام وليد فكرة خاطئة عن الغرض من التعليم الثانوى ، بل عن التربية أجمع ، ألا وهى فكرة الإعداد لكسب العيش مع إهمال طبيعة التلميذ وميوله فى الوقت الحاضر وتضحيتها فى سبيل المستقبل البعيد . فإن الملاحظ فى مناهج تلك المدارس إعداد التلاميذ للمرحلة العالية أو الجامعة ، حيث يتلقى الطلبة العلوم التى تساعدهم على القيام بأعباء الوظائف والمهن فى الحياة العامة . ليس منا من ينكر أن بعض تلاميذ المدارس الثانوية سوف يتلقون علومهم يوما ما فى المدارس العليا أو الجامعة ، وليس منا من ينكر كذلك ، أن الدراسة الجامعية ، تقوم على أساس الدراسة الثانوية ، ولكن هؤلاء التلاميذ الذين نعنى بمستقبلهم الجامعى وما بعده ، لهم حياة نامية تحتاج إلى العناية بها فى الوقت الحاضر قبل المستقبل ، وهذا لن يتحقق بإرهاق عقولهم بمواد عقلية معنوية جافة ، لاتغنى فى حياتهم الحاضرة شيئا ، فتطرد الشوق من حياتهم وتجعلها شقية فى مرحلة من أزهر مراحل النمو الإنسانى ، تنبثق فيها روح الآمال ، وتطمح فيها النفس إلى مستقبل زاهر بديع ، وتتفتح

فيها أمام الفتى ، أو الفتاة دنيا جميلة من الخيال البديع ، تنسجه أحلام اليقظة ، وآمال الشباب . كل ذلك تفسده عليهم المدرسة الثانوية الحالية بدراساتها الجافة ، التي لاحياة فيها ، والتى لا يمت الكثير منها إلى الحياة الخارجية بصلة ما . فضلا عن أن كثرة المواد وكثرة العمل العقلى ، ترهق جسم المراهق وعقله ، فى وقت هو أحوج ما يكون فيه للراحة والاعتدال فى العمل ، نظرا للنمو السريع ، ولتعرضه للأمراض والعلل ، فى وقت قد بدأت فيه صحته وحواسه ووجدانه تنمو لتأخذ شكلها النهائى ، فإذا نمت معتلة بقيت كذلك طول الحياة ، وصعب فيما بعد علاجها ، كما تبين ذلك الإحصاءات عن العلل المنتشرة بين تلاميذ المدارس الثانوية ، وتلميذاتها ، كضعف البصر والتواء العمود الفقرى وانتشار السل والأنيميا واصفرار الوجه وغير ذلك .

إذن يحسن بنا هنا قبل البدء فى بحث الخطة والمنهاج للمدرسة الثانوية ، أن نحدد الغرض منها ، لأن الغرض يتحكم فى كل خطوة من خطوات بحثنا .

تأتى المدرسة الثانوية كمرحلة وسطى بين المدرسة الابتدائية والجامعة ، كما أن المراهقة مرحلة وسطى فى النمو الإنسانى بين الطفولة والشباب أو الرجولة . هذا المركز المتوسط يجعل لها معنى خاصا فى حياة الفرد ، فالفتى لم يكتمل نموه بعد ، بدليل ظهور تلك التغيرات الجسمية والعقلية والوجدانية التى ذكرناها ، وهذه التغيرات تأخذ وقتاً قبل أن يستقر بدنه وعقله ونفسه ، وتأخذ شكلها النهائى الذى يتمثل فى دور الرجولة . وما دام الفتى لم يصل إلى هذا الحد ، فهو فى حاجة إلى العناية ، حتى لا يلحقه الضرر الذى قد يلبث معه طول حياته ، وهذه العناية لا تتوفر له إذا دفعنا به إلى ميدان الحياة ، وأرغمناه على كسب عيشه ، وخوض غمار العمل ، الذى كثيرا ما يحتاج إلى تضحيات كثيرة من الفرد ، فى وقت لم يكتمل فيه نموه ، ولم يتوفر له الجلد على مجابهة صعاب الحياة ، جنباً لجنب مع غيره من الرجال الأشداء الذين مارسوا الحياة ، وعرفوا مرها وحلوها ، فلا يلبثون أن يعرفوا مواضع الضعف فى الصغير

الناشيء ، وينالون منه أى منال ، فيهزل جسمه من الكد ، وتخور عزيمته ، لأنه لم يلبث أن خرج من عهد الطفولة الناعمة . وقد حدت هـذه الاعتبارات بالحكومات المتمدينة إلى تحريم استخدام الأطفال الناشئين فى الأعمال الصناعية والتجارية مطلقا ، حتى لا تضحى صحتهم ونموهم فى سبيل دراهم معدودة ، يجنيها آباؤهم من ورائهم . بل إن بعض الحكومات مثل انجلترة مثلا ، تحرم على الطفل الانقطاع عن المدرسة قبل سن الخامسة عشرة ، فكأن ولاة الأمور لا يكتفون بحماية الطفل من عبث أرباب الأعمال ، بل يجبرون أبويه على تربيته ، حتى يمر من دور المراهقة على الأقل ، ويجتازه من غير أن يعوق نموه أى عائق . وليس من شك فى أنه من المرغوب فيه أن تستمر تربية الفتى على الأقل حتى السابعة عشرة من عمره ، وهذا فعلا ما يفعله الآباء القادرون على الإنفاق ، إذ أنهم ليسوا بحاجة إلى الدراهم التى يكسبها فتاهم ، ويفضلون استكمال تربيته . كما أن فتاهم ليس بعالة على الحكومة ومالية الدولة ، لأن أبويه يستطيعان الإنفاق على تعليمه وتربيته . غير أن العوامل الاقتصادية تحول دون تعميم ذلك على الشعب بأسره ، لأن إجبار الفتيان على الذهاب للمدرسة لغاية سن السابعة عشرة ، معناه الإنفاق على هـذا الجم الغفير من التلاميذ ، وذلك مالا تتحمله مالية الدولة[1] ، رغم أنه أمر مرغوب فيه . كما أن حرمان الأبوين من ثمرة كسب الفتى إلى ذلك الوقت المتأخر ، واضطرارهم إلى الإنفاق عليه طول تلك السنين الطويلة ، قد يكون أكثر مما يستطيعان .

نرى إذن أن المدرسة الثانوية من أهم أغراضها العناية بنمو الفتى الناشيء وتعهده بالغذاء الصالح ، وتزويده بالخبرة اللازمة للحياة المقبلة . فكأن غرضها مزدوج ، ناحية منه ترمى للحاضر ، والناحية الأخرى ترمى للمستقبل . أما عن الحاضر ، فهو العناية بالفتى وبنموه من جميع النواحى ، البدنية والعقلية والخلقية والنفسية . أما عن المستقبل ، فهو إعداده للمرحلة التى تلى المدرسة الثانوية ،

(١) تحتم أغلب الولايات المتحدة بأمريكا التعلم حتى هذه السن . وتحتم انجلترا التعلم حتى سن الخامسة عشرة .

ألا وهى الجامعة . هـذان الاعتباران هما الأساسان اللذان يحددان خطة الدراسة ، واختيار مواد المنهج ، وسنرى كيف تنمو المدرسة الثانوية كنتيجة لهذين الاعتبارين .

ولـكن قبل أن نفعل ذلك ، دعنا نوضح التباسا يقع فيه الـكثيرون من أولياء أمور التلاميذ الذين يذهبون للمدارس الثانوية . فالـكثيرون منهـم يظنون تلك المدرسة غاية فى ذاتها ، تؤدى فى النهاية لـكسب العيش بالحصول على وظيفة أو بالعمل الحر . غير أن الملاحظ أن المنهاج الثانوى لا يمت بصلة إلى تلك الوظائف أو تلك الأعمال الحرة ، فالطالب الذى يحصل على شهادة إتمـام الدراسة الثانوية ، ويعمل كـكاتب بأحد دواوين الحـكومة ، لم يعد لمهنة الـكتابة ، ولوكان المقصود منه ذلك ، لتعلم الآلة الـكاتبة مثلا ، والاختزال ، وحسن الخط ، وطرق مسك الدفاتر ، وترتيب الدوسيهات والمكاتب ، وطرق كتابة الخطابات باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية ، بدلا من الجغرافيا والتاريخ والهندسة الفراغية والـكهرباء الاستاتيكية وحل معادلات الجبر والجـذور وغـير ذلك . ولذا فإننا ننصح لهؤلاء الذين يرغبون فى اختصار الطريق ، والنحو فى الحياة نحوا عمليا ، أن يذهبوا إلى المدارس الفنية ، فهى تؤدى بهم إلى حيث يريدون من الطريق المختصر . وحتى هذه المدارس يجب أن تراعى كذلك الناحيتين اللتين ذكرناهما سابقا ، وهما الإعداد للمستقبل مع العناية بالحاضر . فهى يجب أن تعطى التلميذ فرصة كافية للعناية بجسمه وبصحته وبأخلاقه وبحياته الاجتماعية ، جنبا لجنب مع المواد التى يتعلمها بقصد الاستفادة منها فى الحياة العملية بعد التخرج من تلك المدارس الفنية .

نرى إذن أنه بناء على كل ما سبق أن قلناه عن نمو المراهقين ، والتغيرات التى تنتابهم فى ذلك الدور ، ضرورة العناية بالتربية البدنية ، فالألعاب والأعمال التى يأتيها الفتيان فى الهواء الطلق خارج حجر الدراسة ، تحدث لهم سرورا ،

ويتمتعون بها أكثر من تمتعهم بالأعمال التى فى حجر الدراسة . وليس هذا قاصرا على فريق دون فريق ، فالأذكياء وغير الأذكياء يحبونها حبا جما . ومهما يكن من أمر حبهم لها فهى ضرورية لهم . وإنه رغم العناية التى بدأ ولاة الأمور يولونها للتربية البدنية فى السنوات الأخيرة فى مصر ، فإنها لم تنل العناية الكافية ولا تزال ينظر إليها كأنها مضيعة للوقت ، ويعتدى على أوقاتها بشغلها بمواد الدراسة الأخرى أحيانا ، وعلى الأخص إذا ما قرب الامتحان . وفى ذلك لا شك ضرر على المراهقين ، وعلى الأخص الفتيات منهم . فالمراهق فى حاجة إلى راحة كافية يستجم فيها قوته المنهوكة ، كما أنه فى حاجة للرياضة التى بها تنشيط للأعضاء الساكنة أثناء الأعمال العقلية . وإن الإكثار من الواجبات المنزلية ، فى ذلك الدور لا شك خطر على نمو المراهقين ، لأنه يحرمهم الراحة والتنزه بعد انتهاء اليوم المدرسى ، فضلا عن أنه يحرم عليهم اتباع الهوايات التى تتفق وميولهم الطبيعية . وإذا كنا سنخرج إلى الحياة بعد المدرسة الثانوية ، شبانا ضعاف الأجسام ، ضعاف العقول ، مصفرى الوجوه ، بأيديهم شهادات تدل على نجاحهم فى امتحانات المدرسة ، نكون قد دفعنا الثمن لتلك الشهادات التى لا قيمة لها غالبا ، أضعافا مضاعفة ، فإن الحرمان من الرياضة البدنية لا يؤثر على جسوم الفتيان فقط ، بل على عقولهم ونفوسهم أيضا ، فالفتى الذى يرهق عقليا من غير أن يعطى فرصة للترويح ، يخرج من المدرسة كالإناء الذى طفح فلا يقبل الزيادة ، فتراه يكره العلم والقراءة ، ويميل إلى حياة لا نشاط ولا عمل ولا إجهاد فيها ، وليس هذا بغريب ، فهو رد فعل للإرهاق السالف . وهذا لا شك مشاهد لدينا فى مصر ، فالفتى الذى يتخرج من المدرسة الثانوية أو الجامعة ، لاشك أنه ينتظر أقرب وظيفة ليحط رحاله ، ويبدأ حياة الراحة والخمول . وفى وظائفنا مجال لأمثاله ، فهو لا ينفع إلا لمثل تلك الأعمال ، أما الأعمال الحرة التى تتطلب نشاطا دائما وتيقظا ،

فيقبل عليها من لم يطفح كيله من الشبان الأجانب ، وهم ناجحون فيها كما نرى بأعيننا .

وفى رأينا أن تكليف التلاميذ بالواجبات المنزلية العديدة ، وحرمانهم من وقت فراغ كاف ، لا يؤدى إلى زيادة عملهم ونشاطهم العقلى ، فإنه كلما ازداد زمن العمل أخذ التعب من الإنسان ، فيقل محصوله ، ويقل مقدار ما يستفيده . وقد أجريت تجارب فى هذا الموضوع فأثبتت تلك النتيجة بشكل لامراء فيه ، فقد وجد فى بعض تلك الأبحاث أن العامل الذى يشتغل ٥١ ساعة فى الأسبوع ينتج كمية أكبر ممن يعمل ٦٦ ساعة ، مع تساوى الظروف الأخرى . وليس ذلك إلا لأن العامل الأول عنده من وقت الراحة ما يكفل له النشاط فى وقت العمل ، وبذا يكون إنتاجه فى كل ساعة من ساعاته كبيراً . أما الذى يعمل ٦٦ ساعة فهو متعب ، ولذا فإنتاجه فى كل ساعة قليل ، فكانت النتيجة أن مجموع إنتاج الأول فى ساعاته على قلتها ، زاد عن مجموع إنتاج الثانى فى ساعاته على كثرتها .

وإذا طبقنا هذا فى عالم التربية ، وجدنا أن التلميذ الذى يلعب فى فترات معينة ، تكون كمية إنتاجه أكبر من التلميذ الذى يواصل العمل طول يومه . ومهما يكن من أمر الكمية ، فمما لا شك فيه أن نوع العمل الذى ينتجه الأول أفضل من الذى ينتجه الثانى ، نظرا لنشاطه وشوقه إلى العمل واستجمامه لقواه .

هذا إذا نظرنا للموضوع من وجهة العمل ذاته ، أما من وجهة التلميذ ، فالواجبات المنزلية تحرمه الراحة فى دور المراهقة ، وتضره أيما ضرر . وعلى الأخص البنات .

وبالإضافة إلى الرياضة البدنية فإن المراهقين يجب أن تتوفر لديهم فرصة لتدريب العقل والجسم معا . وتلك تتوفر فى الأعمال اليدوية التى تتطلب تفكيرا وإعمال عقل ، أو الأعمال الجسمية التى تتطلب يقظة وانتباها . أو الأعمال العقلية التى تتطلب حركة جسمية . وهذا طبعا يكون بوساطة بعض

أنواع الرياضة البدنية . ثم بالأشغال اليدوية والفنية . كالتصوير وأشغال الخشب والورق والصاصال والرسم والفوتوغرافيا وغير ذلك ، وعلى الأخص الأعمال التى تستدعى من التلميذ الابتكار وإخراج أشياء جميلة .

ولقد ظل الاعتقاد سائداً زمنا طويلا بأن الأعمال اليدوية لا تصلح إلا لغير الأذكياء . أما الأذكياء فخير عمل لهم هو الأعمال العقلية المحضة ، ولكن الأخذ بهذا الرأى يقتضى حرمانهم من مصدر سرور كبير ، فضلا عن أن به سوء فهم للأعمال اليدوية على أنها مجرد أعمال آلية . ولكن الحقيقة أن الكثير منها يتطلب إعمال الفكر والجسم معا ، ويتضح هذا أكثر إذا علمنا أن من مقاييس الذكاء ما هو عملى محض ، لا يتطلب كتابة أو قراءة بل العمل باليد ، فالمشاكل تحل باليد لا باللسان ، وفى الحالتين العقل يعمل ويفكر .

وقد دلت أبحاث الأستاذ بير Pear السيكولوجية ، على أن الأعمال اليدوية وأعمال المهارة كالألعاب مثلا ، تتطلب عمليات عقلية عليا ، كالتحليل واستنباط مبادىء معنوية عامة ، كما فى تعود اللاعب الدقة فى إصابة الهدف ، والخروج من المآزق التى تصادفه فى لعبه ، والتغلب على خصمه وهكذا . وعلى ذلك فيجب أن لا نظن أن هناك هوة واسعة بين العمليات العقلية اللازمة لاكتساب المهارة ، والعمليات العقلية اللازمة لاكتساب المعلومات .

والفنون والأشغال اليدوية ، وإن تكن ذات أثر فى حياة التلميذ العقلية ، إلا أن هذا ليس الأساس الوحيد الذى يجب أن تقوم عليه فائدتها له ، فهى جليلة الفائدة لجسمه . من حيث ماتحتويه من الحركة ، وما تقتضيه من تضامن العقل والجسم فى العمل ، فضلا عن فائدتها فى تربية الانفعالات الجمالية وتغذيتها ، مما يدخل السرور على نفس التلميذ ، ويستثير شوقه لبذل الجد . ثم إن لها فائدة للمراهق خاصة ، ألا وهى القضاء على أحلام اليقظة ، التى هى من مميزات ذلك الدور ، فهى علاج ناجع لها ، بينما الأعمال العقلية المحضة ، فضلا

عن أنها كثيراً ما تبعث الملل فى نفس المراهق لعدم التغير والحركة بها ، فإنها تعطى فرصة للخلوة والسكون والتعمق فى التفكير ومتابعة الخيالات ، مما يؤدى إلى أحلام اليقظة . تلك هى الأسس التى نبنى عليها قولنا بضرورة الأعمال اليدوية والفنية ، لا للأغبياء فقط ، بل للأذكياء أيضا ، فهم كما تقول الأستاذة هويلر «فى حاجة إلى تربيـــة أيديهم مع ألسنتهم ، وعقولهم مع انفعالاتهم ، وإعدادهم لوقت الفراغ كما نعدهم لوقت العمل » وليس من العدل أن نحرمهم من فرصة نتيحها لمن هم أقل ذكاء .

والتربية الاجتماعية من أهم الأمور للمراهق . فهذه يجب الاهتمام بها لتعادل التربيـة الفردية . فإننا فى عنايتنا بالفرد ومواهبه وقواه وشخصيته ، يجب أن لا نغالى فى جعله وحده مركز العناية ، وإلا قضينا عليه من الناحية الاجتماعية ، وأصبح تعاونه مع إخوانه أمراً عسيراً . فكما أن حب النفس والذود عن حياضها أمر مرغوب فيـه ، إلا أن المغالاة فيـه تبعد الفرد عن إخوانه فى الإنسانيـة ، وتجعل النظام الاجتماعى مستحيلا . وكذا المنافسة فى المدرسة ، وما فيها من تشجيع للتلميذ على الثقة بنفسه ، والتفوق على أقرانه ، يجب أن لا يغالى فيها ، بل يجب أن تعادل بالتعاون ، الذى هو أساس نجاح الأمم فى الأيام الحديثة . وإن تربية التلميذ على التعاون ، وتعويده حسن السلوك والتصرف فى الحياة الاجتماعية ، لاشك يفيده عنـد مايخرج من المدرسة إلى الحياة ، ويجـد نفسه مضطرا لخوض معامع الحياة الاجتماعية ، وعلى تخطى عقباتها من غير أن يتعثر ، والاستفادة من الفرص التى تسنح لخدمة نفسه وخدمة أمته . فالفرد مهما كان كفئاً فى حد ذاته لابد له من العمل مع آخرين ، فإذا استطاع الانسجام معهم نجح ، وإلا قضى عليـه بالفشل ، فيطفق يشكو من الناس . ومن مبادىء هذه التربية ، العناية بفرق الكشافة ، والمعسكرات الخلوية والجمعيات المدرسية ، سواء أكانت جمعيات تمثيل أم جمعيات رياضة أم جمعيات

علمية ، فإن تنظيم هذه الجمعيات وتحميل التلاميذ عبء المسئولية فيها ، ضرب من ضروب التربية الاجتماعية .

ولا شك أن الامتحانات الحالية ، أكبر عقبة فى سبيل نجاح التربية الاجتماعية فى المدارس ، فإن قياس كفاءة التلميذ والمدرس والمدرسة بمقدار نجاحهم فى الامتحان ، لا يعطى فرصة للتربية الاجتماعية أن تظهر ، مهما كانت عناية المدرسة بها ، ولا يسمح إلا للمتفوقين فى المواد والعلوم أن يظهروا . ولا شك أن تلك المواد ليست أهم ما فى المدرسة ، فالتلميذ قد يكون أول الناجحين فى الامتحان لتفوقه فى الحفظ والاطلاع ، ولكنه أقلهم صلاحية للحياة الاجتماعية التى سيزج به إليها ، بعد الخروج من المدرسة .

ولا نرى فى المنهاج محل المواد تدريبية ، أى التى تدرب العقل وتزيده قوة ومهارة ، فإن نظرية التدريب الشكلى قد انهارت ، بعد أن أثبتت الأبحاث الحديثة أن التدريب المزعوم[1] لا يأتى بفائدة فى كثير من الأحيان ، وأن الفائدة لو حدثت تكون عادة طفيفة ، وأنها تتوقف على العناصر المشتركة بين العمل الذى يتدرب عليه الإنسان ، والعمل المطلوب انتقال التدريب إليه . ولقد دلت الأبحاث على أن طريقة التدريب عليها المعول الأكبر فى انتقاله . فإذا كان المتعلم يوجه انتباهه إلى تلك العناصر المشتركة بين العمليتين فإنه يحتمل انتقال التدريب . فيظهر لنا من ذلك أهمية طريقة التعلم فى انتقال التدريب ، فهى أهم من الإصرار على مادة معينة كوسيلة لانتقال نتائج التدريب من مادة معينة إلى الحياة العامة للتلميذ .

وبناء على الاعتبارات السابقة ، نستطيع أن نضع المنهاج للمدرسة الثانوية بالطريقة الآتية :

نجد أن هناك مواد تصلح للمراهقين كلهم ، أو غالبيتهم ، وهذه يجب أن تتناسب مع مميزات دور المراهقة العامة . ولنطلق على تلك المواد اسم (القدر الأصغر) أى أقل عدد من المواد يجب أن يعطى ، وما دام متمشيا مع طبيعة

(١) أى تقوية العقل بتدريبه على حفظ أشياء معينة أو التفكير فيها .

كل التلاميذ ، فلا بد لهم أن يدرسوه جميعهم على حد سواء .

وإلى هذا القدر تضاف مواد أخرى ، يكون لكل فرد حرية اختيار بعضها حسب ميوله واستعداداته ، وترك البعض الآخر الذى لا يلائمه ، ولنطلق على تلك المواد اسم (القدر المتغير) أى الذى يتغير من فرد لآخر .

القدر الأصغر أو القدر الدائم(١)

رأينا عند الكلام على نمو المراهقين ، والتغيرات التى تنتابهم ، أن الجسم محتاج للعناية به ، ولذا كان من اللازم جعل التربية البدنية جزءا من المنهاج .

كما أن تدريب العقل والجسم معا ، لإيجاد التوافق والانسجام بينهما ، يستدعى إدخال الأشغال اليدوية ، والأعمال الفنية ، فهى فضلا عن فائدتها المذكورة بها تربية للذوق ، وتنمية للحاسة الجمالية ، وهى منبع للسرور ، والحركة والنشاط للتلاميذ .

أما تعلق المراهقين بالطبيعة ، وشغفهم بالاستزادة من الحقائق العلمية عن الحياة ، والظواهر الطبيعية ، فيجد مجالا فى دراسة بعض المواد العلمية الدقيقة ، كالعلوم ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان .

أما ميل المراهق نحـــو الحياة الاجتماعية ، فيستخدم فى دراسة العلوم الاجتماعية والإنسانيات والدين ، ويدخل تحتها أدب اللغة ، واللغات الحية ، والتاريخ والجغرافيا ، وهى تفهمه حياة أمته ، وبلده ، وعلاقاتها بالأمم الأخرى ، وتقدم المدنية فى العالم بوجه عام . والتربية الوطنية أيضا ذات قيمة فى تغذية تلك الميول ، وليس من الضرورى أن تدرس منفصلة ، بل الأفضل أن تدرس بالاشتراك مع المواد الأخرى فى مناسباتها .

نرى إذن أن « القدر الأصغر » يشمل المواد الآتية : — التربية البدنية ،

---

(١) The irreducible minimum, or the constant in the curriculum.

بعض الفنون أو الأشغال اليدوية ، مشاهد الطبيعة ، اللغة الوطنية ، الأدب ، التاريخ والجغرافيا ، التربية الدينية والاجتماعية .

أما العلوم الرياضية والطبيعة والكيمياء فلا ترى الأستاذة أولف هويلر محلا لها فى القدر الأصغر ، لأنه القدر الذى يكتفى به مع التلاميذ الضعفاء ، فهؤلاء يجب أن يكون البرنامج مناسبا لقوتهم وسرعتهم ، كافيا لسد حاجاتهم العقلية والنفسية والجسمية ، مذكيا لشغفهم ، على أن لا يزيد عن ذلك ، وإلا أصبح فوق طاقتهم ، وبعث فى نفوسهم الملل ، وبعبارة أخرى أصبح مرهقا لجسومهم وعقولهم . ومع ذلك فتلك الزيادة لن يستفيدوا منها لارتفاعها عن مستواهم . وهذا فعلا مانشاهده فى المدارس الحالية ، التى يرغم فيها كل التلاميذ والتلميذات على دراسة نفس المواد ، بنفس السرعة ، وفى نفس الوقت . ولا شك أن رسوب الكثيرين فى الامتحانات ، وارتفاع شكواهم فى آخر كل عام ، راجع إلى هذا العيب فى المناهج المكتظة ، التى لا تفرق بين القوى والضعيف ، الذكى والغبى . فنرى أن التلاميذ رغم كثرة اشتغالهم بالأعمال الدراسية ، ورغم إحاطتهم بالجم الغفير من الحقائق العلمية المتناثرة ، لايستطيعون هضم ماتعلموه . وليست لديهم القدرة على التفكير المستقل .

ولذا فإننا نرى وننصح كل النصح أن يقتصر فى الدراسة الإجبارية (أى القدر الأصغر) على المواد التى ذكرناها مع ضعفاء التلاميذ ، وأن يعطى لهم المجال فوق ذلك لاختيار بعض المواد من « القدر المتغير » التى يشعرون نحوها بميل ورغبة .

ويقول ساندرسون المربى الشهير الانكليزى ، صاحب التجربة المعروفة فى بلدة (أوندل) بانجلترا ، إنه لو أعطيت لكل تلميذ حرية اختيار العمل ، لما كان هناك تلميذ ضعيف . فإن التلميذ المتوسط الذكاء ، أو الذى دون المتوسط ، لابد وأن له ناحية يتفوق فيها ويحبها ويجيدها . وإن اكتشاف تلك الناحية بالذات ، وإعطاء الفرصة له ليشبع ميله إليها وليجيدها ، لابد وأن يعيد إليه

احترامه لنفسه وثقته بذاته . وذلك بلا شك له أثر عظيم فى نموه وتطوره . فإذا نجحنا فى ذلك نكون قد قمنا بواجب من أسمى واجبات المربى ، وكلما خف الحمل عن كاهل ذلك التلميذ الضعيف . كانت فرص اتجاهه نحو تلك الناحية أكثر وأضمن .

وتقول الأستاذة هويلر إن من يحاولون إرغامنا على إدخال الرياضيات ضمن (القدر الصغير) يمكن الرد عليهم بما يأتى :

أولا — إن المراهقين قد مروا بالمرحلة الابتدائية حيث درسوا شيئا عن الحساب .

ثانيا — إن التلميذ بالمدرسة الثانوية ستسنح له ، أثناء دراسة المواد المختلفة ، فرص لاستعمال الرياضيات ودراستها من غير أن تخصص لها حصص محددة ، كالقراءة والكتابة التى تستخدم فى المواد المختلفة فوق ساعاتها المقررة .

ثالثا — أما ما يقال عن الفائدة العملية فى الحياة للرياضيات كما تدرس الآن فى المدارس الثانوية ، فمبالغ فيه .

رابعا — أما فائدتها التدريبية فأقل مما هو معتقد بكثير . وهنالك كثير من كبار رجال التجارة والصناعة يقومون بعملهم خير قيام ، مع استخدام النزر اليسير من الرياضيات ، أقل بكثير مما يتعلم فى المدارس الابتدائية .

وعلى ذلك ترى الأستاذة هويلر أن إرغام كل المراهقين على دراسة الرياضيات ليس مستحبا ، كمادة مستقلة .

القـــدر المتغير

يمكن أن نضيف إلى المواد السابقة مواد أخرى ، للتلاميذ الذين هم أكثر ذكاء من الضعفاء والمتوسطين . وعدد هذه المواد ونوعها يختلف تبعا لمقدرة كل تلميذ على حدة ، وتبعا لميوله واستعداداته أيضا ، كما يختلف أيضا تبعا لنوع البيئة التى يعيش فيها وما تتطلبه منه .

ولقد دلت الأبحاث على أنه يمكن تقسيم المراهقين بالتقريب إلى قسمين :

أولا — هؤلاء الذين ميولهم علمية أو لغوية ، والذين يميلون إلى المباحث المعنوية النظرية ويستطيعون متابعتها .

ثانيا — هؤلاء الذين ميولهم عملية ، وهم الذين يحبون الأعمال التى تتطلب التطبيق والعمل والحركة ، ويحتاجون إلى تمثيل المعنويات فى محسات .

وكلا القسمين يستطيعان دراسة القدر الأصغر وزيادة ، وتكون هذه الزيادة من القدر المتغير متنوعة تبعا للميول السالفة الذكر فيعطى للقسم الأول الرياضيات واللغة الأجنبية الأصلية والإضافية والطبيعة ، مع الاحتفاظ بأحد الفنون . أما القدر المتغير فيختار من بين الأشياء العملية ، كالفنون العملية والعلوم التطبيقية .

وبناء على ما سبق ، يدرس النوع الأول منهاجا يشبه كثيرا المنهاج المتبع فى المدارس الثانوية فى الوقت الحاضر ، ومنها يستمرون إلى الجامعة .

أما أفراد النوع الثانى ، فلا فرصة لهم فى المدارس الثانوية الحالية ، ويضطرون تحت الضغط إلى قمع ميولهم واتباع المنهاج النظرى المعنوى الذى تتبعه الفئة الأولى . وخير لهم أن يذهبوا إلى المدارس التى تهيء لهم تلك الفرصة العملية ، كالمدارس الفنية والصناعية . ومن الأسف أن تلك المدارس الآن ينظر إليها لا كأنها نوع من المدارس التى تزدهر فيها المراهقة ، بل كأنها نوع أقل من المدارس الثانوية المعروفة ، ولذا فالخطر فى أن تحاول هذه المدارس التشبه بالمدارس الثانوية ، بإدخال نفس المواد فى برامجها ، فتسلب هذا النوع من المراهقين فرصتهم الذهبية للنجاح والتفوق .

وتدل الأبحاث السيكولوجية على ضرورة وجود أنواع ثلاثة من المناهج للمراهقين ، يختارون منها ما يتناسب مع طبيعتهم .

النوع الأول : يحتوى على « القدر الأصغر » مع بضعة مواد متغيرة ذات صبغة نظرية ، ولو أن هـذه المواد المتغيرة قد يدرس بعضها بطريقة عملية أحيانا .

النوع الثانى : يشمل « القدر الأصغر » أيضا ومواد متغيرة ذات صبغة عملية تطبيقية .

النوع الثالث : ويشمل « القدر الأصغر » فقط ، وهذا يناسب الضعاف ، الذين لا يستطيعون القيام بأعباء شىء ما فوق القدر الضرورى الذى يناسب كل الأفراد وعامتهم .

ولقد بحثت هـذا الموضوع فى انجلترا ، اللجنة الاستشارية التى أصدرت تقريرها فى سنة ١٩٢٦ ، وهو المعروف بتقرير هادو المشهور Hadow Report فضمنته المقترحات الآتية :

أن مرحلة التربية التى تلى المرحلة الابتدائية يجب أن تتيسر لكل مراهق فى إحدى المدارس الآتية :

(١) مدارس ثانوية ، من نوع المدارس الثـانوية الموجودة الآن (فى انجلترا ، وهى تشبه فى مناهجها المدارس المصرية لحد ما) وهى تسير بوجه عام على نظام الدراسة العلمية أو الأدبية ، وتضم تلاميذها إلى سن السادسة عشرة (١٦ +) .

(٢) مدارس « مركزية » وهى تشبه مدارسنا الصناعية (ولـكنها أقل تخصصا من الوجهة العملية) ، مدتها أربع سنوات ابتداء من سن (١١ +) ، على أن يكون بالسنتين الأخيرتين شىء من التوجيه العملى .

(٣) مدارس « مركزية » من نوع أقل من الأولى ، تضم التلاميذ الذين لا يستطيعون دخول المدارس (المركزية) السابقة .

(٤) فصول للكبار من تلاميذ المدارس الابتدائية ، الذين لا يستطيعون

دخول إحدى المدارس السابقة ، لعدم وجودها فى المنطقة أو لسبب آخر ، وهى تبدأ من سن ١١ .

وأن رأى الأساتذة أولف هويلر ليمثل النزعة الانكليزية فى التربية . وتختلف عنها النزعة الأمريكية، فى اتساع المدى وكثرة الابتكار والاحتفاء بكل جديد، شأن الأمريكيين فى نواحى معاشهم الأخرى . وتمتاز المدارس الأمريكية فيما تمتاز به بشدة عنايتها بعلم النفس ، والصحة العقلية والصحة البدنية ، والألعاب الرياضية . كذاك ميلها إلى الناحية العملية والمهنية أشد من ميل التربية الإنكليزية ، ولذا تشمل أغلب المدارس الثانوية الأمريكية عددا هائلا من العلوم العملية والمهنية بين موادها الاختيارية . ونقصد بالعلوم العملية غير النظرية ، وبالمهنية نقصد تلك التى تعين الطالب أو الطالبة على الاستعداد لمهنة ما . وإن الكثيرين من الطلبة والطالبات يستطيعون الحصول على وظائف على أساس القدر البسيط الذى درسوه من تلك المواد العملية والمهنية ، كالآلة الكاتبة مثلا أو اللغات الأجنبية ، كاللغة الاسبانية التى لها أهمية تجارية فى أمريكا .

أما عن احتفاء المدارس الأمريكية بالجديد والآراء المبتكرة ، فحدث عنها ولا حرج ، وليس من سبيل لحصرها ، نظرا لاتساع البلاد الأمريكية وترامى أطرافها وحرية تصرفها . فمثلا تعنى إحدى مدارس البنات الثانوية بتدريبهن على أعمال المنزل وإدارته . فتسكنهن بيوتا يعشن فيها ، ويعنون بها عناية عملية ، بل إنهن ليعنون بأطفال يقترضنها من ملجأ قريب ليتدربن على حياة الأمومة . وتتبع مدرسة أخرى عادة توظيف الصبيان فى مصانع أو جاراجات لمدة أسبوعين ، ليكتسبوا التدريب العملى والمهنى ، وليتعلموا الناحية التجارية مع الناحية الصناعية كدراسة السوق وكيفية معاملة الزبائن إلى غير ذلك مما لا يمكن حصره ، فى كتابنا هذا .

وخلاصة القول، أن المدارس المصرية فى حاجة إلى نسخ برنامجها وتوسيعها لقبول الآراء الجديدة ، ونلخص أوجه الإصلاح فى النقط الآتية :

أولا : الإقلال من أهمية المواد النظرية كالرياضيات والجغرافيا والتاريخ.

ثانيا : فتح الباب لاختيار الطلبة والطالبات ، ما يروق لميولهم الحاضرة وما يتناسب مع مستقبلهم .

ثالثا : العناية بالمواد التى تحافظ على سلامة الناشئين ، الجسمية والنفسية وعدم اعتداء المواد الأخرى عليها .

رابعا : الإقلال من سطوة الامتحانات وجعلها أكثر مرونة لتتمشى مع روح التقدم .

خامسا : العناية بالعلوم العملية والمهنية من غير إعطائها صبغة مهنية محضة .

سادسا : تشجيع المدارس على إجراء التجارب واعتناق الآراء الجديدة المناسبة لحالة كل مدرسة من الوجهتين الجغرافية والصناعية .

الفصل الحادى عشر

تابع — تربية المراهق وتعليمه

تكلمنا فى الفصل السابق عن المبادىء العامة التى يجب أن تقوم عليها تربية المراهق ، ثم بينا كيف نختار مواد المنهاج التى تؤدى تلك الرسالة بوساطتها والآن نبحث فى الطرق التى نستطيع بها أن ننفذ ذلك البرنامج ، والروح التى يجب أن تسود تنفيذنا له .

مما لا شك فيه أن تلك الطرق التى سنتبعها فى تعليم المراهق ، يجب أن تكون مناسبة للميزات التى ذكرناها عن دور المراهقة ، حتى تكون النتيجة سارة مثمرة . ومن أهم تلك الميزات من الوجهة النفسية والخلقية ، نزعة المراهق إلى الاستقلال فى التفكير والحكم ، وعدم التأثر بالإيحاء أو الاستهواء كما كان أيام الطفولة . فنزعته الفردية الاستقلالية تزداد ، كما تزداد قدرته على التفكير ، وتزداد مرونته واستعداده لمطابقة النظام الاجتماعى والتمشى معه . تلك النزعات الاستقلالية تحدو به إلى الرغبة فى الابتكار ، وإخراج شىء ينسب إليه ، ويظهر فيه مقدرته الخاصة ، بدلا من مجرد التقليد والتكرار . ولذا فإن تلك الرغبة يحسن أن تجد مجالا فى نظام تعليمه . فالطرق الفردية تلذ له وتشوقه . لا نقول بمحو طريقة التعليم الجمعية فى الفصول ، المعروفة الآن ، فهى وإن كانت سلبية ، إلا أنها لها مزايا لا نود حرمانه منها . فيجب أن نجمع إليها الطرق التنقيبية والابتكارية ، التى تعطيه فرصة لأن ينقب عن المعلومات بنفسه ، ويبحث فى الكتب ، ويطلع فى المجلات والموسوعات ، ويستقى الحقائق ويجنيها جنياً ، ثم يخرج نتيجة بحثه وكأنها شىء جديد ، بدلا من الانتظار حتى يصب المعلم الحقائق فى أذنيه صبا . ولا شك أن تلك الرغبة فى البحث تضطرنا لأن نترك له شيئا من الحرية والاستقلال ، فى آرائه وبحثه

وفى حركاته وسكناته ، وفى تنظيم أوقاته وعمله . والأشغال اليدوية من الأعمال التى تعطيه تلك الفرصة للابتكار والاستقلال فى الإنتاج ، وتستلزم أيضاً شيئاً من الحرية فى طريقة العمل وتنظيمه . ولكن إذا وضعنا قواعد ثابتة للمتعلم ، وطلبنا منه أن لايحيد عنها ، أخرجنا منها عنصر الشوق والابتكار والاستقلال ، وأصبحت عملية جامدة مملة . ولذا يجب فى بدء اشتغاله بها ، أن نتركه يشعر بلذة الحرية ، فى الاختيار والعمل والإنتاج ، وأن لا نشتد فى البدء بالتمرينات الأولية للتدريب على الدقة ، ومراعاة القواعد الخاصة فى إمساك الآلات ، وكيفية الجلسة ، وكيفية البدء والانتهاء ، إلى غير ذلك ، فإن التدريب الجاف كان يناسب الطفولة أكثر من المراهقة ، حيث اتسع أفق الفتى ، وأصبح يرغب فى خوض معامع الأشياء الغامضة ، والمغامرة لمعرفة النتائج المجهوله ، إلى ركوبه الأخطار واستسهاله المشاق فى سبيلها . أما إذا طلب منه تكرار عمل من الأعمال أو تقليده ، جمد عقله واستولى عيه الخمول والملل .

وتسنح الفرص للطريقة الفردية الابتكارية فى كل مادة من مواد الدراسة فى المدرسة الثانوية أو الفنية ، وعلى المعلمين أن ينتهزوها ، ويعطوا الفتيان والفتيات فرصاً للاستفادة منها فى تربيتهم وتعليمهم .

ومن المستحسن أن لا يزود المعلم تلاميذه من المراهقين بتعليمات مفصلة كل التفصيل ، عند تكليفهم بعمل من الأعمال ، أو عند خروجهم برحلة أو زيارة ، لأن ذلك يقيد حريتهم ، ويسلبهم حرية التصرف ، ولا يعطيهم فرصة الاستقلال فى العمل والحكم . وإنما يحسن أن تكون الإرشادات على قدر اللازم ، وأن نترك لهم مجالا لاستخدام مواهبهم .

ولا شك أن الجمع بين شىء من طريقة البحث الفردية ، وطريقة التعليم فى الفصول ، يناسب مرحلة المراهقة ، لقضائه على الملل ، ولإعطائه فرصة للنزعة الاستقلالية الابتكارية ، التى نتحدث عنها .

ومن الطرق التى استحدثها المربون لتحقيق التربية الفردية ، ثلاث طرق اشتهرت فى القرن الحاضر وهى طريقة دولتون The Dalton Plan وطريقة موريسون The Morrison Plan وطريقة ونتكا The Winnetkla Plan وهى مع اختلافها فى تفاصيل نظامها ، تتحد كلها فى إلقاء عبء العمل على التلميذ ، وجعله يستقصى العلم بنفسه . وهى كلها تجزىء المنهج إلى وحدات ، يكلف التلميذ بدراستها كل على حدة . ويوضع لكل جزء من المنهج صحيفة خاصة تسمى « صحيفة التعيين » أى الجزء المعين على الطالب لدراسته . وفى هذه الصحيفة ، يجد الطالب الغرض من الدراسة ، والمصادر التى يجد فيها المعلومات ، والتاريخ المحدد لإنهاء دراسة ذلك الجزء . وعند الانتهاء على الطالب أن يجوز اختبارا مقننا يدل على كفايته وحسن تحصيله . وإن ذلك الأسلوب ليعطى المعلم فرصة الاطلاع على النقص فى عمل الطالب ، وفرصة العمل على إصلاحه .

وفى طريقة دولتون قد حولت الفصول إلى « معامل » لكل مادة على حدة ، يذهب إليها التلميذ عند ما يرغب فى دراسة مادة معينة . أما المعلم فقد أصبح مستشارا يلجأ إليه التلميذ لحل مشكلة أو صعوبة ، ولا يملى أو يلقى ، كما يفعل المعلم فى الطريقة الجمعية .

وفى طريقة ونتكا يخصص الصباح لدراسة المواد بالطريقة الفردية ، وبعد الظهر بالطريقة الجمعية التعاونية . ولاشك أن ذلك يتمشى مع الاتجاه الحديث فى التربية نحو النواحى الاجتماعية والوجدانية ، بعد أن كان الاهتمام كله بالدراسة العقلية ، واستوعاب الحقائق .

وإن حب المراهقين للتجوال والمخاطرة ليدفعهم للإقبال على الرحلات البعيدة ، إلى الأماكن ذات الأهمية التاريخية أو الجغرافية أو الجمالية ، كالآثار التاريخية ، ومنابع الأنهار ومنعطفاتها ووديانها ، والجهات التى تأثرت بفعل الرياح أوعوامل التحات والتعرية ، أو حدائق الحيوانات ، أومشاتل الزهور وحدائق النباتات الغريبة ، أوالمصانع الشهيرة . فهذه كلها بالإضافة إلى إذكائها

للسرور والشوق ، تفيد المراهق وتوسع مداركه ، وتشعره بانه فى موقف الباحث الذى يستقى الحقائق من منابعها الأصلية . كل تلك الطرق ترضى النزعات الفردية الاستقلالية ، التى تزداد قوتها الحيوية الدافعة فى وقت المراهقة.

ولقد مضى على المدارس المصرية حين من الدهر ، قبل أن تتنبه إلى أهمية الرحلات المدرسية والزيارات العلمية ، ولكنها توجه لها الآن عناية محمودة. فبرنامج كل مدرسة يشمل عددا معينا من الرحلات ، إلى البقاع الأثرية ذات الأهمية التاريخية أو البقاع ذات الأهمية الجغرافية ودور الصناعة ، إلى غير ذلك مما تغص به بلادنا . ولكن الملاحظ أن الغالبية العظمى من تلك الرحلات فى يومى الخميس والجمعة، أى فى غير أوقات الدراسة ، فكأن الرحلات والزيارات لايزال واضعو البرامج ينظرون إليها كأنها شىء إضافى إلى البرنامج فلا محل لها فى أوقات الدراسة . وإنا بلا شك لنرى أهمية الرحلات تعدو ذلك بكثير، فهى نوع من الدراسة ونعدها فى أغلب الأحيان أفيد من الدروس الجافة التى يتلقاها التلاميذ داخل جدران المدرسة واجمين ، فالمدرسة يجب أن تكون صورة للحياة ، ومهمتها أن تعد التلاميذ للحياة ، فلم نحبس التلاميذ إذن عن الحياة الحقيقية لنعطيهم صورة مصغرة منها . أليس الأجدر أن نستقصى الحياة الحقيقية ونتتبعها ، حتى يكون التلاميذ على اتصال بها أثناء تلمذتهم ، مستعدين لمجابهتها عند خروجهم من المدرسة . فخلاصة القول إذن أن الرحلات المدرسية والزيارات العلمية يجب أن تعتبر جزءا لا يتجزأ من الدراسة . بل إنا لنزيد على ذلك فنقول حبذا لو خصص ردح من السنة الدراسية للمران العملى كما تفعل بعض المدارس الأمريكية . فيحسن أن يخرج بعض التلاميذ ليقضوا أسبوعا أو أسبوعين فى عزبة من العزب مثلا، حيث يلاحظون كيفية الزراعة من حرث وبذر وري وحصاد ، وكذلك كيفية العناية بالماشية وحلب اللبن وجمعه وتوزيعه . ويمكن إرسال بعض التلاميذ كذلك إلى بعض المصانع، كمصانع المحلة الكبرى حيث يلاحظون كيفية غزل القطن ونسجه وطبعه

وحزمه وإرساله إلى الجهات المختلفة . كما أن بعض التلاميذ قد يذهبون إلى دار أحد البنوك أو إحدى الشركات التجارية أو إلى مصلحة البريد إلى غير ذلك ، ويكون الزمن الذى يصرفونه هناك مناسبا لأهمية العمل وسهولة الإحاطة به .

وتزداد حيوية الغرائز الاجتماعية ونشاطها فى دور المراهقة ، فيزداد ميل المراهقين للألعاب الجمعية ، ككرة القدم وكرة السلة ، والأعمال التى تستلزم تعاون بضعة أفراد ، كما يزداد ميلهم لتأليف الجمعيات والعصابات ، حتى إن بعض الكتاب ليسميه دور العصابات The Gang Age ، ولاشك أن هذه أول فرصة يحاول فيها الناشئ أن يخبر كنه الحياة الاجتماعية ، ويزج بنفسه فيها.

ولذا نجد أن طرق التعليم الجمعية أيضاً تناسب المراهقين . وليس من تناقض فى الجمع بين الطرق الفردية والطرق الجمعية ، لأن الفتى يجب أن يتعاون مع غيره ، وأن يشعر بأنه جزء من نظام عام يقوم بعمل كبير ، ولكن الجزء الذى يعطى له لينجزه ، يود أن يعطى له من الحرية والاستقلال فى إنجازه ، ما يكفل له الابتكار وبذل الجهد والشعور بالسرور من العمل المستقل ، فمثلا إذا كانت المدرسة تنوى القيام بحفلة تمثيلية تاريخية ، فلابد لها من عدة تلاميذ يشتركون فى إخراجها ، والمراهقون يلذ لهم التعاون فى إخراج مثل تلك الأشياء ، إلا أن كلا منهم سيلقى على عاتقه جزء من ذلك العمل ، فأحدهم سيكلف بكتابة الرواية ، والآخر بوضع الرسوم والتصميمات للستر والمناظر ، وثالث سيرأس فرقة الموسيقى ، وقد يكون بينهن فتيات تقوم كل منهن بحياكة فستان لبعض شخصيات الرواية . وكل من هؤلاء يبغى بذل الجهد فى العمل الذى وكل إليه ، وإظهار قوته على الابتكار ، ويود أن ينسب عمله إليه . وكذلك فى لعبة كرة القدم وغيرها من أوجه النشاط المدرسى .

وهذا النوع من الأعمال يمكن الاتساع فيه فى المدرسة ، وهو يفيد فى تربية التلاميذ ، من الوجهتين الخلقية والاجتماعية ، فالانضواء تحت علم الرئيس ، سواء أكان رئيس الفرقة الرياضية أم الموسيقية ، أم رئيس الجمعية العلمية

أم الأدبية ، والخضوع لرأى محرر الجريدة أو المجلة ، والتعود على بذل الطاعة والنصح بالطرق النظامية ، ثم تعود كل فرد التكاتف مع إخوانه من الأعضاء الآخرين ، وعدم التعدى على حقوقهم ، والمحافظة على حقوقه هو نفسه ، ثم منافسته لهم بالطرق السلمية المشروعة ، من غير إعطاء فرصة للغرائز الأولية ، كل ذلك يمهد الطريق لاشتراك الفتى فى الحياة الاجتماعية بعد خروجه من المدرسة ، فضلا عن أنه يكون مصدراً للسرور أثناء الدراسة ، والإقبال على المدرسة ونشاطها ، لاتفاقه مع ميوله ونزعاته الطبيعية .

والصحافة من الأعمال التى تلذ للمراهقين وتعطى مواهبهم فرصة كبيرة . فهى مشجع للكتابة ، وحافز إلى دراسة اللغة والعناية بها ، وطرق المواضيع العلمية أو الاجتماعية أو الأدبية ، ولذا فهى حافز للتلاميذ إلى الاطلاع .

ولغير الكتاب مجال بها ، فالمصورون بآلات التصوير الشمسى يلذ لهم نشر صورهم ، فهى كمعرض لهم فتكون بذلك مشجعاً لهم على الاتقان ، وميدانا للتنافس الفنى . ولغير من ذكرنا مجال بها أيضاً . فالمديرون لهم مجال لإظهار قدرتهم على الإدارة والتنظيم لإخراج المجلة المدرسية فى أحسن ثوب وأرفع مستوى وأجمل طبع بأرخص ثمن ، وليس ذلك بالأمر اليسير ، وفائدة ذلك لا تنحصر فى المواضيع العلمية بل إنها تزود المراهقين بالخبرة العملية فى إدارة الأعمال والشراء والبيع والحساب إلى غير ذلك .

وليست فائدة مجلة المدرسة بقاصرة على أعضائها الذين يشتركون فيها ، أو الكتاب والمصورين الذين يزودونها بثمرة يراعهم ، بل هى معرض لأفكار تلاميذ المدرسة ، ففيها يعبرون عن آرائهم العلمية والاجتماعية ، وهى وسيلة يعبرون بها لأساتذتهم عن مطالبهم وآمالهم بشكل مشروع ، كما أنها مجال يعبر فيه الأساتذة عن آرائهم لتلاميذهم بشكل تقبله النفس ، فهى أفضل من التنبيهات التى يمليها ضابط المدرسة على التلاميذ ، أو المنشورات التى يصدرها الناظر أو الوزارة مثلا .

ولاشك أن الأعمال الفردية تستلزم وجود مكتبة مستوفية على قدر الاستطاعة ، إذ أن توزيع أجزاء العمل على الأفراد ، ومطالبة كل منهم بالبحث المستقل ، يستلزم وجود كتب يستطيع كل منهم أن يبحث فيها عما يكلف به من المشروع أو العمل العام .

وأن كلا الأعمال الفردية والاجتماعية لعظيمة القيمة فى التربية الخلقية للمراهقين ، تلك التربية التى تفوق فى قيمتها كل ما يحصله الفتى أو الفتاة فى المدرسة . فهذه الأعمال المدرسية التى ذكرناها يجب أن لا ينظر إليها ، كوسيلة لجمع المعلومات فحسب ، بل يجب أن تستغل فى سبيل تقويم أخلاق النشء وتدعيمها ، وإعدادهم للحياة السعيدة الكاملة الفاضلة .

وإننا حين نتحدث عن الأخلاق لا نقصد مجرد التعفف عن المحرمات ، أو الاقلاع عن التدخين مثلا بل نقصد معنى أوسع من ذلك بكثير . نعم إن التعفف عن المحرمات والعادات الضارة بالصحة جزء لا يتجزأ من الخلق المحمود القويم . ولكننا نرى أن لا تكتفى المدرسة بالناحية السلبية من التربية الخلقية . فالشاب المستكين ضعيف الخلق وإن كان أكثر الناس ابتعاداً عن الفساد ، وعلى المدرسة أن تعد الناشئ لأن يكون وثابا يقظاً منتهزا للفرص ، غيرهياب ولا وجل ، كما يجب أن يكون كذلك مؤدباً مطيعاً محترما للضعيف ، ومحترما للقانون وحقوق الغير .

وإن طريقة الوعظ ، على أهميتها ليست كافية فى التربية الخلقية ويجب ، أن تقرن بالتدريب على الحياة المرغوبة ، فالعادة السيئة صعبة الاستئصال ، ولا يكفى فى علاجها الزجر والوعظ ، بل أفضل طريقة هى تكوين عادة محمودة تناهضها وتحل محلها . وليست التربية الخلقية للناشئين بقاصرة على الأخلاق الشخصية ، كقول الصدق والاستقامة والاقلاع عن المحرمات ، إلى غير ذلك مما يخص الفرد فى حياته الشخصية . فالمراهق على وشك دخول الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، وعلى المدرسة أن تعينه على الاستعداد لها بتقويم خلقه فى معاملاته

مع غيره وفى استقصائه لأسباب الرزق وأسباب التمتع ، وفى محافظته على حقوقه الاجتماعية والوطنية .

ومع اعتقادنا بأهمية دروس الأخلاق والديانة فى التربية الخلقية ، ومع اعتقادنا بضرورة تخصيص ساعات معينة لها فى برنامج المدرسة الثانوية، نود أن لا ينصرف المعلمون عن التربية الخلقية بمجرد انتهاء حصة الأخلاق ، بل يجب أن تنتهز كل فرصة لاختبار خلق التلميذ وتزويده بالنصائح ، والتدريب اللازم لتقويم المعوج فيه . فالتلميذ الذى ييأس من حل مسألة جبرية قبل بذل مجهود لحلها ضعيف الخلق ، وعلى المدرسة تعويده المثابرة وبث روح الصبر والجلد فيه ، ولن يتأتى ذلك بتعويده الصبر والجلد فى دروس الجبر أو الرياضة فقط ، بل يجب أن تنتهز كل فرصة فى أى درس ما ، سواء أكان فى الجغرافية أم اللغات أم الرياضيات أم غير ذلك . كما يجب تدريبه على الجلد فى الألعاب الرياضية وفى الرحلات وفى منافسة الخصوم فى الانتخابات المدرسية، وكذلك فى البيت وفى الشارع وفى السوق ، وهكذا فى جميع نواحى حياته . عندئذ تتكون لديه عادة المثابرة ويصبح خلقه متينا . أما إذا اكتفينا بتعويده المثابرة على حل المسائل الجبرية فقط ، فليس هناك ما يضمن انتقال تلك العادة إلى نواحى الحياة الأخرى .

وتسنح فى المدرسة الثانوية فرص عديدة لتقويم الخلق ، فالمناقشات التى تجرى فى كل درس ، والمناظرات المدرسية العامة مجال صالح لتعويد التلميذ احترام رأى الغير ، لأن التلميذ الذى يسفه رأى كل من يختلف معه ، والذى يؤيد رأيه بسبب الآخرين والتحامل عليهم ضعيف الخلق ، والأجدر أن يعود التأنى وضبط النفس فى المناقشة ، سواء أكانت هذه مناقشة علمية أم سياسية أم دينية وأن يعود تأييد الرأى بالحجج البينة ، ودحض رأى الخصوم بتلك الحجج لا بالاعتداء . كما يجب أن يعود احترام رأى الخصم حتى ولو كان خطأ، والاعتراف بالحق إذا ثبت له حتى ولو كان صادرا من الخصوم . وما يقال

عن المناقشات والمناظرات يقال عن الألعاب الرياضية والمسابقات . فالفتى الذى يحتد ويخرج عن قانون اللعبة إذا ما هزم ضعيف الخلق أيضا ، ويجب أن يعود قبول الهزيمة بروح طيبة، وأن يستخدم قوة فى انفعالاته لا فى الشجار مع الخصم بل فى التدرب للمسابقة القادمة .

والتلميذ الذى يغش فى الامتحان أو فى المسابقات ضعيف الخلق أيضاً ، ويجب أن يعود الأمانة والاعتماد على النفس . ومجال ذلك بالمدرسة متسع ، فهو يسنح أثناء الاختبارات والواجبات المدرسية ، وعند اقتراض كتب المكتبة ، وتسنح عند ما تسلم للتلميذ أموال جمعية من الجمعيات إذا ما عين أو انتخب أمينا للصندوق .

والمجال واسع للتدرب العملى على الأخلاق القويمة ، فى أعمال النشاط المدرسى كالرحلات والمناظرات ، وإدارة المجلة المدرسية ، وإدارة الجمعيات والانتخابات المدرسية وهكذا .

ولا يغيبن عن الذهن أن التربية العلمية وحدها خطر ، لأنها قوة قد تستخدم فى الشر أو فى الخير ، والتربية الخلقية توجهها نحو الطريق المحمود .

ووجود طريقة التدريس فى الفصول يفيد أيضاً ، نظرا لاقتصادها فى الزمن ، ولأنها تعطى التلميذ فرصة للاستماع والراحة . إذ لو كان كل العمل بالمدرسة عملاً تنقيبيا ، يلقى عبؤه على التلميذ ، لأجهد وقل محصوله . وليلاحظ هنا أن طريقة التدريس يجب أن تكون ملائمة للعقلية الجديدة ، والميزات التى ذكرناها فى غير هذا المكان . فإذا علمنا مثلا أن تفكير الطفل الذى كان عمليا محتاجا إلى المحسات لمعاونته ، أصبح الآن ، حوالى منتصف دور المراهقة ، قادرا على التخلص من تلك المحسات ، والسمو وحده ، فأصبح تفكيرا معنويا مجردا إلى حد ما ، فهمنا حاجة المراهق عندئذ إلى فرصة للاستنتاج المنطقى الدقيق ، فذلك يلذ له ، ويعوده التفكير المستقيم ، فالخطوة التنقيبية أو الاستقرائية التى تجمع فيها الحقائق ، والقوانين الطبيعية التى يوصل إليها بالتجارب ، يحسن أن

تتمم بالخطوة الاستنتاجية أو الاستنباطية ، التى توضع فيها المقدمات أمام التلميذ فيستنتج منها ما تؤدى إليه ، وبذا يستطيع تطبيقها عمليا

غير أن التربية العقلية ليست كل شىء يهمنا فى حياة التلميذ ، والواقع أن مدارسنا توجه إليها اهتماما يمنع العناية بأى شيء آخر ، فيتسبب عن ذلك إهمال للتربية الجمالية والانفعالات الجمالية ، وهى ناحية من نواحى التربية لها قدرها ، والوسيلة إليها هى الفنون ، كالموسيقى والتصوير والشعر والأدب . وإنا لا نرمى إلى تدريس هذه المواد لمعرفة قوانينها وقواعدها فقط ، فذلك تقليل من أهميتها ، وفيه فقدان لروحها ومغزاها الأسمى ، وإنما الغرض تعويد الفتى على تقديرها وفهمها ، وتسهيل سبيله إلى الجميل منها ، وإعانته على إتقانها حتى يستمتع بها فى وقت فراغه وحيثما يجدها ، ففى ذلك تهذيب لنفسه ، وسموبها فوق أفق المادة . ولذا يجب أن يكون التدريس مناسبا لذلك الغرض ، ومحققاً له ، فحماس المعلم وتقديره هو للجمال يساعد التلاميذ على التحمس له وتقديره أيضاً . أما الطرق العلمية الدقيقة ، التى تقتضى البحث ، والتحليل والاستنتاج والتعميم والتطبيق إلى غير ذلك ، فلا مجال لها هنا ، لأنها تسلب الفنون روحها ومعناها السامى . خذ مثلا دراسة قصيدة من الشعر ، فإنا لو قطعناها إربا ، وفصلنا أجزاءها لدراسة المعنى كل كلمة وكل بيت على حدة ، لفقدت قيمتها الجمالية ، وانصرف الذهن عما بها من روعة وجمال ، كما لو حللنا قطعة موسيقية ، وسمعنا كل جزء على حدة فإنها تفقد قيمتها وجمالها ، إذ أن تلك المقاطعات تعكر صفو تقدير الإنسان لها .

ولقد أبان علم النفس الحديث ما للعمليات العقلية اللاشعورية من تأثير على العمليات العقلية الشعورية ، وعلى سلوكنا الظاهر ، فكثير من هذا السلوك ناجم عن دوافع لا ندرى ولا نشعر بها ، لأنها مختفية فى قرارة اللاشعور . وتقدير الجمال يتوقف لحد كبير على تلك العمليات اللاشعورية . فكأن التربية الجمالية فى الحقيقة تربية لتلك العمليات اللاشعورية . أما التحليل

والتمحيص ، فاحق به العلوم التى تحتاج إلى عمليات شعورية . ولكن الفنون يتوقف تقديرها وإدراكها إلى حد كبير على عوامل مضت وتجمعت فى نفوسنا وأصبحت جزءا منها ، وميراثا ثابتا لا نشعر بأنا نحمله بين طيات عقولنا . ومن هنا نشأ الاختلاف بين الأفراد فى إدراك الأشياء الفنية ، وتقدير ما بها من جمال وسحر . ولذا كانت الحاجة ماسة إلى إعطاء التلميذ فرصة للتأمل فيها على استقلال ، فى شيء من الهدوء ، وإدراك الأجزاء كلها مع بعضها ، بدلا من فصلها .

ويبدو ذلك الضعف فى طرق تعليمنا واضحا عند دراسة الظواهر الطبيعية . فكل اهتمامنا يعرض إلى التحليل والبحث عن القوانين التى تحكم تلك الظواهر وإجراء التجارب فى المعمل ، إلى غير ذلك من الطرق التى يقتضيها بحث العلم الدقيق . ولكننا نغفل عما بتلك الظواهر من جمال وروعة . فإذا أخذنا التلاميذ إلى منطقة خلوية جبلية مثلا ، وجهنا نظرهم إلى شكل الجبال ، ومقدار ارتفاعها عن سطح البحر ، وعن تأثير الرياح والأمطار بها ، ثم ذكرنا أسماء ما بها من أودية ، وتأثير مياه النهر فى شكل الوادى وهكذا . وكذلك فى دراستنا للنبات والأزهار ، نوجه الاهتمام نحو عدد أوراق الزهرة وما بها من أعضاء تذكير وتأنيث ، ومن أية فصيلة هى وإلى شكل أوراقها ، وكيفية تنفس النبات من أوراقه وهكذا . ففى كل هذا نحن نغفل عن تقدير الجمال ، ولا نعطى الفتى فرصة للتأمل فيه ، وترقية حواسه ومشاعره ، حتى يسمو ولو إلى حين ، عن عالم الماديات ، وحتى يشعر أن الحياة المدرسية تكون أحيانا مصدراً للسرور الراقى .

الفهـــرس

صفحة

الفصل الأول . تمهيد ٤

معنى المراهقة . أدوار النمو . أهمية دور المراهقة . موقف الأمم غير المتمدينة منها.

الفصل الثانى . التغيرات التى تحدث فى دور المراهقة ٨

ا — التغيرات الجسمية :

الوزن . الأطراف والجذع . حركات المراهق وتوازنه . الوجه والأنف . العظام . مسام الجلد والغدد . أثر الوراثة . الصوت . القامة . موازنة بين البنين والبنات . المميزات الجنسية عند البنين والبنات . الأمم المتوحشة وتفسيرها للحيض . أثره فى الحالة العقلية والجسمية للفتاة أثره فى تعليم البنت . الأجهزة والأعضاء الداخلية والغدد . الغدد الجنسية . المعدة . المخ . تعرض المراهقين للأمراض .

ب — التغيرات العقلية : ١٨

القوى العقلية . التعلم . الاختبارات العقلية . نمو الحواس . أحلام اليقظة . فائدتها وضررها وعلاجها . مقاييس الذكاء . مقياس بينيه ترمان ميرل واختبار أوتس وغيرهما . متى يقف نمو الذكاء . الجمعيات المدرسية . التعليم الدينى . اهتمام المراهقين بالعالم الاجتماعى وبالرياضة البدنية . هوايات المراهقين .

ج — التغيرات الوجدانية : ٢٧

الشعور بالذات . موقف المراهق نحو المجتمع . النمو الصحيح للغريزة الجنسية والشذوذ . متى يقبل المراهقون على الجنس الآخر وفترة رد الفعل . الميل إلى اتخاذ الأصدقاء . تمجيد الأبطال .

الفصل الثالث . الفروق بين الجنسين : ٣٦

ا — الفروق الجسمية :

فى الوزن والطول والمخ . فى موعد حلول المراهقة . الوجهة العصبية . الدم

ب — الفروق العقلية : ٣٨

نتائج الامتحانات . أسباب التفوق . أبحاث سيرل بيرت . نتائج اختبارات الذكاء . نتائج اختبار بينيه سيمون . نتائج اختبار سيرل بيرت . نتائج أبحاث تيرمان . أهمية تلك النتائج للمربين وأثرها فى المناهج . رأى ثورندبك . الفروق بين الجنسين فى العمليات العقلية الراقية والبسيطة . الميول .

ح — الفروق الوجدانية : ٤٧

المقاييس المزاجية وبيانها للفروق بين الجنسين . سلوك الجنسين فى المدرسة . إجرام البنين وإجرام البنات . أبحاث هويلر . الحياة الوجدانية للإناث . أثر الزواج فى حياتهن .

صفحة

الفصل الرابع . الأنواع الرئيسية للمراهقين أو الفروق الفردية بينهم : ٥٤

طريقة الإحصاء فى الدراسة والطريقة الفردية . الاختبارات العقلية وأنواعها . الاختبارات التشخيصية والاختبارات التحصيلية . الاختبارات العملية . اختبارات التواهات . القدرات الخاصة وأثرها فى مهن المراهقين المستقبلة . اختبارات التوجيه المهنى . الاختيار المهنى . الفروق بين المراهقين الأذكياء والذين دون المتوسط . أبحاث ترمان .

الفصل الخامس . تأديب المراهقين . حالات الشواذ والأحداث . ٧٠

أسباب الشذوذ . قدرتهم العقلية . العيوب الجسمية . البيئة المنزلية . الطلاق . المستوى الاقتصادى . ازدحام المساكن . أثر المدرسة . الوقاية . هومرلين .

الفصل السادس . فطام الشباب . ٩١

معناه وأسبابه . المراهقون وتحريرهم من الوالدين . علامات عدم الفطام . عادات الطفولة وكيفية التخلص منها . الفطام وأثره فى نجاح المراهقين .

الفصل السابع . الغريزة الجنسية فى دور المراهقة ١١٤

موقف المجتمع تجاه الغريزة الجنسية . طبيعة الشعور الجنسى . التبرير . فرويد . الصفات التى تستهوى الشباب فى الجنس الآخر . المثيرات الطبيعية وغير الطبيعية للغريزة الجنسية . الشذوذ الجنسى . الأطفال والغريزة الجنسية . العادة السرية . الزواج . الزواج المتأخر . الإعلاء . إباحة الاختلاط وعواقبها . الميول الجنسية فى المدارس . الحب الشاذ فى المدارس .

الفصل الثامن . التربية الجنسية : ١٥٤

موقف المجتمع حيال التربية الجنسية . أسئلة الأطفال . إنقاذ الناشئين من العلاقات غير المشروعة . كيفية التربية الجنسية . برنامج لدراسة فى التربية الجنسية

الفصل التاسع . الجمع بين الجنسين فى المدارس ١٧٤

آراء أنصار الفصل بينهما . آراء أنصار الجمع بينهما . آراء الأطباء وعلماء النفس . تقرير اللجنة الاستشارية لوزارة المعارف الأنجليزية . رأى عميد كلية المعلمين بجامعة كولمبيا

الفصل العاشر . المدرسة الثانوية والمبادىء التى تقوم عليها تربية المراهق وتعليمه ١٨٩

المدرسة الثانوية وميول المراهقين . الغرض من المدرسة الثانوية . التعب . الأعمال اليدوية . أبحاث الأستاذ بير . التربية الاجتماعية . المنهج .

الفصل الحادى عشر . تابع تربية المراهق وتعليمه . ٢٠٦

مطابقة المدرسة لميزات المراهقة . الطرق الفردية . التعليم فى الفصول . طريقة دولتون . طريقة موريسون . طريقة ونتكا . الرحلات . الصحافة . التربية الخلقية . التربية العقلية والجمالية .

893.785
As47

BOUND

JUL 12 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58891226
893.785 As47 Nafsiyat al-murahiq.